

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة



مجلة الونشريس



للدراسات التّاريخية

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية تصدر عن قسم التّاريخ
بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة - الجزائر









المجلد: 02، العدد: 01،
رجب 1444هـ / فيفري 2023م

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة –الجزائر

مجلة الونشريس للدراسات التّاريخية

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية تصدر عن قسم التاريخ بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة.

إدارة المجلة

السنة الأولى، المجلد الثاني، العدد 01، رجب 1444هـ/ فيفري 2023م

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية، مجانية الوصول. تصدر عن قسم التاريخ بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة ولاية عين الدفلى (الجزائر)، وهي نصف سنوية. تنشر بحوث ومقالات علمية أصيلة ورقيا وإلكترونيا متاحة للقراءة والتحميل. والمجلة مفتوحة للباحثين من داخل الوطن وخارجه لنشر إنتاجهم العلمي، الذي تصف بالأصالة والجدة.

مجالات النشر بالمجلة:

المجلة متخصصة في الدراسات والأبحاث التاريخية بمختلف الميادين والتخصصات (قديم، وسيط، حديث، معاصر)، ومعالجة جميع إشكاليات حقل البحث التاريخي والحقول المرتبطة به، مثل علم الآثار وعلم المتاحف وعلم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وتاريخ فلسفة العلم، وتاريخ التعليم. كما أن المجلة أحيانا تخصص أعداد خاصة لنشر موضوعات متخصصة أو أعمال ملتقيات.

أهداف المجلة:

تهدف المجلة إلى نشر البحوث والدراسات التاريخية المتخصصة، وإلى مواكبة جهود البحث التاريخي في الجامعات الجزائرية والدولية، وتوفر منصة أكاديمية للباحثين لنشر المعارف التاريخية بقصد المساهمة في العمل المبتكر في هذا المجال ببحوث معروضة بدقة وموضوعية تلتزم بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالميا، كما تهدف لتطوير البحث الأكاديمي العلمي في الجزائر.

شروط النشر:

1. لا تقبل إلا البحوث التي لم يسبق نشرها، كما يجب ألا يقدم البحث المرسل للمجلة للنظر في نشره إلى دورية أخرى قبل أن يخطر الباحث من قبل رئيس تحرير المجلة بالاعتذار عن نشره.
2. يجب اعتماد طلب النشر في المجلة من قبل جميع المشاركين في البحث وموافقة الجهات المسؤولة في حالة وجود ضرورة إلى ذلك.
3. في حالة قبول البحث أو أثناء إعداده للنشر في المجلة، يجب عدم نشره في أي جهة أخرى بنفس الصيغة واللغة أو أي لغة أخرى.
4. عند تقديم الباحثين مسوداتهم للنشر في المجلة، فإن حقوق الطبع والنشر تنتقل كاملة إلى الناشر بعد إخطارهم بقبوله للنشر.
5. تغطي حقوق الطبع إنتاج وتوزيع البحث وكذلك إعادة الطبع والاستنساخ والمصورات المصغرة وقواعد المعلومات الإلكترونية وشرائط الفيديو أو أي إعادة إنتاج بطبيعة مشابهة وكذلك الترجمة.
6. في حالة البحث المشترك، يعتمد الباحث الأول المدون مع عنوان البحث مرجعاً للبحث.
7. بعد قبول البحث وفي مرحلة إعداده النهائي للنشر، يتم إرسال وثيقة انتقال حقوق الطبع والنشر إلى الباحث للتوقيع عليها (الوثيقة متوفرة وهي قابلة للتحميل على موقع المجلة).
8. يفترض أن المعلومات والآراء والأحكام الواردة في هذه المجلة صحيحة ودقيقة في وقت طباعتها، ولا يتحمل الناشر أو المحرر أية مسؤولية قانونية عن أي نقص أو أخطاء ترد في البحوث.
9. المفاهيم والآراء المعبر عنها في المقالات لا تلزم إلا أصحابها.

أخلاقيات النشر في المجلة والتحكيم

تعتمد المجلة أخلاقيات النشر لضمان نوعية جيدة للبحوث المنشورة، وهي تلزم أطرافها من هيئة مشرفة وناشرين ومحكمين الالتزام بمبادئ ميثاق أخلاقيات النشر، وتحرص على ضمان حقوق الباحثين والمؤلفين، وسرية التحكيم، وجودة التحكيم من خلال انتقاء أجود المحكمين المتخصصين، وهي تلزم الناشرين باحترام قواعد النشر وإجراء التصحيحات المطلوبة من المراجعين. وهذه التقارير أساس القبول، أو التأجيل، أو الرفض، لأي بحث أو دراسة مع العلم أن المجلة يمكنها أن تطلب إدخال التعديلات التي تراها مناسبة بناء على تقارير المحكمين.

الكلمة الافتتاحية لمدير المجلة:

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على اشرف المرسلين، و بعد، سيداتي سادتي الزميلات و الزملاء الأساتذة، بناتي أبنائي الطلبات و الطلبة، إنه لمن دواعي سرورنا أن نتقدم إليكم بهذا المولود العلمي الجديد، والذي نأمل أن يكون لبنة جديدة تضاف إلى اللبنات التي سبقتنا في بناء سرح الجامعة الجزائرية، و حلقة من حلقات الجهد المبذول في طريق البحث العلمي الجاد للباحث الجامعي، وأننا إذ نقدم لكم مجلة الونشريس للدراسات التاريخية إنما نقدم لكم مجلة دورية محكمة نصف سنوية تصدر عن قسم التاريخ لجامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة.

إن غايتنا الأولى وهدفنا الأسمى من هذه المجلة هو توفير المجال الحر للإبداع العلمي و مجال خصب و منتج للأفكار الجديدة و المعرفة، فكما قال الشيخ محي الدين بن العربي " الطريق إلى الحقيقة يتعدد بتعدد السالكين" فنسأ الله العلي القدير أن يجعل من هذا الفضاء أحد الطرق المؤدية إلى الحقيقة العلمية الخالصة، و أن ينبر طريقنا إلى سلك الطريق القويم في مجال البحث العلمي.

فهرس المجلد 02، العدد 01 – العدد التسلسلي 03

الموضـــــــــــــوع	المؤلف	الصفحة
كلمة مدير المجلة.	أ.د / نور الدين شعباني	06
موقف فرانز فانون من الإمبريالية ودعوته لوحدة الشعوب الإفريقية من منبر دبلوماسية الثورة الجزائرية	د.الطاهر خالد ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)	09 40
كيف تعاملت الحكومة العثمانيّة مع المهاجرين الجزائريّين بعد احتلال بلادهم ؟	د. مصطفى الستيتي، مركز الوثائق والأبحاث (قطر)	41 63
علاوة عمارة: نص غير معروف حول جماعتين مبتدعتين بالمغرب الوسيط	مامي محمد/ جامعة علي لونيسي، البليدة 2 منصوري يحيى/ جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر).	64 87
سياسة التنصير للأسرة السليمانية على مسلمي الحبشة (من نهاية القرن 9هـ/15م إلى بداية القرن 10هـ/16م).	غندوز عائشة/ نور الدين شعباني جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة (الجزائر).	88 123
المظاهر الحضارية في الجزائر على ضوء الرحلة المغربية خلال القرن الثامن عشر الميلادي(العمران أنموذجا)	حياة بوشوشة، جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف (الجزائر)	124 146
القضاء الإسلامي في الجزائر خلال القرن 19 في سجلات المحاكم الشرعية وتشريعات السلطة الاستعمارية	د.عبد الباسط قلفاط ، جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة (الجزائر).	147 166
الشيخ سعد بن هدنة التبّاني السطايفي سيرة عالم ومجاهد	حدة قادري، جامعة الجزائر 2، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر).	167 177

إضراب الثمانية أيام 28 جانفي –4 فيفري 1957 الوقائع والمجريات من خلال مذكرات الفدائية زهرة ظريف	نهاص هاجر، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)	178 202
أثر الفكرالإصلاحي لمحمد بن عبد الكريم المغيلي في غرب إفريقيا	سارة عزيزي، جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة (الجزائر)	203 218

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية
ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820
Algerian Scientific Journal Platform

المجلد: 02، العدد: 01 | رجب 1444هـ/فيفري 2023م | الصفحات: 09–40

موقف فرانز فانون من الإمبريالية ودعوته لوحدة الشعوب الإفريقية من منبر دبلوماسية الثورة الجزائرية

Frantz Fanon's position on imperialism and his call for the unity of the African peoples from a pulpit The diplomacy of the Algerian revolution

د/الطاهر خالد *

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)

tahaerkhaled@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال

2022/11/12

تاريخ القبول

2023/01/01

الكلمات المفتاحية:

فرانز فانون؛ حركات التحرر؛ الإمبريالية؛ الثورة الجزائرية؛ إفريقيا.

الملخص:

إن الدارس للشخصيات التي أسهمت في بناء تاريخ إفريقيا المعاصر خاصة منها المعادية للإمبريالية والتي نادت بالوحدة الإفريقية وتحررها من الواقع الاستعماري، يرى بأنها ما تزال في أمس الحاجة إلى الحبكة والتمحيص. فهناك شخصيات أسالت الكثير من حبر الدارسين والباحثين حولها، في حين شخصيات ظلت مبهمة ومستعصية على العقول وتعاني التهميش، منها الإفريقي الأصل الأنتيلي المولد الفرنسي الثقافة المتأثر بالقضايا الإفريقية. إنه الثائر والمناضل والمفكر فرانز فانون حيث خصصنا هذه الورقة العلمية عن ثرائه الفكري الذي يدل عن ثقافته ووعيه وواقعيته التي جعلته يتعمق في القضايا التي تمس الأمة الإفريقية إلى حد القدرة على التنظير، خاصة ما تعلق باضطهاد الاستعمار لها، ودعوته إلى وحدة الشعوب الإفريقية وتضامنها لترفع عن كاهلها استغلال الإمبريالية لها.

Article info

Received:
2022/11/12
Accepted:
2022/01/01

Abstract:

The student of the characters who contributed to the construction of modern African history, especially anti-imperialism, which called for African unity and liberation from colonial reality, believes that it is still in dire need of plot and scrutiny. There are figures who have shed many of the ink of scholars and researchers around them, while figures have remained vague and intractable to the

* المؤلف المرسل

minds and suffer marginalization, including the African origin of the French-born Antillean culture influenced by African issues, he is revolutionary and activist and thinker Franz Fanon, where we devoted this paper on intellectual wealth, which shows his culture And his awareness and reality that led him to deepen the issues affecting the African nation to the extent of the ability to endoscopy, especially with regard to the persecution of colonialism, and his call for the unity and solidarity of African peoples to lift the burden of the exploitation of imperialism.

Key words:
Franz Fanon; Freedom movements; Imperialism; Algerian Revolution; Africa.

مقدمة:

بعض محطات التاريخ المعاصر وقفت عند الشخصيات التي وظفت فكرها وثقافتها في خدمة القضايا العادلة، وكانت بوابة لولوج التحرر عند شعوب المعمورة المضطهدة والتي تعاني ويلات الاستعمار، كإفريقيا التي شربت من الإمبريالية طيلة الفترات الحديثة والمعاصرة. وممن كانت لهم مساهمة في سيرورة حركات التحرر بين الشعوب الإفريقية من حيث الجهد التنظيري الفكري، والنضال السياسي الإيديولوجي، وأثبت فعاليته في هشاشة يد الاستعمار المفكر فرانز فانون. هذا الرجل الثائر الذي يملك فكر واسع ضد الإمبريالية ولم يتقبل وجوده بين أواسط الشعوب، لأن الرجل استفاد من خبرة المدرسة الكولونيالية في فهم نفسية الشعوب المستعمرة ومعالجة أمراضها، وهذا قاده إلى فهم تجربة الكفاح التحرري في معناه العميق. فهو خير معبر عن تجسيد إيديولوجية مجابهة المستعمر خاصة وأنه انخرط في تجربة الثورة الجزائرية التي تعتبر صورة عن حركات التحرر العالمية بمعانيها السامية، ومن هذا المنطلق وجب علينا أن نتساءل عن: **ما هو هدف فرانز فانون في تبنيه لمبادئ الثورة الجزائرية؟ وماهي المرجعيات الفكرية التي استلهم منها نظرياته عنها؟ وإلى أي مدى أسهمت أفكاره الأيديولوجية والسياسية في بلورة التحرر بإفريقيا؟**

أولا/ فرانز فانون حياته وآثاره

1- أصوله ونشأته

تعود أصوله إلى الرقيق الذين حملوا منذ قرون إلى جزر الأنتيل (1) من إفريقيا وكانت المارتينيك (2) تشكل مع جزر الأنتيل الصغرى منطقة تشملها السيطرة الفرنسية منذ القرن 17م

[3]، وقد ازدهرت تجارة الرقيق في المنطقة لتزويد المعمرين البيض باليد العاملة السوداء التي من واجبها القيام بأعمال يدوية في مزارع قصب السكر [4]. وظل أبناء الأفارقة الذين استقروا بالجزيرة يعانون الاضطهاد ويقومون من حين لآخر ثورات تقمع بشدة، ومع قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة، وظهور النظريات الاندماجية [5]، توقف ذلك التطور وراح السكان يحلمون بالمساواة المطلقة مع الأوروبيين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، التي ساهم فيها سكان المارتينيك إلى جانب سكان المستعمرات الفرنسية، واتخذت بعض التدابير تهدف إلى إيجاد تقارب سطحي، بين سكان المارتينيك وسكان الوطن الأم [6]. هذا بالإضافة إلى محاولة النخبة المارتينيكية التنكر لماضيها وعرقلة الكفاح الشعبي للحصول على استقلالها. ورغم أن البيض يمارسون التمييز العنصري على السود إلا أن الجزيرة شهدت ظهور فئة يمكن تسميتها بالبرجوازية الزنجية، التي كانت تبحث عن الاندماج والذوبان في الوسط الفرنسي أكثر من التفكير في أخذ حريتهم وتحقيق استقلال بلادهم، وتنتمي أسرة فانون إلى هذه الفئة، وقد تطورت البرجوازية المحلية إلى وجود نوع من شعور التفوق عند الأنتيل، بالنسبة لزنوج المستعمرات الأخرى، إن الديانات التي حملها أسلاف فانون حلت محلها الشعائر المسيحية، وكان رجال الدين الكاثوليك في الجزيرة يضعون أنفسهم في خدمة المحتل، ولا يسمحون ببروز الوعي بالشعور القومي [7].

وهكذا شهدت هذه الجزيرة وخصوصا بعد الحرب العالمية الأولى القبول بالأمر الواقع، وحلت محل الكفاح الذي عرفته في القرن الماضي، وفعلا في القرن 19م كان عامرا بالاضطرابات التي تكشف عن وجود رغبة عميقة في التحرر من الاستعمار. ففي عام 1822م جرت أحداث دموية في المارتينيك وأعمال عنف عام 1830م عندما كانت باريس تتأهب للتوقيع على مرسوم إلغاء الرق في 27 أفريل 1848م، وبذلك فإن السكان ظنوا أن الحال سيتغير عليهم، لكنهم بقوا على حالهم [8]. ورغم ذلك لم تنقطع الاضطرابات، فقد

اندلعت حوادث عام 1870م في جنوب المارتنيك، وأضرمت النار في أربعين مزرعة، وكان هذا أسلوب جديد للثورة على التطور الجديد، الذي يحدث في المجال الاقتصادي، إلا أن هذا الكفاح المرير أصبح باهتا مع صعود موجة الاندماج المارتنيكي، بل أن هذه الفئة التي تنتمي إليها أسرة فانون، كانت تتحدث عن زنوج إفريقيا، بنفس اللهجة التي يتحدث بها الأوروبيون. كان الأنتيلي يعتقد بأنه متفوق على الإفريقي، بل هو كان يتأكد زيادة على ذلك من وجود فرق جوهري بين الإفريقي والأنتيلي [9] .

أما عن مولده فقد ولد يوم 20 جوان 1925م بمدينة "**فور دي فرونس Fort de France**"، عاصمة المارتنيك الفرنسية [10]، والده "**كزمبير فانون Casimir Fanon**"، كان يعمل بالجمارك، ووالدته كانت تمارس تجارة حرة، ويعد فرانز فانون الولد الثالث في العائلة المكونة من ثمانية إخوة [11]. وقد نشأ فرانز فانون وترعرع في وسط عائلة برجوازية صغيرة [12]، عاش منذ طفولته الحرمان والذل الذي لحق بالشعوب المضطهدة، والتمييز العنصري، وكان يتسم بالذكاء، وحدة التفكير، كما عاش مرحلة طفولته ومراهقته في منطقة البحر الكاريبي [13]. وهو الأصغر من بين أربعة بنين وفي عام 1936م أدخله والده إلى مدرسة خاصة بالأطفال السود في المار تينك [14]. تلقى فانون بالمدرسة الفرنسية تعليمه، وتعزز نفوره من اللهجة المحلية، وتأثر بالقيم البيضاء ممثلة في عدة شخصيات سياسية، أي نفس القيم والتواريخ التي كانت دروس التاريخ الفرنسي في جميع أنحاء المستعمرات تفرض معرفتها على الأهالي [15]. أما تعليمه الثانوي فكان بثانوية سكولشر التي تعلم فيها اللغة الفرنسية الكلاسيكية مع شقيقه جوي، كما انقطع عن جذوره لتلقيه العلوم الغربية. كان فانون قاسيا إلى حد ما في محادثاته مع البعض ولكنه محبا للمعرفة ومنفتحا على البعض الآخر، وعن هواية فانون فهو متعدد الهوايات، قالوا عنه أنه مارتينكي وأسود ومستشرب للثقافة الفرنسية، لقد كان له عدة مسميات مما سمح برؤيته من خلال منظور الاختلاف وكان يعتقد بما هو كوني لدى

الإنسان، وقد عاش في أجواء المدينة وكان محبا للمرح أثناء سنوات المراهقة وجعلت منه قوة شخصيته نوعا من رئيس العصابة، الذي تحول إلى ممارسة القراءة في عزلة [16].

2- تطوعه ضمن قوات الحلفاء

كان فانون قد أنهى دراسته الابتدائية والثانوية، حيث اندلعت الحرب العالمية الثانية، لذا فقد سافر عام 1943م إلى الدومينيك [17]، ليلتحق بالقوات الفرنسية، إلى جانب الأمريكيين والإنجليزيين ضد ألمانيا وإيطاليا، وتطوع استجابة منه لنداء الواجب والضمير باعتباره فرنسيا [18]. فقد استغل احتفال عائلته بفرح أخيه وأخذ قطعة من الماس من النوع الفاخر من خزانة أبيه، ليتحصل على الثمن المطلوب دفعه لمن يحمله في قارب يوصله إلى الدومينيك [19]. وهكذا فقد استجاب فانون لنداء فرنسا باعتباره كان محبا للحرية والسلام وضد الاستعمار والإمبريالية، رغم التمييز العنصري الذي يتلقاه من الفرنسيين البيض. كانت الحرب العالمية الثانية والنزاع بين الجنرال ديغول والمارشال بيتان، نقاش حاد بين التلاميذ الملونين كان هناك من يرى أنه غير معني بهذه الحرب التي تهم البيض فقط، لكن فانون كان له رأي آخر حسب ما سجله بعض رفاقه، فقد رد على المقولة السابقة قائلا: " **كلما تعرضت كرامة وحرية الإنسان للخطر فنحن معنيون بها كلنا بيضا وسودا، صفرا، كلما كانت الحرية والكرامة مهددة في أي مكان فأنا بالدفاع عنها دفاعا لا رجعة فيه**" [20]. وهكذا شارك في الحرب العالمية الثانية وارتبط فانون منذ كان عمره 18 سنة، بتواريخ عالمية، فعبر المحيط الأطلسي مغامرا ليحارب ضد الألمان، وأصيب بجروح في جبهة القتال. وفي عام 1944م تطوع للعمل في الجيش الفرنسي من أجل القتال في أوروبا متجاوزا بذلك كونه زنجيا أسودا، عاش صراعا مريرا مع الرجل الأبيض [21]. وفي ديسمبر 1945م أصيب بجروح في إحدى المعارك بين الحدود السويسرية والفرنسية، أثناء أداء مهامه بجلب الذخيرة وأرسل إلى أحد المستشفيات العسكرية خارج ليون. وبعد انتهاء الحرب العالمية تلقى فرانز فانون "**وسام صليب**" للحرب الذي تلقاه

من سالان Salan الجنرال اللاحق، وكان ذلك الشيء الذي جمعهما كما اكتسبا من هذه التجربة ثقافة المقاومة، ولكنه اكتشف الممارسات العنصرية الشائعة [22]. إن فانون مع إدراكه لحقيقة المستعمر الذي تعرضت له كذلك بلدته المار تينك إلا أنه شارك في الحرب العالمية الثانية وهذا كالتزام منه بواجبه كفرنسي زنجي.

3- دراسته الطبية والفلسفية وأهم مؤلفاته

بعد الحرب العالمية الثانية عاد فانون إلى المار تينك وواصل دراسته، للحصول على البكالوريا وإعداد نفسه للجامعة [23]، كما شارك في حملة انتخابية لصالح أستاذه أيميه سيزار Aimé Césaire [24]، الذي انتخب نائبا للحزب الشيوعي في المار تينك [25]. وفي عام 1947م توفي والد فانون فقرر العودة إلى فرنسا للاستفادة من منحة دراسة بالنظر للخدمات التي قدمها في الحرب العالمية، كانت نيته في البداية هي دراسة طب الأسنان في باريس وبعد ثلاثة أسابيع من الدورات التمهيدية تخلى عنها فانون، ودرس الطب في جامعة ليون الفرنسية، عاش طالبا نشطا يدرس إلى جانب الطب الفلسفة وكان نبوغه مرموقا بين زملائه وأساتذته [26]. تخلى عن دراسة طب الأسنان واختار الطب النفسي لما رأى العنصرية الممارسة من طرف الاستعمار، وهذا يعد تجربته التي اكتشفها من مشاركته في الحرب العالمية الثانية، كان انخراطه في كلية الطب عندما كان العالم من حوله يعيش فترة صراع حاد ومن جملة البلدان التي كانت متوترة وفيها صراعات فرنسا والجزائر، الفيتنام [27]. وفي عام 1951م أنهى دراسته في الطب النفسي، وحضر الامتحان الداخلية لمستشفيات الطب النفسي، وتزوج سنة 1952م من جوزي دوبلJosie Double ، ورزق بولد اسمه أوليفيه Olivier وعين في مستشفى سانت ألبان تحت إدارة البروفيسور فرانسوا توسكيلTousqelle François وقد ساعده في تطوير معارفه في العلاج الاجتماعي [28].

كانت نتيجة دراسته الفلسفية تأليف كتاب "**بشرة سوداء، أقنعة بيضاء BLACK SKIN, WHITE MASKS**، الذي صدر في باريس عام 1952، وهو في سن 27 من عمره، والذي يعالج فيه قضية العنصرية ضد الزنوج بفرنسا، فقد كان مرجعا أساسيا للزنوج، كما أحدث صدى عالمي كبير ترجم إلى عدة لغات، كما ساهم في كتابة نشرة دورية باسم "**TAM-TAM**" موجهة للطلاب الوافدين من المستعمرات، كانت تنشر في الجامعة بفرنسا. ومن أهم المؤلفات التي ألفها طيلة تواجده بالجزائر نذكر منها:

-**من أجل إفريقيا**: وهذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة من المقالات، التي كتبها فانون معظمها وردت في جريدة المجاهد خلال الثورة التحريرية وجمعها محمد الميلي.

-**العام الخامس للثورة الجزائرية**: والذي أخذ اسم اخر بعد وفاته وهو "**سيكولوجية الثورة**": فعندما صدر اعتبر وثيقة دامغة ضد الاستعمار الفرنسي، ووثيقة أخرى تكشف عن تطور المجتمع الجزائري بسبب الثورة، ووثيقة ثالثة لتحرير الإنسان المضطهد وقد تم تأليفه عام 1959م [29]. وتكمن أهميته في تحليل وضع المرأة الجزائرية في ظل النظام الاستعماري.

- **معذبو الأرض**: كان هذا الكتاب الأخير الذي ألفه فانون في خضم الثورة التحريرية، والذي انتهى من تأليفه سنة 1961م، حيث صدر بأيام قليلة قبل وفاته، الذي أحدث صدى عالمي وترجم لعدة لغات.

4- مرضه ووفاته

أثناء وجوده بالكونغو أحس بالمرض يدب في أوصاله، فعاد سريعا إلى تونس، وأجرى فحوصات طبية، وفي ديسمبر 1960م كانت نتيجة التشخيص سرطان في الدم الذي كان مرضا مستعصيا في ذلك الوقت [30]. ثم أرسلته جبهة التحرير الوطني إلى الولايات المتحدة الامريكية وقام هناك بالعلاج وتوفي بمستشفى بميربلاند Maryland، وقد قالت بعض المصادر أن هناك تواطؤ بين الفرنسيين والأمريكيين حتى لا يعالج فانون من مرضه [31]. قبل

موته ترك رسالة إلى أصدقائه يطلب فيها منهم أن يدفن في الجزائر في مقبرة الشهداء، ولما توفي نقلوا جثمانه إلى تونس، واتصلت الحكومة المؤقتة بقيادة الأركان بحثا عن مقبرة الشهداء، لكنهم لم يجدوا أية مقبرة في تلك المنطقة، في الأسبوع الأول من ديسمبر 1961م اتصل بالشاذلي من تونس الملازم الأول آيت سي محمد السكرتير العام لهيئة أركان الشرق سابقا، مستفسرا عن وجود مقبرة للشهداء في المنطقة الشمالية للعمليات [32]. لكن بدل إرسال جثمانه ودفنه سرا، قامت الحكومة المؤقتة بإعلان وفاة فانون، وأكثر من ذلك أعلنت أنه سيدفن في مقبرة الشهداء بالتراب الجزائري، وهذا ما سبب بعض المشاكل حيث علمت فرنسا بالخبر وأرسلت طائرتين من نوع B26 ظلت تحلق باستمرار على طول الحدود في المنطقة المعروفة Nommais land [33] وتبحث عن أي شخص يتحرك لقنبلته [34]. لقد تم حفر القبر ليلا، وهيأ كل شيء لدفن فانون، في اليوم الموالي جاء وفد يمثل الحكومة المؤقتة وقيادة الأركان واحضر معه الجثمان إلى الحدود الجزائرية التونسية كان ضمن الوفد محمد الصغير نقاش، مسؤول الصحة في جيش التحرير الوطني، والطبيب يعقوبي، وممثلة الصليب الأحمر الدولي، والصحفيان اليوغسلافيان بيت شار ولابيدونيشن وكذلك الشاذلي بن جديد الذي دلهم على المكان .[35]

لكن الطائرات ظلت في التحليق والتصوير، عاد الوفد من حيث جاء ودفن فانون بمقبرة سيفانة بعد أن أديت له التحية العسكرية، ودفن معه كما أوصى كتبه "**بشرة سوداء أقنعة بيضاء**"، "**العام الخامس للثورة الجزائرية**"، "**معذبو الأرض**"، وبعد الاستقلال أعاد المجاهدون دفنه في جوان 1965م بمقبرة الشهداء بعين الكرمة.

ثانيا/ التحاق فرانز فانون بالثورة الجزائرية

1- انخراطه في الثورة الجزائرية

بعد حصوله على شهادة الطب النفسي بليون، عين فرانز فانون، بمستشفى الأمراض العقلية بالبليدة، (جو نفيل) [36]، الذي يعد أهم المستشفيات الطبية الفرنسية، والأهم من

نوعه على مستوى إفريقيا [37]. أشرف فانون في هذا المستشفى على قسم يضم مرضى أوروبيين وجزائريين، ضم القسم الأول 165 أوروبيا، و200 جزائري، ووجد صعوبات جمة لأن طرق العلاج التي طبقها على الأوروبيين، لم تنجح مع المرضى الجزائريين، الذين تختلف بيئتهم الاجتماعية، وشيئا فشيئا اكتشف فانون عوامل الجنون التي ترجع إلى الوضع الأساسي للسكان المحليين، أي أضاف المرض العقلي الذي تسبب فيه الاستعمار [38].

فانون كان يحاول تشخيص الأمراض التي يعاني منها الشعب الجزائري، والذي اكتشف أن الاستعمار هو سببها، فكان طبيبا نفسيا يتميز بالملاحظة والدقة. واجه فانون في الجزائر ليس فقط علن النفس الكلاسيكي، بل أيضا آراء أطباء الأعصاب العاملين بالجزائر العاصمة حول (بدائية السكان الأصليين)، فسعى لتعديل علاقات المعالجين مع المرضى، سواء كانوا أوروبيين أو جزائريين، وحرص على احترام التقاليد الثقافية الخاصة بالمسلمين فذاع صيته بالمنطقة [39]. كما أنه أدخل أساليب حديثة للعلاج الاجتماعي والنفسي، وتكييفه مع الخصوصية الاجتماعية لمرضاه من المسلمين الجزائريين [40]، كما أنه اتبع أساليب خاصة للوصول إلى شخصية الجزائري [41]. ومع بداية الثورة الجزائرية، استغرب فانون تجاهل الحكومة الاشتراكية بفرنسا، حيال رغبة الجزائريين بالاستقلال، وصارت مواقفه معادية للاستعمار، وأقام صلات مع حركة "**الصداقات الجزائرية**" وهي جمعية إنسانية تهدف إلى تقديم الدعم المادي لعائلات المعتقلين السياسيين، ولها علاقة مع الثوار العاملين في البليدة، وقد طلب منه الاعتناء ببعض المجاهدين الذين يعانون أمراض عصبية [42].

منذ أن عين فانون بالبليدة أحس لا بمهامه العلاجية وحدها وإن كان قد أفرغ لها كل عنايته وحبه، وإنما أحس أيضا بالانتماء الأصيل إلى الناس المحيطين به وشعر بأن شيئا يربطه بهم، وكأنهم يقاسمون بعض ما يضمره في قلبه وبعض ما يخفيه في طيات وجدانه [43]. وقد أرسل فرانز فانون، إلى الوزير المقيم العام سنة 1956م رسالة للاستقالة من منصبه بمستشفى

الأمراض العقلية بالبليدة، لكي ينظم للثورة الجزائرية التي تأثر بها وأثر فيها. يقول فانون في نص الرسالة: "**بطلب مني تفضل السيد وزير الصحة العمومية والإسكان، بقرار صدر بتاريخ 22 أكتوبر 1953م، فوضعني تحت تصرف السيد الوالي العام في الجزائر، لألتحق بمستشفى الأمراض العقلية بالجزائر ومنذ تنصيبي في مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة في 23 أكتوبر 1953م، وأنا أمارس مهنة طبيب رئيس مصلحة، وعلى الرغم من أن الظروف الموضوعية لممارسة الطب النفسي بالجزائر، تعتبر تحديا للمعقول، فقد بدا لي أنه لابد من بذل جهود ضخمة لتغيير أسلوب طبي تتعارض قواعده الذهنية مع المشاريع الإنسانية الحقيقية**" [44]. نستنتج من هنا أن بداية شعور فانون بحقيقة الاستعمار، وما يعانيه الشعب الجزائري من التعذيب والتقتيل الذي مارسه عليه الاستعمار، كما شخص الوضعية الاجتماعية لهم.

واتفق فانون مع الأستاذ مانون Mannoni في توضيح الجانب النفسي الذي يسيطر على عقلية الرجل الأوروبي، عند تعامله مع الرجال الأفارقة سواء كانوا من أبناء الجنوب أو الوسط أو الشمال [45]. وليس من المستبعد أن فانون كانت تجربته كطبيب نفسي في الجزائر، وخاصة بعد دراسته لحالات المرضى بعد قيام الثورة المسلحة، قد كشفت له إسناد الطريق الفرنسي، بالنسبة لحل المشاكل المتولدة عن الاستعمار، وقد استخلص أن المعالجة النفسية علم طبي مهمته الحيلولة دون أن يحس الإنسان أنه غريب [46].

ومن هنا أراد فانون إظهار ما يعرفه عن هذا الاستعمار للعيان، ومكافحته عن طريق مساعدة الضحايا على تمالك أنفسهم خلال وعيهم بسبب مرضهم، (وهو عمله كطبيب نفساني) ثم مشاركتهم في الكفاح ضد مسببات هذا المرض (لوجود الجانب السلبي لعمله). لقد اختار فانون المجيء إلى البليدة، لكي يفهم في ميدان تأثيرات الاستعمار على الأشخاص وقدرات المقاومة في واحدة من الأراضي الأكثر تضررا في ذلك التاريخ، كما أنه قام بتجارب

العلاج بالموسيقى التي أعطت له نتائج مشجعة. وقبل الغوص في الحديث عن انضمام فانون إلى الثورة الجزائرية، يجب أن نقف عند بعض العوامل التي أدت به إلى الانخراط في الثورة التحريرية:

– كان يمجد الإنسان كقيمة إلى حد العبادة، ولا شك أن هذا الإيمان بالإنسان قد ذهب بفانون لاحتضان قضية "**الإنسان في الجزائر**" (47). حيث قال في هذا الشأن: "**عندما أبحث عن الإنسان الناشئ، عن المثال الأوروبي، لا أجد إلا سلسلة من أعمال إنكار الإنسان، وفيضا من عمليات القتل**" (48).

– بصفته زنجيا ينحدر من أصول إفريقية، له حساب مع الاستعمار، ولا شك في أنه بعد التحاقه بالجزائر كرئيس في مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة، قد تمكن من العثور على وجود عامل مشترك بين الشعب المارنتيكي والشعب الجزائري (49).

– ثقافته وتكوينه الفكري، بالإضافة إلى وضعية شعبه، كل ذلك يجعله مناهضا للاستعمار ولكن مناهضة الاستعمار، لم تكن لتجد فانون عند إقامته بفرنسا إلا وسيلة واحدة من وسائل التعبير وهي الكتابة النظرية (50).

أما الكفاح العلمي فكانت آفاقه مسدودة في وجهه، لكن ها هي الجزائر التي يعمل بها منذ 1953م تخوض غمار كفاح مسلح، وها هي الثورة تتطور وتتدعم حتى تفرض نفسها على الجميع، وها هي الفرصة له لكي يشارك في هذه الثورة والذي أظهر تعاطفا كبيرا معها وندد بمظاهر القمع لها حيث قال: "**رجال الجزائر ونساؤها، لا يشبهون اليوم رجال ونساء 1830م، فالجزائر القديمة قد انتهت، إن هذا الدم البريء الذي يتفجر من الشرايين المتنكرة فوق التراب الوطني قد رفع إلى الوجود إنسانية جديدة**" (51). بالإضافة إلى أن فانون مما زاد في إصراره على التمسك بالنضال في الجزائر أنه شعب إفريقي، فهي فرصة لإثبات تفوق الإفريقي على الأوروبي الأبيض بشيء آخر غير الهروب إلى الماضي الذي يمقته (52).

وعندما اندلعت الثورة التحريرية كانت له أول اتصال مع العديد من مسؤولي الثورة من بينهم يوسف بن خدة، عبان رمضان والعقيد الصادق كما شارك في جمع الأدوية للثوار [53]. وفي عام 1957م قدم فانون استقالته من رئاسة مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة إلى الحاكم الفرنسي روبرت لاكوست Robert Lacoste في رسالة تبين وجهة نظره في جريمة الاستعمار على الإنسانية، وانضم إلى الثورة الجزائرية مؤمنا بأن معركة الشعوب المستعمرة واحدة يجب أن نخوضها للتحرر في كل مكان. وبعد هذه الرسالة طرد فانون من الجزائر، لكن ارتباطه بالثورة الجزائرية صار أمرا لا رجعة فيه فقد أمضى ثلاثة أشهر في فرنسا على اشتداد الفصل الأول من عام 1957م، لم ينجح خلالها في تقديم مساعدات للثورة الجزائرية [54]. أعتبر فانون الثورة الجزائرية، ثورة اشتراكية [55]. لكنها كانت شاملة لجميع فئات المجتمع من الفلاح، الطبيب، المهندس، الطالب، كلهم ساهموا فيها وناضلوا لأجلها واتفق مع أن وراءها الأسهم الذي هو الشعار الذي كتب في بيان الفاتح من نوفمبر 1954م وهو طابع مميز لكل دولة إسلامية. كما يرجع له الفضل في بلورة الثورة التحريرية فهو خلافا للمنظرين الآخرين متحررا من العوامل السياسية المسيطرة على المجتمع [56]. وأثر فانون على بعض الشخصيات في الالتحاق بالثورة حيث يقول في هذا الصدد زهير احدادان: "**التحقت بالثورة ...بمناسبة خطاب ألقاه فانون بمقر الكشافة الإسلامية...**" [57].

وفي صيف 1957م عندما كانت فترة مسدودة الأمل والآفاق، فالحل السياسي ميؤوس منه والاستعمار الفرنسي حوّل الجزائر إلى معسكر اعتقال ضخم عن طريق إنشاء خطوط مكهربة على حدود الجزائر الشرقية والغربية، كانت هيئة التحرير تجتمع لدراسة النصوص الثورية [58]. خلال تلك الجلسات كانت المناقشات كثيرا ما تخرج عن موضوع النصوص لتتناول قضية معينة أو مسألة تاريخية، وكان فانون كثير إلقاء الأسئلة حول ما يعرفه من دقائق الحياة الاجتماعية في الجزائر.

وحول المسائل التاريخية التي يقرأ عنها، وعندما لا يساهم في النقاش كان يتبع ما يقال بعناية ظاهرة [59]. وسجل الذين عرفوه آنذاك أنه مس في كلامه دفاعا عن فكرة أو دحضا لموقف، ونظرا إلى أن أعضاء هيئة التحرير كانوا متأثرين بثقافات مختلفة كان يحتدم النقاش بينهم مثل الحديث عن الوحدة العربية ودور الإسلام في حركة التحرر [60] . وفي هذا الظرف انعقد اجتماع المجلس الوطني للثورة التحريرية 9 أوت 1957م، الذي يعد منظرا له، وجعله نظام أساسي لجبهة التحرير الوطني، وكان في انتظار مقررات ذلك الاجتماع، وهذا ما يكشف عن جانب آخر لفانون، كان لا يستطيع أن يخفي لهفته على معرفة ما يكون قد اتخذ من قرارات، وكان واضحا من تلك أنه كان يعتبر نفسه معنيا بكل ما يتصل بالثورة التحريرية [61]. وكان يتابع بكل دقة ما يصدر عن الجبهة ويود الاطلاع على جميع التفاصيل التي يمكن أن تكون لدى المناضل [62]. وفي خطوة أولى شكلت الحكومة المؤقتة بعثة استطلاعية في بداية 1960م ضمت ثمانية أفراد منهم فانون المتواجد في غانا [63]. حيث عين فانون ممثلا للجزائر في أكرا وخلال إقامته هناك لاحظ وجود إمكانية أخرى لتدعيم الداخل عن طريق حدود مالي، ولذلك اتصل بالمسؤولين في مالي وقدم كل اقتراحاته بشأن هذا الموضوع للمسيرين الجزائريين الذين قرروا إنشاء جبهة ثالثة جنوب الصحراء [64]. وكان يهدف فانون من وراء ذلك هو إمداد الجزائر إلى بعدها الإفريقي من جهة ومن جهة أخرى من أجل وحدة وتضامن الشعوب الإفريقية المستعمرة فيما بينها حيث يقول في هذا الشأن: "... **تحريك إفريقيا والإعانة على تنظيمها وتجميعها وراء المبادئ الثورية والمساهمة في حركة القارة هذا هو العمل الذي اخترته نهائيا وقد كانت قاعدة الانطلاق الأولى هي غينيا ثم تقدم مالي بحماسة واستعداده لكل شيء**"، كما أضاف قائلا: "... **إن مهمتنا هي فتح جبهة الجنوب من باماكو يجب توجيه الأسلحة والذخيرة يجب تحريك سكان الصحراء وإثارتهم والتسرب من هناك إلى الجنود الجزائرية**" **[65]**.

ولما بدأ ينظم طرق الإمدادات القادمة إلى الجزائر من جنوبي الصحراء وسرعان ما اتخذ قرارا ببناء قاعدة بإمداد الولايتين الأولى والخامسة الواقعتين جنوب الجزائر وهنا انطلق فانون في بعثة استكشافية لهذا الغرض ولكن رجال المخابرات الفرنسيين كانوا يقظين وانتهى الوفد بوصول أفراده إلى غرفة التحقيق، وعندما وصل ورفاقه إلى ليبيريا اكتشف أن الوسيلة الوحيدة للوصول من هناك إلى كوناكري في غينيا بطريق الجو إنما هي بطائرات شركة الخطوط الجوية الفرنسية، لكن اهتمام موظفي الطائرة بالوفد كان غير عادي [(66)]. ومن ثم تجنبوا الطريق الجوي سالكين الطريق البري، وعلموا بعدها أن الطائرة التي كانوا يريدون الذهاب فيها غيرت اتجاهاها لتهبط في أبيدجان (ساحل العاج) [(67)]. وبمجرد الوصول إلى بماكو حصل على التسهيلات اللازمة لبداية العمل والتي استأنفها بتنصيب جهاز للاتصال اللاسلكي في كايس واتجه من بماكو إلى عدة مناطق للمعاينة وللشروع في العمل ومن أهمها مدينة غاو [(68)]. من هنا يمكن القول إن فانون بدأ يندمج في الثورة التحريرية ويصبح عضوا من أعضائها ومناضليها وهذا ما يبرز لنا تأثره بها والتأثير فيها، ولم يكن فانون مؤثرا على الشخصيات الجزائرية فحسب، بل في شخصيات ومفكرين عالميين الذين نهلوا من كتاباته وترجموها إلى عدة لغات حتى إلى الفارسية والتركية، وسواء اتفقت وجهات النظر أو اختلفت فقد كان من بين الذين فرضوا أنفسهم بفضل عمق تحليله وسعة أفقه ودقة تفريعاته، وتفضيله السماع للكلام عند تناول موضوع ما لا يعرفه عن الشعب والثورة، يعني أنه لم يكن يعتبر نفسه خارج عن القضية الجزائرية، بل كان يضع نفسه على صعيد واحد من المناضلين الجزائريين مهما اختلفت مستوياتهم الفكرية ومواقفهم من الثورة.

2- مشاركته في الثورة الجزائرية من تونس

لما أبعد فانون من الجزائر لاكتشاف السلطات الفرنسية انخراطه في الثورة حيث أرسلته فيدرالية جبهة التحرير إلى تونس لينضم إلى أعضاء الجبهة في الخارج [(69)]. في تونس واصل

نشاطه الثوري وعمل لحساب الصحف الجزائرية الحرة، خاصة صحيفة "**المجاهد**" الناطقة بلسان جبهة التحرير، وشهد من الداخل كل تناقضات الجبهة بما فيها المنازعات بين قادتها السياسيين والعسكريين، ورغم خيبة أمله بقي مدافعا متحمسا لقضية الاستقلال الوطني للجزائر [70]. واشتغل على الحدود الجزائرية التونسية طبيبا يعالج جيش الحدود ومن ثمة معاناة اللاجئين الجزائريين الذين كان يعالجهم أيضا، فقد جمع بين النضال السياسي والطب النفسي [71].

وبعد ما حصل على منصب عمل طبيب نفسي في مستشفى الرازي بمنوبة الذي كان من أكبر المستشفيات التونسية مماثلا لمستشفى "**جونفيل**" بالبليدة، أشرف على معالجة المرضى الجزائريين والتونسيين المصابين بأمراض عقلية من جراء ممارسة المستعمر للتعذيب والتقليل للشعبين [72]. وفي هذه الفترة كان الجنرال الفرنسي شال يثبت ألغام على طول الحدود الجزائرية مع كل من المغرب وتونس، وذلك بغية منع تدفق الإمدادات على جيش التحرير الوطني داخل الولايات التاريخية الجزائرية وخنق الثورة من الداخل والخارج [73]. وفي عام 1959م اصطدمت سيارة فانون بلغم على الحدود التونسية الجزائرية فأصيب باثنتي عشر كسرا في سلسلته الفقرية، صاحبتها مضاعفات خطيرة فذهب إلى روما للمعالجة الطبية، وأثناء تنقله من مطار روما للمعالجة في المدينة تعرضت سيارته للتخريب من طرف السلطات الفرنسية، ولكن السيارة انفجرت قبل الموعد المحدد وأثناء تواجده بالمستشفى لاحظ إحدى الصحف أشارت إلى وجوده في المستشفى انتقل إلى غرفة أخرى [74]. لأنه قبل انتقاله تم إطلاق الرصاص على سريره ولحسن الحظ لم يكن نائما هناك [75]، إن التحاق فانون بركب الثورة الجزائرية بتونس سنة 1957م، لم يكن التحاقا اعتباطيا وإنما كان للرجل ماض ثوري معها منذ اندلاعها في 1954م [76].

3- مشاركته في الحكومة المؤقتة

لقد اعتبر فرانز فانون أن تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة انتصارا حاسما للثورة فازداد تعلقه بها وراح يقطع كل صلة له بتلك الروابط القديمة بوصفه الأوروبي أو باعتباره يساريا منتميا إلى اليسار الفرنسي ذاته، لأنه وجد ضالته في الثورة الجزائرية التي كانت مفتوحة على كافة المذاهب والإيديولوجيات، وأصبح أكثر استعدادا للانصهار في بوتقة القضية الجزائرية، نظرا لما فيها من قيم إنسانية وطنية وعالمية [77]. وقد ذكر ذلك في قوله: "**إن الثورة الجزائرية قد أدخلت عنصرا جديدا في دوران معارك التحرير الوطني فضح الاستعمار فضيحة كبرى، فالاستعمار بصفة عامة استطاع أن يحافظ على نفسه كقيمة وكحقيقة في الوقت الذي ينكره التاريخ وتنكره الحقيقة الوطنية، فليس صحيحا أن فرنسا حققت عملا جميلا عندما جعلت من الجزائر ما هي عليه اليوم...**"، كما أضاف قائلا: "**إن الجبهة لم تتلاعب بالكلمات، لقد قالت أن هدفها هو الاستقلال، وأنه لا مكان لأي تنازل يتعلق بهذا الهدف لقد قالت الجبهة للفرنسيين، يجب التفاوض مع الشعب الجزائري، ويجب أن تعاد له بلاده بأكملها**" [78].

لقد عرفت الثورة الجزائرية بعد تأسيسها للحكومة المؤقتة سنة 1958م نقلة نوعية سواء من الناحية الهيكلية والتنظيمية، أو من ناحية الاعتراف بها حتى من أعداء الأمس، الذين كانوا ينكرون وجود أمة خالصة، وتفجرت عبقرية فانون نتيجة لهذه الانتصارات الكبرى التي حققت في الميدان على مستوى ثورة التحرير مما جعلته يزداد إبداعا وتفتحا في مجال التنظير والتعريف بها [79]. وفي إطار التحضير لاجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية، الذي تم عقده ما بين 16 ديسمبر و18 جانفي 1960م، شكلت لجنتان من أشخاص سموا بالاختصاصيين:

اللجنة الأولى: مشكلة من فرانز فانون، عمر أوصديق، عبد الرزاق شنتوف، محمد الصديق بن يحيى، كانت مهمتها إعداد مشروع برنامج مستقبلي للثورة.

اللجنة الثانية: مشكلة من بن يوسف بن خدة، مبروك بلحسن، لمين خان، كانت مهمتها إعداد القانون الأساسي لجبهة التحرير الوطني وإجراء تعديلات على المجلس الوطني للثورة [80].

ونتيجة لجهوده الفكرية والسياسية والمهنية في خدمة الثورة الجزائرية عينته الحكومة المؤقتة سفيرا للجزائر في أكرا عاصمة غانا سنة 1960م، هذا وقد أثار تعيينه في هذا المنصب من قبل قيادة الثورة الجزائرية اختلافا في الراي فمنهم من كان يرى أنه كان نادما على تركه لمهنة طب الأمراض العقلية، أما البعض الأخر فيرى أن فانون عمل المستحيل حتى يذهب إلى إفريقيا السوداء، لأنه كان مؤمنا بفعاليته السياسية، وكان يعتقد أنه يمكن أن يخدم القضية الجزائرية من هناك من جهة وأن يقدم لإفريقيا السوداء جهودا لها وزنا كبيرا من جهة أخرى [81].

ثالثا/ إسهامات فرانز فانون من أجل الوحدة الإفريقية

1- ملامح التضامن الإفريقي إبان الثورة الجزائرية

إن أول خطوة خطتها الشعوب الإفريقية في سبيل تضامنها ووحدتها من أجل التخلص من عنف الاستعمار تجلت في تلك المؤتمرات التي جمعت بين شعوبها والتي تمخضت عنها قرارات تدعوا في مجملها إلى حقها في تقرير مصيرها ومن أهمها:

مؤتمر باندونغ الذي انعقد في 18-24 أفريل 1955م حيث جمع هذا المؤتمر جميع الدول المستقلة من آسيا وإفريقيا لتبحث معا عن وسائل القضاء على الاستغلال والتخلف، وتفكر في وضع أهداف ومبادئ عامة تخدم الحرية، فانعقد المؤتمر بأندونيسيا وحضر المؤتمر تسع وعشرين (29) دولة إفريقية وآسيوية، كما حضرته كثير من الوفود الممثلة للشعوب المكافحة في طليعتها الشعب الجزائري [82]. وإذا كان مؤتمر باندونغ مؤتمر حكومات دول، فإن مؤتمر القاهرة المنعقد ما بين 26 ديسمبر1957 و01جانفي1958م مؤتمر شعوب وحركات وطنية وسياسية ونقابية [83]. والذي حضرته أربعة وأربعين دولة أفرو أسيوية، حيث قال فيه رئيس الوفد التونسي علال البلهوان عن القضية الجزائرية خلال تدخله مبينا بالخصوص الترابط المتين

بين القضية الجزائرية وقضايا إفريقيا: "**لو شبهنا قضية الجزائر في إفريقيا لشبهناها بقضية الهند بآسيا، فلما استقلت الهند استقلت شعوب آسيا كلها تقريبا، إندونيسيا، سيلان، بورما، الباكيستان، الفيتنام، فاستقلال الجزائر سيكون الضربة القاضية للاستعمار في إفريقيا كلها...**" (84) .

كما شهدت مدينة أكرا (غانا) مؤتمر للدول الإفريقية المستقلة والذي انعقد في (15-22 أفريل 1958م)، حضرته ثمان حكومات إفريقية مستقلة (85). وكان هدفه الأساسي هو تحرير الأقطار الإفريقية من الهيمّنة الاستعمارية ودعم كفاحها بالوسائل المادية والسيّاسية وعلى رأسها الجزائر التي تخوض حربا ضاربة ضد المحتل الفرنسي بقيادة جبهة التحرير الوطني (86).

أما مؤتمر منورفيا بليبيريا الذي تم انعقاده يوم 14 أوت 1959م فقد اجتمع وزراء خارجية الدول الإفريقية المستقلة مصر والمغرب وليبيريا وغينيا والسودان والحبشة إلى جانب حكومة الجزائر لدراسة مشاكل الدول الإفريقية خاصة الجزائر(87) . حيث اعترفت كل من غانا وغينيا بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وكان اعترافهما دليل على قوة التضامن بين الشعوب والحكومات الإفريقية وهذا يعد مكسبا جديدا للثورة تحرزه إفريقيا، وقدمت بذلك ضربة قاسية للدعاية الاستعمارية المضللة التي تحاول أن تفرق بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء (88).

كما كان مؤتمر كوناكري المنعقد يوم (11-15 أفريل1960م) بمثابة مرحلة متقدمة في هذا التضامن وتأييد النضال التحرري، ومما ساعد على ذلك هو إحراز شعوب إفريقيا وآسيا على عدة انتصارات، فقد تحررت معظم دول آسيا ونالت عدة دول إفريقية استقلالها مما جعلها تضيف قوة جديدة لحركة التضامن الأفروآسيوي (89). واتخذ المؤتمر قرارات تتعلق ب 22 بلد في إفريقيا وآسيا منها الجزائر (90). كما اجتمعت في أديس بابا بأثيوبيا الدول الإفريقية المستقلة من

14 إلى 24 جوان 1960م، وقد التقى فيه وفود من 13 دولة إفريقية عالجت من خلاله المشاكل التي تعاني منها شعوب القارة الإفريقية [91].

2- دوره على المستوى الإفريقي

كانت الثورة الجزائرية عندما انضم إليها فانون، قد تجاوزت النطاق المحلي، وأصبحت موضوع تعاليق الدبلوماسية في أنحاء العالم، وفي مقدمته البلدان الإفريقية وظهر اهتمام الأفارقة بهذه الثورة في أشكال مختلفة تمثلت أحيانا في قيام بعض المناضلين بالاتصال بقيادة جيش التحرير يطلبون منها المساعدة حتى يتمكنوا من الإعداد للثورة المسلحة في بلدانهم [92]. فقد كان فرانز فانون يرى أن تأثر شعوب إفريقيا بالكفاح المسلح في الجزائر يعود إلى اقتناعهم بمبادئ الثورة الجزائرية وكفاحها المتصاعد يوما بعد يوم، بل وإلى قيمها الإنسانية المجسدة في التعامل مع الأسرى ومع المدنيين، وهو الشيء الذي زاده إيمانا بضرورة خدمة القضية الجزائرية من أي مكان في العالم [93]. حيث اعتبر أن ثورة أول نوفمبر نموذج لحركة التحرر في العالم الثالث، فالحرب التي كانت في الجزائر هزت الأفارقة، حيث برز ذلك في مختلف أقطار القارة التي تعاني من الاحتلال من خلال تزايد عدد الأحزاب التي تدعوا إلى الاستقلال والتأكيد على ضرورة الاعتماد على الكفاح المسلح [94]. لذلك كانت بمثابة القدرة النضالية والتحررية خاصة في إفريقيا التي هي جزء لا يتجزأ منها، والتي كانت هي الأخرى بها شخصيات نضالية مماثلة، لفانون وهو باتر يس لومبا [95].

من الكونغو الذي اتبع خطى فانون كان أول اتصال لفانون بإفريقيا أثناء انعقاد المؤتمر الأول للشعوب الإفريقية، في أكرا بغانا من 8 إلى 12 ديسمبر 1958م، تحت شعار يجب أن تكون إفريقيا حرة وحضره أكثر من 300 مندوب يمثلون 69 هيئة في إفريقيا [96].

ومثل الوفد الجزائري كل من أحمد بومنجل، فرانز فانون، وشوقي مصطفاوي حيث قال فانون عن هذه المشاركة: "**أستقبل الوفد الجزائري الذي يتركب من خمسة أعضاء استقبالا حماسيا**

في أكرا وقد لاحظنا في أكرا أن الأوجه الكبيرة للثورة الجزائرية بن بلة وبن المهيدي وجميلة بوحيرد قد دخلت الملحمة الإفريقية ... وقد خصصت مكانة ممتازة لأعضاء وفدنا إذ عين أحدنا في اللجنة الإدارية للمؤتمر وانتخب الآخرون كل لرئاسة أو نيابة عدة لجان..." [97]، ضم المؤتمر كل الحركات الوطنية في إفريقيا، وسجلت القضية الجزائرية حضورا قويا من خلال جلساته الذي درست فيه تجربة الكفاح المسلح الجزائري [98]. واستقبل الوفد الجزائري استقبالا حماسيا وخصصت له مكانة ممتازة وفي هذا المؤتمر ألقى أحمد بومنجل خطابا أكد فيه أن شروط وطبيعة تحرر أي شعب مرتبطة ارتباطا وثيقا بمحيطه التاريخي والجغرافي، وتدخل فانون بدوره والذي اتسم خطابه بحدة عندما طالب الأفارقة بالوحدة، بما أن القارة الإفريقية تعيش تحت كابوس الاستعمار الأجنبي، ويجب القضاء على الفكرة التي تقول أن الاتحاديين للبلاد الفقيرة هو تجميع للفقراء، لا ينتج عنه سوى الفقر، التي أصبحت تعبر عن معنى جامد، فعلى الشعوب الإفريقية أن تعي أنه لم يحكم على أي بلد بأن يبقى فقيرا بصفة نهائية، وأن الوحدة والتضامن بين الشعوب هي الكفيلة بجعل هذا البلد أو ذاك حرا مستقلا وغنيا شعبه [99]. ولقد بقي فانون اثنا عشر يوما أسفرت عن تكريس علاقته بنكروما [100] وسكيتوري [101]، وتعرف على الزعيم الكاميروني فليكس مومي، وقائد حركة الاستقلال في كينيا والأمين العام النقابي بها بويا، وأيضا رئيس تنزانيا المستقبلي جيلييس نيجار والقائد الأنغولي روبارتوهولند والزعيم الكونغولي باتريس لومبا [102].

وبعد هذه الندوة اقترح فانون تكوين" **جبهة إفريقية لمساندة القضية الجزائرية**"، كما اقترح ضرورة تحقيق وحدة نقابية بين الأفارقة من خلال إنشاء مشروع مركزية نقابية إفريقية كان يرى فيه خطوة حقيقية لتغيير اجتماعي واقتصادي جذري بعد تحقيق الاستقلال السياسي [103]. وفيما بين 26-31 مارس كان لفانون لقاء أخر مع إفريقيا من خلال المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود، وحين اعتلى المنصة دعا إلى ضرورة الكفاح من أجل تحرر إفريقيا

وتخليصها من مخلفات الاستعمار على كل المستويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية، كما أكد في خطابه على ضرورة نشر الوعي الوطني وترقيته في أذهان الناس، حفاظا على الثقافة الوطنية باعتبارها تشكل العمود الفقري في الهوية الوطنية ولأنها تمعن الإفريقي في مساهمته في بناء أمته وتوضيح معالمها (104).

أضف إلى ذلك فإن الرجل قد شارك في عدة ندوات منها ندوة حول السلم والأمن في إفريقيا المنعقدة ما بين 07-10 أفريل 1960م، وفي نفس السنة ما بين 12-15 أفريل شارك في الندوة الإفريقية الآسيوية بكوناكري، وما بين جويلية وأوت من نفس السنة حضر ندوة الشبيبة الإفريقية باكرا، كما شارك في الندوة الثالثة للدول الإفريقية المستقلة في أديس بابا بإثيوبيا في جوان من السنة نفسها (105).

كان فانون يحلم بالوحدة الإفريقية، وتحررها من الاستغلال الأجنبي في شتى المجالات الاقتصادية السياسية والثقافية، كما حمل فكرة التحرر للعالم الثالث المستعمر المغلوب على أمره (106). وراح يتحدث في مختلف المؤتمرات الإفريقية وأنديتها بوصفه يعبر عن وجهة نظر الدبلوماسية الجزائرية، كما قدم الجزائر كنموذج لحركة التحرر من الاستعمار، وكان شاهدا عليها كحركة تحرر وطنية (107). وفي30 أفريل 1959م جاء في تصريح الحكومة الفرنسية أنها ستقطع علاقاتها مع أول حكومة تعترف بالحكومة المؤقتة الجزائرية، ولكن هذا التهديد تجاوزته الاعترافات التي جاءت بعد 1960م من غانا، ليبيريا، الطوغو، مالي، الكونغو، الاتحاد السوفياتي، وهذا بفضل الدبلوماسية الجزائرية، التي مثلها فانون في إفريقيا (108).

خاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى أن ما أنتجه المفكر فرانز فانون والخطوات الثابتة التي مشاها في طريق التحرر من الإمبريالية، كانت خلاصة لتجاربه التي عاشها وبدايتها من المارتينيك ثم في فرنسا ليبلغ أشدها في الجزائر والقارة الإفريقية ككل. حيث انتقل من حياة الاستقرار والهدوء

إلى حياة الكفاح والنضال والبحث عن الحرية فكان خادما لقضاياها، فهو أحسن ممثل دبلوماسي دافع عن القضية الجزائرية، ورفعها في مختلف المؤتمرات والندوات الإفريقية وجعلها بمثابة حركة تحرر نموذجية، تقتدي بها الأمم والشعوب الإفريقية التي كانت أيضا تعاني من الاستعمار الذي انتشر في أراضيها، لأنه أدرك عمق الثورة الجزائرية وتأثيرها على الثورات الإفريقية، فقذف النموذج الثوري للجزائر في دائرة التحرر الإفريقي للقضاء عن الاستعمار في مختلف الجوانب وعبر كافة الأقطار الإفريقية المضطهدة، وبهذا فإن فانون كان سفير النوايا الحسنة بإفريقيا، وجلب اهتمام الأفارقة لقضاياهم، والسعي لتحقيقها والسعي لتحقيق الوحدة الإفريقية، وتوحيد الجهود للقضاء على الإمبريالية.

الهوامش:

(1) **أنتيل Antilles**: أرخبيل في أمريكا الوسطى في المحيط الأطلسي، يقسم جزر الأنتيل الكبرى وهي جمهوريات كوبا، هايتي وسان دومينغو، جمايكا البريطانية، بورتو ريكسو –التابعة للولايات المتحدة الأمريكية–، وجزر الأنتيل الصغرى تتقاسمها بريطانيا (باهاما، ناسو، فرجين، انفيا، بربودا، انيغوا، دومينيكيا، سانتا لوسيا، بربادوس، غرانادا، ترينيداد). وفرنسا (غوادلوب، مرتينيك). والولايات المتحدة الأمريكية (سانتا كروس). وهولندا (كوراسو). ينظر: محمد صادق محمد الكرباسي: **دائرة المعارف الحسينية –معجم المشاريع الحسينية–**، ط1، ج2، لندن–المملكة المتحدة: المركز الحسيني للدراسات، 2010، ص381.

(2) **المارتينيك Martinique**: من اسم القديس مارتن، حيث تم اكتشافها يوم 11 تشرين الثاني 1493 المصادف ليوم عيد هذا القديس، وهي جزيرة تقع في شرق البحر الكاريبي إلى الشمال من ترينيداد وتوباغو. وتبلغ مساحتها 1128كلم2، وعدد سكانها حسب إحصائيات 2005م بـ 398000 نسمة. وهي من مجموعة الجزر الأنتيل الصغرى، وتعتبر أحد الأقاليم الستة والعشرين المكونة للأراضي الفرنسية. ينحدر أغلب السكان من الأفارقة الذين جلبوا إلى الجزيرة للعمل في مزارع خلال الحقبة الاستعمارية. ويشكل البيض غلب هؤلاء من الفرنسيين والإسبان، والهنود الحمر (الكاريب)، وهناك أقليات هندية (من تاميل نادو)، وسريان لبنانيين وسوريين وصينيين. ينظر: مسعود الخوند: **الموسوعة التاريخية الجغرافية**، ج18، لبنان– بيروت: الشركة العالمية للموسوعات ش.م.م، 2004، ص119.

(3) بدأ الفرنسيون إستعمارهم للجزيرة المارتينيك عام 1635م ثم أتوا بأعداد كبيرة من الأفارقة الذين استعبدوهم لزراعة الأرض، وهم اليوم أغلبية السكان الساحقة. وجعلت الحكومة الفرنسية من الجزيرة جزءاً من إدارة ما وراء البحار

أي مقاطعة إدارية عام 1946م، وفي عام 1958م اختارت الجزيرة أن تبقى تابعة لفرنسا، ويمثلها حاليًا ثلاثة نواب في مجلس النواب الفرنسي ويحكمها الآن مجلس عام ينتخبه السكان. ينظر: علي المنتصر الكتاني: **المسلمون في أوروبا وأمريكا**، ط1، ج2، دار إدريس للتأليف والترجمة والنشر، 1986، ص161.

(4) سليمة كبير: **فرانز فانون المفكر الغائص في أعماق الثورة الجزائرية**، الجزائر: المكتبة الخضراء، د. ت، ص9.

(5) محمد الميلي: **فرانز فانون والثورة الجزائرية**، الجزائر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، 2010، ص12.

(6) المصدر نفسه، ص 13.

(7) المصدر نفسه، ص 13.

(8) المصدر نفسه، ص 14.

(9) فرانز فانون: **من أجل إفريقيا**، ط2، ترجمة: محمد الميلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص30.

(10) محمد الشريف ولد الحسين: **من المقاومة إلى الحرب من أجل الاستقلال 1830 -1962**، الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع، 2010، ص147.

(11) Achour chourfi: **Dictionnaire Encyclopédique de l'Algérie**, Algérie: Edition ANEP, 2010, p 485 .

(12) Ibid, p486.

(13) Macy David: **Frantz fanon une vie**, paris- France: édition la découverte, 2011, P46.

(14) William streickhand: **Frantz fanon**, The life and work, Afro-American studies faculty publication series, 1979, p 68.

(15) محمد الميلي: المصدر السابق، ص 12.

(16) حسين هلال: "**فرانز فانون سيرة حياة**"، مجلة قاسيون، ع/531، (سوريا)، 17 كانون الأول 2011، ص 15.

(17) **الدومينيك أو الدومينيكان Dominicana**: دولة في جزيرة دومينيكا على البحر الكاريبي وتقع على مسافة 515كم شمال شاطئ الفنزولي، ومساحتها 750كلم2. استقلت عن بريطانيا سنة 1978م، بعد حكم بدأ منذ القرن 18م. اسمها الرسمي الكومنولن الدومنكي، وعاصمتها سانتو دومينجو أم اللغة الرسمية هي الاسبانية. ينظر: محمد فضل محمد عبد الخالق وآخرون: **الموسوعة العربية العالمية**، ط2، ج10، الرياض-المملكة العربية السعودية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999، ص530؛ محمد الهادي اللحام وآخرون: **القاموس عربي-عربي**، ط5، بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، 2015، ص933.

(18) سليمة كبير: المرجع السابق، ص13.

(19) يحيى بن الوليد: "**خطاب ما بعد الاستعمار**"، جريدة الكلمة، آسيوية، ع/ 16، أفريل 2008، ص13.

(20) المرجع نفسه، ص14.

(21) William streickhand: op.cit, p69.

(22) فرانز فانون: **معذبو الأرض**، ترجمة: سامي الدوري، الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال والإشهار، 2010، ص 10.

(23) William streickhand: op.cit, p70.

(24) **ايمي سيزار Aimé Césaire**: شاعر وكاتب وسياسي ولد في 26 جون 1913م بباس بوانت بالمارتينيك، شغل كرسيا نيابيا في المارتينيك قرابة خمسين عاما، دخل عالم الأدب من باب ديوانه الشعري "**دفتر العودة الى أرض المنشأ**" في عام 1939م استخدم كلمة "**الزنوجة**". توفي في 17 أفريل 2008م بفور دوفرانس بعد صراع طويل مع مرض القلب. ينظر: محمد فضل محمد عبد الخالق وآخرون: المرجع السابق، ج13، ص393.

(25) سليمة كبير: المرجع السابق، ص 11.

(26) عبد الحميد حفيري: **فرانز فانون بعض الملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1985، ص18.

(27) المرجع نفسه، ص 19.

(28) فرانز فانون: **معذبو الأرض**، المصدر السابق، ص 11.

(29) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي، مرحلة الثورة (1954-1962)**، ط1، بيروت- لبنان: دار الغرب الإسلامي، 2007، ص 600.

(30) سليمة كبير: المرجع السابق، ص 21.

(31) الشاذلي بن جديد: **مذاكرات الشاذلي بن جديد ملامح حياة (1929-1979)**، ج1، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2011، ص168.

(32) المصدر نفسه، ص 168.

(33) **Nominas land**: هي المنطقة الممتدة من خط موريس إلى حدود تونس وهي منطقة محرمة.

(34) الشاذلي بن جديد: المصدر السابق، ص 168.

(35) المصدر نفسه، ص 169.

(36) عبد الله مقلاتي: **قاموس أعلام و شهداء و أبطال الثورة الجزائرية** ، ط 1 ،الجزائر: منشورات بلوتو،2009، ص 401.

(37) Senoussi Sadder: **Onds de choc les transmissions durant la guerre de libération**, Alegria: édition ANEP, 2002, p12.

(38) فرانز فانون: **معذبو الأرض**، المصدر السابق، ص ص 10، 11.

(39) المصدر نفسه، ص12.

(40) ماري بيار أولوا: **فرانسيس جانسون الفيلسوف المناضل من مقاومة الاحتلال النازي لفرنسا إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي بالجزائر**، الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع، د.ت، ص 139.

(41) Achour cheurfi: **Dictionnaire Des livres sur la révolution algérienne de 1954 à Nos jours** , publication du centre national d'étude et de recherche sur le modérément national et la révolution été 1er novembre 1954 ,2007 , p685.

(42) فرانز فانون: **معذبو الأرض**، المصدر السابق، ص 12.

(43) عبد الحميد حيفري: **فرانز فانون بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته**، الجزائر، 2007، ص 16.

(44) فرانز فانون، **من أجل إفريقيا**، المصدر السابق، ص 35.

(45) عبد الحميد حيفري: المرجع السابق، ص16.

(46) دافيد كوت: **فرانز فانون من أعلام العصر الحديث**، ترجمة: عدنان الكيالي، بيروت-لبنان: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، 1981، ص ص61، 62.

(47) محمد الميلي: المصدر السابق، ص134،133.

(48) فرانز فانون: **معذبو الأرض**، المصدر السابق، ص 202.

(49) محمد الميلي: المصدر السابق، ص134.

(50) المصدر نفسه، ص134.

(51) فرانز فانون: **سيسولوجية الثورة**، ط1، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت-لبنان: دار الطبعة للطباعة والنشر والتوزيع، 1970، ص16.

(52) محمد الميلي: المصدر السابق، ص134.

(53) فرانز فانون: **سيسولوجية الثورة**، المصدر السابق، ص 6.

(54) ثائر دوري: "**أشباح فانون (الجزء الأول)**"، مجلة كنعان، ع/1086، السنة السابعة، (بيروت)، مارس 2007، ص 04.

(55) محمد العربي الزبيري: **تاريخ الجزائر المعاصر (1954 – 1962)**، ج 2، الجزائر: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص182.

(56) محمد حربي: **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**، الجزائر: موفم للنشر، 2008، ص 171.

(57) محمد عباس: **مثقفون في ركاب الثورة**، الجزائر: دار هومة، 2004، ص 37.

(58) محمد الميلي: المصدر السابق، ص25.

(59) المصدر نفسه، ص26.

(60) المصدر نفسه، ص27.

(61) محمد الميلي: **"فرانز فانون صورة مناضل عاش أفكاره من المراهقة حتى الموت "**، مجلة منارات، ع/ 2736، السنة العاشرة، 27 شباط، 2013، ص 12.

(62) عبد السلام فيلالي: **"هيكلة المجتمع الجزائري المعاصر بين النزعتين الحضرية والريفية "** مجلة التواصل، ع/24، (جامعة باجي مختار – عنابة)، جوان2009، ص155

(63) عبد الله مقلاتي: **بحوث في تاريخ الثورة التحريرية الجزائرية**، ج1، الجزائر: منشورات مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، 2018، ص150.

(64) فرانز فانون: من **أجل إفريقيا**، المصدر السابق، ص ص183، 184.

(65) المصدر نفسه، ص187.

(66) دافيد كوت: المرجع السابق، ص106.

(67) المرجع نفسه، ص107.

(68) محمد مبارك كديدة: **"دور فرانز فانون في إنشاء الجبهة الجنوبية –المنطقة الجنوبية الصحراوية في الثورة التحريرية الجزائرية (1960–1962)**–"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع/ 27، (ورقلة)، ديسمبر 2016، ص666.

(69) Gallisat rine: **Dictionnaire Biographique du mouvement ouvrir Maghreb– l'Algérie , engagements Sociaux et question national De la colonialitation à l'indépendance 1980,1960–**, Algérie: Barazakl édition, p270.

(70) دافيد كوت: المرجع السابق، ص84.

(71) الطيب بن نادر: **الجزائر حضارة وتاريخ الحضارات المتعاقبة للجزائر وتاريخها المشرق**، عين مليلة، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص217.

(72) دافيد كوت: المرجع السابق، ص 74.

(73) Alice cherki: **Frantz Fanon portrait**, Algérie: édition Mille Feules, 2009, p147.

(74) دافيد كوت: المرجع السابق، ص105 .

(75) المرجع نفسه، ص105.

(76) مسعودة ماضي: **فرانز فانون والثورة في إفريقيا (1925–1961)**، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة أدرار، 2009، ص66.

(77) المرجع نفسه، ص68.

(78) فرانز فانون: **من أجل إفريقيا**، المصدر السابق، ص ص101-102.

(79) مسعودة ماضي: المرجع السابق، ص70.

(80) المرجع نفسه، ص ص72-73.

(81) المرجع نفسه، ص ص74-75.

(82) جريدة المجاهد: "**من باندونغ إلى كوناكري**"، ع/ 66، صدر في: 18 أفريل 1960، ص 6.

(83) جريدة المجاهد: "**مؤتمر التضامن الأفريقي الأسيوي في القاهرة**"، ع/ 66، صدر في: 18 أفريل 1960، ص 8.

(84) بشير سعدوني: "**القضية الجزائرية في مؤتمر التضامن الإفريقي الآسيوي بالقاهرة 26-12-1957/ 01-01-1958**"، مجلة الدراسات الإفريقية، ع/1، السنة الأولى، (الجزائر)، ماي 2014، ص86.

(85) جريدة المجاهد: "**ملتقى الدول الإفريقية في أكرا** "، ع/21، صدر في: 01 أفريل 1958، ص6.

(86) عبد الخالق الشهاوي: "**أكرا ومستقبل التطور في إفريقية**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/08، السنة الأولى، (مصر)، يونيو 1958، ص ص30، 31.

(87) محمد عبد العزيز إسحاق: "**من أكرا إلى مونروفيا**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/22، السنة الثانية، (مصر)، سبتمبر 1959، ص3 وما بعدها.

(88) عبد القادر خليفي: "**المؤتمرات الأفروآسياوية والقضية الجزائرية**"، مجلة المصادر، ع/8، (الجزائر)، 2003، ص227.

(89) المرجع نفسه، ص227.

(90) شوقي الجمل: **التضامن الأسيوي الإفريقي وأثره في القضايا العربية**، مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964، ص ص157-158.

(91) عبد القادر خليفي: **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة 1830-1962**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010، ص109، 110.

(92) محمد الميلي: **فرانز فانون والثورة الجزائرية**، دون طبعة، دار الكتاب العربي، القبة، الجزائر، 2010، ص27.

(93) عبد الكريم حساني: "**الاستعمار جريمة ضد الإنسانية**"، الملتقى الوطني الثالث فرانز فانون يوم: 30-31 ماي 2006، عنابة: مطبعة المعارف، 2006، ص97.

(94) فرانز فانون: من **أجل إفريقيا**، المصدر السابق، ص152.

(95) **باتريس لومومبا Patrice Lumumba**: ولد عام 1925م في ستانليفيل (كيسانغاني) بمقاطعة الكونغو الشرقية، وهو من أبناء النخبة الكونغولية التي حظيت بالتعليم في فترة الاستعمار. وفي 1955م أصبح رئيسًا "**للاتحادات العمالية**"، وفي أكتوبر 1958م بادر بتأسيس "**الحركة الوطنية الكونغولية**"، وفي 21 يونيه 1960م تم تعينه أول رئيس وزراء وطني للكونغو أثناء الاحتلال البلجيكي لبلاده، وفي 1961/01/17م يختفي لومومبا فجأة

وتظهر جثته مع بعض اخلص رفاقه في فيفري في إقليم كاتنكا. ينظر: عبده بدوي: "**لومومبا**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/40، السنة الرابعة، (مصر)، فبراير 1961، ص ص11 وما بعدها؛ الحسيني الحسيني معدى: **موسوعة أشهر الثوار في العالم**، ط1، دار النهار للنشر، 2012، ص35.

(96) شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ط 2، الرياض–السعودية: دار الزهراء للنشر والتوزيع، 2002، ص 434.

(97) محمد الميلي: **فانز فانون والثورة**،المصدر السابق، ص28.

(98) عمار قليل، **ملحمة الجزائر الجديدة**، ط 1، ج 1، قسنطينة: دار البعث، 1951، ص26.

(99) جريدة المجاهد: "**من خطاب الدكتور فرانز فانون**"، ع/ 34، صدر في:24 ديسمبر 1958، ص85.

(100) **كوامي ناكروما Kwame Nkrumah**: ولد في غانا 18/09/ 1909م، تخرج في دار المعلمين باكرا عام 1930م، واشتغل بالتعليم في مدرسة أولية في عام 1934م ثم سافر إلى أمريكا وحصل على درجة الماجستير والدكتوراه، ثم عاد إلى غانا بعد 12عاما، وفي 07/09/1962م انتخب نكروما كأول رئيس للجمهورية الجديدة كما وافق البرلمان على أن يكون رئيسا للبلاد مدى الحياة، وفي 29/04/1961م كونت غانا وغينيا ومالي (اتحاد الدول الإفريقية)، توفي في 27/03/1972م برومانيا فدفن في غينيا ثم أعيد دفنه في غانا. ينظر: عبد العزيز اسحق: "**من أفكار نكرومه**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/8، السنة أولى، (مصر)، يونيو 1958، ص3 وما بعده؛ محمد فضل محمد عبد الخالق وآخرون: **الموسوعة العربية العالمية**، ط2، ج25، الرياض–المملكة العربية السعودية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999م، ص505.

(101) **أحمد سيكو توري Ahmed Sekou Toure**: ولد في غينيا سنة 09/01/1922م، درس في المدارس القرآنية ثم انتقل إلى المدارس الفرنسية، وفي سنة 1940م عمل كاتبا في إحدى شركات النيجر الفرنسية، أسس "**حزب غينيا الديمقراطي**"، توفي في 26مارس 1984م. ينظر: عبده بدوى: "**سيكوتوري**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/12–13، السنة الثانية، (مصر)، أكتوبر–نوفمبر 1958، ص ص19 وما بعدها؛ محمد عبد المنعم يونس: "**غينيا دولة إفريقية جديدة**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/27، السنة الثالثة، (مصر)، فبراير 1960، ص ص 12 وما بعدها؛ توماس باتريك ميلادى: **شخصيات زعماء غرب إفريقيا**، القاهرة: دار القومية للطباعة ونشر، د.ت، ص ص 34 وما بعدها.

(102) دافيد كوت: المرجع السابق، ص 103.

(103) مسعودة ماضي: المرجع السابق، ص88.

(104) فلاديمير ماكسيمنكو: **الانتلجنسيا المغاربية (المثقفون أفكار ونزعات)**، ط1، ترجمة: عبد العزيز بوباكير، دار الحكمة، 1984، ص ص144–147.

(105) مسعودة ماضي: المرجع السابق، ص91.

(106) عبد المجيد عمراني: **النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية**، باتنة–الجزائر: دار الشهاب، د. ت، ص 93.

(107) الطيب ولد العروسي: "**عام فرانز فانون رجل القطيعة**"، مجلة القدس العربي، ع/6995، السنة الثالثة والعشرون، 9 ديسمبر 2011، ص 10.

(108) إبراهيم مياسي: **قبسات من تاريخ الجزائر**، الجزائر: دار هومة، 2010، ص 197.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر

- الشاذلي بن جديد: **مذاكرات الشاذلي بن جديد ملامح حياة (1929-1979)**، ج1، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2011.
- فرانز فانون: **سيسولوجية الثورة**، ط1، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت-لبنان: دار الطبعة للطباعة والنشر والتوزيع، 1970،
- فرانز فانون: **من أجل إفريقيا**، ط2، ترجمة: محمد الميلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980.
- فرانز فانون: **معذبو الأرض**، ترجمة: سامي الدوري، الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال والإشهار، 2010.
- محمد الميلي: **فرانز فانون والثورة الجزائرية**، الجزائر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، 2010.
- محمد حربي: **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**، الجزائر: موفم للنشر، 2008.

2- الموسوعات

- الحسيني الحسيني معدى: **موسوعة أشهر الثوار في العالم**، ط1، دار النهار للنشر، 2012.
- الخوند سعود: **الموسوعة التاريخية الجغرافية**، ج18، لبنان- بيروت: الشركة العالمية للموسوعات ش.م.م، 2004.
- عبد الخالق محمد فضل محمد وآخرون: **الموسوعة العربية العالمية**، ط2، ج10، ج13، ج25، الرياض-المملكة العربية السعودية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999.
- الكرباسي محمد صادق محمد: **دائرة المعارف الحسينية -معجم المشاريع الحسينية-**، ط1، ج2، لندن-المملكة المتحدة: المركز الحسيني للدراسات، 2010.
- اللحام محمد الهادي وآخرون: **القاموس عربي-عربي**، ط5، بيروت-لبان: دار الكتب العلمية، 2015.
- مقلاني عبد الله: **قاموس أعلام وشهداء وأبطال الثورة الجزائرية**، ط1، الجزائر: منشورات بلوتو،2009.

3- المراجع:

- أولوا ماري بيار: **فرانسيس جانسون الفيلسوف المناضل من مقاومة الاحتلال النازي لفرنسا إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي بالجزائر**، الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع، د.ت.
- الجمل شوقي: **التضامن الأسيوي الإفريقي وأثره في القضايا العربية**، مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964.
- الجمل شوقي وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ط 2، الرياض-السعودية: دار الزهراء للنشر والتوزيع، 2002.

- حفيري عبد الحميد: **فرانز فانون بعض الملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1985.

- حيفري عبد الحميد: **فرانز فانون بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته**، الجزائر، 2007.

- الزبيري محمد العربي: **تاريخ الجزائر المعاصر (1954 – 1962)**، ج 2، الجزائر: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999.

- خليفي عبد القادر: **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة 1830-1962**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.

- سليمة: **فرانز فانون المفكر الغائص في أعماق الثورة الجزائرية**، الجزائر: المكتبة الخضراء، د. ت.

- عباس محمد: **مثقفون في ركاب الثورة**، الجزائر: دار هومة، 2004.

- عمراني عبد المجيد: **النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية**، باتنة-الجزائر: دار الشهاب، د. ت.

- فيلالي عبد السلام: "**هيكلة المجتمع الجزائري المعاصر بين النزعتين الحضرية والريفية** " مجلة التواصل، ع/24، (جامعة باجي مختار – عنابة)، جوان2009.

- قليل عمار، **ملحمة الجزائر الجديدة**، ط 1، ج 1، قسنطينة: دار البعث، 1991.

- كبير محمد الشريف ولد الحسين: **من المقاومة إلى الحرب من أجل الاستقلال 1830 -1962**، الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع، 2010.

- الكتاني علي المنتصر: **المسلمون في أوروبا وأمريكا**، ط1، ج2، دار إدريس للتأليف والترجمة والنشر، 1986.

- كوت دافيد: **فرانز فانون من أعلام العصر الحديث**، ترجمة: عدنان الكيالي، بيروت-لبنان: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، 1981.

- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي، مرحلة الثورة (1954-1962)**، ط1، بيروت- لبنان: دار الغرب الإسلامي، 2007.

- مقلاتي عبد الله: **بحوث في تاريخ الثورة التحريرية الجزائرية**، ج1، الجزائر: منشورات مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، 2018.

- ميلادى توماس باتريك: **شخصيات زعماء غرب إفريقيا**، القاهرة: دار القومية للطباعة ونشر، د.ت.

- مياسي إبراهيم: **قبسات من تاريخ الجزائر**، الجزائر: دار هومة، 2010.

- ماكسيمنكو فلاديمير: **الانتلجنسيا المغاربية (المثقفون أفكار ونزعات)**، ط1، ترجمة: عبد العزيز بوباكير، دار الحكمة، 1984.

- بن نادر الطيب: **الجزائر حضارة وتاريخ الحضارات المتعاقبة للجزائر وتاريخها المشرق**، عين مليلة، دار الهدى، الجزائر، 2008.

4- مقالات

- بدوى عبده: "**سيكوتوري**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/12-13، السنة الثانية، (مصر)، أكتوبر-نوفمبر 1958.

- بدوي عبده: "**لومومبا**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/40، السنة الرابعة، (مصر)، فبراير 1961.

- حساني عبد الكريم: "**الاستعمار جريمة ضد الإنسانية**"، الملتقى الوطني الثالث فرانز فانون يوم: 30-31 ماي 2006، عنابة: مطبعة المعارف، 2006.

- حسين هلال: "**فرانز فانون سيرة حياة**"، مجلة قاسيون، ع/531، (سوريا)، 17 كانون الأول 2011.

- خليفي عبد القادر: "**المؤتمرات الأفروآسياوية والقضية الجزائرية**"، مجلة المصادر، ع/8، (الجزائر)، 2003

- دوري ثائر: "**أشباح فانون (الجزء الأول)**"، مجلة كنعان، ع/1086، السنة السابعة، (بيروت)، مارس 2007.

- سعدوني بشير: "**القضية الجزائرية في مؤتمر التضامن الإفريقي الآسيوي بالقاهرة 26-12-1957 /01-01-1958**"، مجلة الدراسات الإفريقية، ع/1، السنة الأولى، (الجزائر)، ماي 2014.

- الشهاوي عبد الخالق: "**أكرا ومستقبل التطور في إفريقية**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/08، السنة الأولى، (مصر)، يونيو 1958.

- عبد العزيز اسحاق: "**من أفكار نكرومه**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/8، السنة أولى، (مصر)، يونيو 1958.

- كديدة محمد مبارك: "**دور فرانز فانون في إنشاء الجبهة الجنوبية -المنطقة الجنوبية الصحراوية في الثورة التحريرية الجزائرية (1960-1962)**-"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع/ 27، (ورقلة)، ديسمبر 2016.

- محمد عبد المنعم يونس: "**غينيا دولة إفريقية جديدة**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/27، السنة الثالثة، (مصر)، فبراير 1960.

- محمد عبد العزيز إسحاق: "**من أكرا إلى مونروفيا**"، مجلة نهضة إفريقية، ع/22، السنة الثانية، (مصر)، سبتمبر 1959.

- الميلي محمد: "**فرانز فانون صورة مناضل عاش أفكاره من المراهقة حتى الموت** "، مجلة منارات، ع/ 2736، السنة العاشرة، 27 شباط، 2013.

- ولد العروسي الطيب: "**عام فرانز فانون رجل القطيعة**"، مجلة القدس العربي، ع/6995، السنة الثالثة والعشرون، 9 ديسمبر 2011.

- يحي بن الوليد: "**خطاب ما بعد الاستعمار**"، جريدة الكلمة، آسيوية، ع/ 16، أفريل 2008.

- جريدة المجاهد: "**من خطاب الدكتور فرانز فانون**"، ع/ 34، صدر في:24 ديسمبر 1958.

- جريدة المجاهد: "**مؤتمر التضامن الأفريقي الأسيوي في القاهرة**"، ع/ 66، صدر في: 18 أفريل 1960.

- جريدة المجاهد: "**من باندونغ إلى كوناكري**"، ع/ 66، صدر في: 18 أفريل 1960.

- جريدة المجاهد: "**ملتقى الدول الإفريقية في أكرا** "، ع/21، صدر في: 01 أفريل 1958.

5- الرسائل الجامعية:

- مسعودة ماضي: **فرانز فانون والثورة في إفريقيا** (**1925–1961**)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة أدرار، 2009.

6- الأجنبية:

- Cheurfi Achour: **Dictionnaire Des livres sur la révolution algérienne de 1954 à Nos jours** , publication du centre national d'étude et de recherche sur le modérément national et la révolution été 1er novembre 1954 ,2007 .

- Chourfi Achour**: Dictionnaire Encyclopédique de l'Algérie**, Algérie**:** Edition ANEP, 2010,

- Cherki Alice: **Frantz Fanon portrait**, Algérie: édition Mille Feules, 2009.

- David Macy: **Frantz fanon une vie**, paris- France: édition la découverte, 2011.

- Rine Gallisat: **Dictionnaire Biographique du mouvement ouvrir Maghreb- l'Algérie , engagements Sociaux et question national De la colonialitation à l'indépendance 1980,1960-**, Algérie: Barazakl edition.

- Sadder Senoussi: **Onds de choc les transmissions durant la guerre de libération**, Alegria: édition ANEP, 2002.

- Streickhand William: **Frantz fanon**, The life and work, Afro- American studies faculty publication series, 1979.

ASJP Algerian Scientific Journal Platform

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية
ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

المجلد: 02، العدد: 01	رجب 1444هـ/فيفري 2023م	الصفحات: 41-63

كيف تعاملت الحكومة العثمانيّة مع المهاجرين الجزائريّين بعد احتلال بلادهم؟

How did Ottoman Government Treat the Algerian Emigrants After their Country Was Occupied?

د. مصطفى الستيتي*
مركز الوثائق والأبحاث (قطر)
Stitimustafaster@gmail.com

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال 2022/09/07 تاريخ القبول 2022/11/19 الكلمات المفتاحية: المهاجرون الجزائريون، بلاد الشّام، الحماية الفرنسيّة، الجنسيّة، الأمير عبد القادر.	تسبب الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 م في هجرة عدد كبير من الجزائريّين وإقامتهم داخل الأراضي العثمانيّة، وقد استقبلت الحكومة العثمانية هؤلاء المهاجرين واعتبرتهم من رعاياها بشرط أن لا يكونوا حاملين للجنسيّة الفرنسيّة. وقد وفرت لهم المكان المناسب للسّكن وخصصت رواتب للعلماء والوجهاء، في حين منحت الفلاحين والمزارعين الإمكانيات المادية والتقنية لممارسة النّشاط الفلاحي. غير أنّ هذه الهجرة خلقت بعض المشاكل للحكومة وأهمّها ما يرتبط بالجزائريّين حاملي الجنسيّة الفرنسيّة. ويهدف هذا البحث، الذي يعتمد بشكل رئيسي على وثائق الأرشيف العثماني إلى تجلية مسألة هجرة الجزائيين إلى بلاد الشّام، وبيان أسباب القلق الذي كان يساور الحكومة العثمانيّة بسبب هذه الهجرة، والإجراءات التي اتخذتها الحكومة لتوطينهم في أراضيها والحيلولة دون استخدام هؤلاء المهاجرين ورقة ابتزاز سياسي من قبل الحكومة الفرنسيّة.
Article info	**Abstract:**
Received: 2022/09/07 **Accepted:** 2022/11/19	The French occupation of Algeria in 1830 led to migration of a huge number of Algerians and their subsequent settlement in Ottoman territories. The Ottoman government received these immigrants and treated them as its own citizens as long as they were not bearers of French nationality. It provided them with suitable accommodation and gave salaries to scholars and VIPs among them. As for the

* المؤلف المرسل

Algerian peasants and farmers, the Ottoman government provided them with technical tools to practice their farming. These immigrants consisted of men, women and children. Some were good at farming and some were skillful at other vocations. However, there were others who had no skills. The government treated each of them based on their potentials. These immigrants had refused the protection of any other foreign country due to their trust in the Ottoman government that it would treat them the way it treated its own citizens.
This immigration has however created some apprehensions and problems for the Ottoman government, most prominent of which was its concern about Algerians who held French nationality. The Ottoman government feared that some of them might be used by the French government to serve its goals. This made the Ottoman government adopt a strict screening method .
This research that majorly relies on documents from the Ottoman Archives aims at throwing light on the topic of immigration of Algerians to the Levant and the worries such immigration caused for the Ottoman government. The research also looks at the measures the government took to settle them on territories under its control, and to prevent the French government from using them as tools of political blackmail. The research equally explores the pivotal role played by Sheikh Abdul-Qadir Al-Jazairi – being a famous and highly respected personality – in facilitating the settlement of Algerian immigrants in the Levant and in solving problems that occasionally erupted between the immigrants and the Ottoman government.

Keywords:
Algerian immigrants, the Levant, French protection, nationality, Amir Abdul-Qadir.

مقدمة:

اتّخذت الحكومة الفرنسيّة من الخلاف المالي بينها وبين الوالي حسين باشا ذريعة لحصار مدينة الجزائر والمناطق المجاورة لها منذ عام 1827م، وعندما لم يفلح الحصار والتّضييق ولم يسفرا عن أيّة نتيجة شرعت فرنسا منذ عام 1830م في احتلال المناطق التي حاصرتها. ولم تُقابَل القوات الفرنسية بمقاومة تذكر في البداية، ولذلك ظنّت أنّ مهمتها سهلة في الجزائر. بيد أنّها ووجهت بمقاومة مفاجئة في المناطق الدّاخلية. فبعد اختيار الأمير عبد القادر (1807-1883م) قائدًا لقوات المقاومة، وبدعم من قبائل المناطق الدّاخلية وجد الفرنسيّون أنفسهم أمام مقاومة شرسة. وبعد مقاومة دامت لأكثر من 15 عامًا بدأت قوات الأمير عبد القادر تُمنى بخسائر فادحة، وكان استسلام ساعده الأيمن في المناطق الشّرقية أحمد بن سالم في فيفري سنة 1847م ضربةً قاصمة بالنّسبة إلى المجاهدين. كما أنّه وباستسلام الأمير عبد القادر في نهاية العام نفسه أمكن للفرنسيّين السّيطرة على كامل البلاد تقريبًا.[1]

[1] للاطلاع على مزيد من التّفصيل حول احتلال الجزائر من قبل فرنسا وموقف الدّولة العثمانيّة من ذلك، انظر: أرجمنت كُوران، السّياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية 1970م.

وبعد توقف المقاومة وتضاؤل الأمل في طرد الفرنسيين من البلاد نشطت حركةُ هجرة الجزائريّين إلى الأراضي العثمانيّة بسبب الاضطهاد الذي كانوا يتعرّضون له من قبل المحتلّين. وكان هؤلاء المهاجرُون يتشكّلون من أصناف مختلفةٍ، فمنهم العُلماء ومنهم النّاشطون السّياسيون ومنهم التّجار ومنهم الفلاحون ومنهم الفقراء المعدمُون...

كانت السّلطات العثمانيّة تتعامل معهم باعتبارهم مواطنين عثمانيّين ما لم يتجنسوا بالجنسيّة الفرنسيّة أو أيّة جنسيّة أجنبيّة أخرى، كما مكّنتهم من عدّة امتيازات أهمّها توفير السّكن والمعاش، وتوظيف المقتدرين منهم بإدارات الدّولة، وإعفاء الرّجال من الخدمة العسكريّة لمدد محدّدةٍ. بيد أن الحكومة اِشترطت على المهاجرين الجزائريّين في أراضيها الامتثال للقوانين الجاري بها العمل. وقد مكّنتنا مجموعة من الوثائق حصلنا عليها من الأرشيف العثمانيّ التّابع لرئاسة الوزراء في اسطنبول من رصد هذه السّياسة المتّبعة من قبل الحكومة العثمانيّة إزاء الجزائريّين بحسب أصنافهم، وإلقاء الضّوء على الامتيازات الممنوحة لهم، والإجراءات المتخذة لمنع فرنسا من استغلال ورقة المهاجرين واستخدامها سياسيّا ضد الحكومة العثمانيّة.

المهاجرون الجزائريّون: أسئلة ومخاوف

بعد أن بسطت فرنسا سيطرتها على الأراضي الجزائرية بدأ قسم من الجزائريين يترك وطنه الذي وُلد وكبر فيه والهجرة واللّجوء إلى الأراضي العثمانيّة. وقد توزع هؤلاء المهاجرون على مناطق كثيرة من أراضي الدّولة العثمانية، فمنهم من توجّه إلى مناطق قريبة من الجزائر مثل تونس وطرابلس الغرب، ومنهم من توجّه إلى الآستانة عاصمة الدّولة، ومنهم من توجّه إلى مصر ومنهم من توجه إلى مكّة والمدينة، ومنهم من توجّه إلى سورية... وسوف نركّز هنا على المهاجرين الجزائريّين إلى سورية باعتبار أنّ عددهم كان كبيرًا، وأنّ السّياسة التي اتّبعتها الدّولة العثمانيّة مع المهاجرين هناك طُبّقت تقريبًا في المناطق الأخرى التي وُجدوا فيها. كما سوف نخص بالذّكر بعض الأسماء البارزة ضمن هؤلاء المهاجرين ومن بينهم أحمد بن سالم والأمير عبد القادر الجزائري وأسرته.

من خلال الوثائق المتوفّرة التي اطلعنا عليها في الأرشيف العثماني في اسطنبول يبدو أن المهاجرين الأوائل من الجزائر قصدوا مدينة الآستانة منذ عام 1845م، أي قبل أن يسلّم الأمير عبد القادر سلاحه للفرنسيّين. وتشير إحدى هذه الوثائق إلى أنّ عددًا من المهاجرين الجزائريّين بعد أن وصلوا إلى هناك قدّموا التماسًا إلى الحكومة العثمانية من أجل تعيين موسى أفندي الجزائري وكيلاً في اسطنبول لمتابعة شؤون المهاجرين الجزائريين الذين قدموا إلى عاصمة الدّولة إما لأجل التّجارة وإما لأجل الإقامة، وذكروا في التماسهم أنّ فكرة الوكيل معمول بها مع التّونسيين والطّرابلسيّين، فلكل منهما وكيل يمثّلهم لدى السّلطات في المدينة[2].

وفي عام 1848 م وصلت إلى الشّام أولى القوافل من المهاجرين الجزائريّين، وعندما وصل هؤلاء اللاّجئون طلبوا من المسؤولين منحهم الإذن بالسّكن في مناطق مناسبة، كما طلبوا إيلاءهم العناية اللاّزمة وتفهّم أوضاعهم الصّعبة. بيد أن ثمّة جملة من الأسئلة كانت تدور في أذهان المسؤولين العثمانيّين بشأن ظروف قدومهم. من ذلك: لماذا قدموا؟ ولماذا تركوا بلادهم؟ هل هاجر هؤلاء إلى هذا المكان بإرادتهم أم بسبب الضّغوط التي مُورست عليهم؟ أم أنّ فرنسا هي التي أرسلتهم؟ ذلك أنّ الامتيازات الممنوحة للدّول الأوروبيّة جعلت ممارسة الدّولة العثمانيّة سلطتها على المهاجرين من هذه الدّول أمرًا صعبًا باعتبارهم واقعين تحت "حمايتها"[3]. وإذا رفض هؤلاء القادمون الجدد "التّبعيّة" للدّولة العثمانيّة فإنّهم سوف يكونون مواطنين فرنسيّين، أو يسعون إلى أن يكونوا مواطنين فرنسيّين، وبالتالي يشكّلون "قوّة ضغط" فرنسيّة في سورية.

---

[2] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم A.DVN, 10/31، مؤرخة بتاريخ 29 ذي الحجة سنة 1260 هـ/ الموافق لـ 9 يناير/جانفي سنة 1845م. وتذكر الوثيقة نفسها أن موسى أفندي مقيم بأسرته في اسطنبول منذ عشرة أعوام، وهو معروف من قبل الجزائريين، وله دراية ومعرفة بالقوانين والإجراءات المتبعة، وهو من المتّصفين بالاستقامة والنّزاهة.

[3] كانت فرنسا بدورها قلقة من عمليّات الهجرة إلى خارج الجزائر، وخصوصًا إلى الأراضي العثمانيّة، فقد كانت تخشى أن يمثل هؤلاء المهاجرون مشروع مقاومة للاحتلال الفرنسي ويجدوا الدّعم المعنوي والمادي، ولذلك كانت تضع العراقيل أمام هؤلاء المهاجرين، كما أن المعمرين اشتكوا من نقص اليد العاملة في حقولهم ومزارعهم. (انظر في هذا الموضوع الدّراسة القيمة التي أعدّها محمد غانم بعنوان "من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر: الوثائق الفرنسيّة والهجرة إلى الدّيار الإسلامية"، مجلة إنسانيات، العدد 12، سنة 2000 ص. 27-38).

وبما أن المسؤولين في الشّام والباب العالي يدركون جيّدًا ما يدور في خلد فرنسا من نوايا تجاه هذه المنطقة فقد تعاملوا مع الموضوع بجدّية، وتدارسوا ما يمكن أن تفرزه عمليّة الهجرة هذه من مخاطر ومشاكل، والتّدابير اللاّزم اتخاذها في هذا الشّأن، وعلى ضوء ذلك أصدرت الحكومة جملةً من القرارات. وبوسعنا من خلال الوثائق التي أمكننا العثور عليها في الأرشيف العثماني معرفة طبيعة هذه القرارات والإجابة على الأسئلة التي سبق طرحُها، والكيفيّة التي تعاملت بها الإدارة العثمانيّة مع المهاجرين الجزائريّين.

كانت القافلة التي يُعتقد أنّها الأولى القَادمة إلى سورية تضمّ 560 شخصًا[4] ، ومن بين هؤلاء 30 شخصًا لا يفقهون شيئًا في الزّراعة ولا التّجارة ولا أيّة مهنة من المهن الأخرى، و60 شخصًا لهم دراية بشؤون الزّراعة والفلاحة، بيد أنهم الأشد فقرًا وحاجة من بقية المهاجرين[5]. وكان على رأس القافلة أحمد بن سالم. وحسب ما يُفهم من الخطاب الذي أرسله القنصل الانكليزي المقيم في الشّام إلى نظارة الخارجية العثمانيّة والمؤرخ بتاريخ 5 كانون الأول سنة 1848 م فإنّ أحمد بن سالم هو ابن السّيد محمد سالم مساعد الأمير عبد القادر أثناء مرحلة المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي[6].

وفي إجابة على سؤال المسؤولين العثمانيّين في الشّام عن كيفيّة قدومهم من الجزائر، أجاب المهاجرون بأنّهم حصلوا على وثيقة إذن من المارشال بيتشو[7]، أما عن سبب تركهم الجزائر وما الذي يريدونه من هجرتهم فأجاب هؤلاء المهاجرون في عريضةٍ موقع عليها من قبل 100 شخص بأنّهم من المنطقة الغربيّة من البلاد وأنهم جزء من الشّعب الجزائري، وأنهم

---

[4] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم .Mesail-i Mühimme-i Şam, No, 79, Lef 7

[5] الوثيقة نفسها.

[6] ورد في وثيقة مؤرخة بتاريخ 17 صفر سنة1268 هـ/ الموافق لـ 12 ديسمبر سنة 1851م أنّه تم تعيين شيخ المشايخ أحمد سالم قائمقامًا على منطقة عجلون في مكان محمد آغا، وأنه سهر على قضاء حاجيات المهاجرين الجزائريّين، وهذا يعني أن هذا الشّيخ نجح في مهمتّه حتى استحق أن يتبوّأ هذا المنصب رغم كونه جاء مهاجرًا. (انظر: الأرشيف العثماني، الوثيقة رقم A. AMD 34/37).

[7] الأرشيف العثماني، وثيقة رقم: I.MSM 72/2079, Lef 1

مواطنون عثمانيّون منذ القديم، وأن الظّروف أجبرتهم على ترك وطنهم، وأنهم يودّون مواصلة العيش باعتبارهم مواطنين عثمانيّين. وأكّدوا بشكل خاصّ أنّهم لا يتحمّلون العيش تحت سلطة دولةٍ مسيحيّة. وورد في العريضة أنهم يرفضون العيش تحت حماية دولة أخرى، وهم غير مستعدّين للموافقة حتى لو قُدّم لهم عرض بهذا الشّأن، ويطلبون عدم تصديق أيّ مزاعم بخُصوصهم في هذا الموضوع، ويختمُون العريضة بتقديم التماسٍ للدّولة العثمانيّة بأن تمنحهم أرضًا يقيمون عليها حتّى يواصلوا حياتهم في ظروفٍ طبيعيّة[8].

تم عقد اجتماع شارك فيه والي الشّام صفوت باشا ومشير جيش الأناضول محمد رشدي باشا ومشير جيش الجزيرة العربيّة محمد نامق باشا، وبعض أعضاء مجلس إيالة الشّام بمشاركة أحمد بن سالم ممثّلاً عن المهاجرين. ونوقشت المسألة من جميع جوانبها، وفي نهاية الاجتماع صدر قرار يقضي بأن هؤلاء المهاجرين لن يغادروا الدّولة العليّة، وسوف يبقون من رعايا السّلطنة العثمانيّة مع أداء ما يتوجّب عليهم من ضرائب شأنهم شأن غيرهم من الرّعايا.

وحسب ما فهم من الوثيقة نفسها فإنّ مسؤولي الولاية طلبوا إسكان المهاجرين في مكانٍ مناسب بعيدًا عن السّاحل ومدينة الشّام، وبالتّحديد في منطقة عجلون، وهي عبارة عن أراض واسعة وفارغة. وبالنّسبة إلى فئة العلماء والأعيان ممّن لا خبرة لهم بشؤون الزّراعة والفلاحة وغير قادرين على العمل وعددهم 30 شخصًا فيمنحون عطايا سنيّة قدرها 30 ألف قروش[9]، وأمّا أحمد بن سالم فيسند له راتب شهري قدره 500 قروش[10]. وبالنسبة إلى الأشخاص الذين لهم خبرة بأمور الزّراعة والفلاحة وعددهم 60 شخصًا – بَيْد أنّهم عجزةٌ وفقراء مُعدمون – فقد طلب من مسؤولي الباب العالي تقديم يد العون لهم. وحسب ما ذكرت إحدى الوثائق فإنّ المساعدات التي أُقترح تقديمها لهؤلاء الأشخاص تتمثّل في القمح وآلات الزّراعة وبدلٍ ماليّ

[8] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم Mesail-i Mühimme-i Şam, No, 79, Lef 3

[9] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم A. MKT. MVL 8/46 مؤرخة بتاريخ 25 ربيع الآخر سنة 1264هـ/ الموافق لـ3 مارس سنة 1848م.

[10] الوثيقة نفسها.

لشراء عدد من رؤوس البقر، وقيمة المبلغ حسب التّخمين ما بين 100 ألف و 120 ألف قروش، أمّا المكان الذي سيقيمون فيه فيوجد على بعد نحو 25 إلى 30 ساعة من الشام[11].

وأكّد المسؤولون أنّه من الضروري أن يتمّ توطين هؤلاء الأشخاص قبل أن يفوت موسم الزّراعة، وإلاّ فإنّ حالتهم سوف تسوء، فمن جلب منهم معه شيئًا من المال سوف يضطرّ لإنفاقه ويقع في حرجٍ شديد، وقد تمّ شرح هذه الأمور ورفع الموضوع إلى الجهات العليا وتنبيهها لحساسيّة الموقف. وبالإضافة إلى الأراضي التي ستمنح للمهاجرين الجزائريّين توجد جملة من الامتيازات والإعفاءات سوف يتمتّعون بها شأنهم شأن المهاجرين الآخرين. فهم سوف لن يدفعوا الأعشار والضّرائب إلى أن تتيسّر أحوالهم وتتحسن ظروف عيشهم، كما أنهم سوف يُعفون من الخدمة العسكرية لمدة طويلة، بمعنى أنهم سوف يعاملون وفق الأصول التي يعامل بها أهالي البلدة التي يقيمون فيها[12].

قام مجلس الأحكام العدليّة بفحص مضبطة مجلس الشّام الشّريف وبقية الوثائق ثم أصدر قراره، ووفقًا لما جاء في القرار الذي يحمل ختم مجلس الأحكام العدليّة فإنّ طلبات الإيالة قُبلت كلّها. وبالإضافة إلى ذلك تمّت الإشارة إلى أنّه بالإمكان الثّقة في ما صدر عن هؤلاء الأشخاص من أقوال وبيانات، وإلى أنهم محلٌّ للأمانة، كما تم بحث ما يمكن أن تسفر عنه عمليّة توطينهم من نتائج. وهذه النتائج المحتملة والمزعجة تتمثل أساسًا في إمكانية ادعاء فرنسا تبعيّة هؤلاء الأشخاص لها في المستقبل، أو "استنجاد هؤلاء بفرنسا وطلب حمايتها عند الحاجة إذا طُلب منهم دفع الضّرائب وسائر الالتزامات الأخرى فلم يستجيبوا لذلك" [13]. وتم

---

[11] المقصود بهذه المسافة ما تقطعه عربة البريد.

[12] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم Mesail-i Mühimme-i Şam, No, 79, Lef 4.

[13] الوثيقة نفسها.

كذلك تعيين موظّف يتكفّل بتقسيم الأراضي وتوزيع المساعدات وتسجيل كلّ ذلك في دفتر مخصّص لهذا الأمر[14].

لكننا نلاحظ في وثيقة أخرى أنّه تمّ الاعتراض على مضبطةٍ أعدّها مجلس الأحكام العدلية، ويُفهم من نص الوثيقة والتي تبدأ بعبارة "عطوفتلو أفندم حضرتلرى" أنّها صادرة عن نظارة الخارجية. وقد تمّ الاعتراض على نقطة محدّدة وتتمثّل في كون المنطقة التي أُقترح إسكان المهاجرين فيها قريبة من السّاحل، ومناخها مناسب، لكن كثرة الأجانب فيها تجعلهم على احتكاك بهم، وهذا ما ينبغي تجنّبه، ولذلك تم ترجيح وتفضيل منطقة عجلون، وهي بعيدة عن الأجانب من ناحية، وأراضيها واسعة من ناحية أخرى. ويتبين من الوثيقة أنّ ثمة قرارًا آخر يتمثل في ضرورة مراقبة هؤلاء المهاجرين بعد إسكانهم وتوطينهم وعدم الغفلة عن تحركاتهم سواء من قبل الإيالة أو من المركز.

المهاجرون ومشكلة الحماية

حسب ما يمكن فهمه ممّا ذكر سابقًا يبدو أنّ السّلطات العثمانية لم تكن قلقة بسبب موضوع الإسكان والإعاشة، بقدر ما كانت قلقة من موضوع إمكانية استغلال هؤلاء المهاجرين سياسيًّا من قبل أطراف خارجيّة، وخلق مشاكل هي في غنًى عنها. وأهم مشكلة بالنّسبة إليها هي مشكلة "الحماية". ففي وقت سابق تم منح حقّ الحماية هذا لفئة الرّهبان الموجودين في مدينة القدس، بيد أن هذا الحقّ توسّع مع الزّمن، وتكثّف ضغط الدّول الأوروبية، وخلق ذلك مشاكل حقيقيّة للدّولة العثمانية بسبب استغلال هذا الحقّ وسوء استخدامه. فالدّول الأوروبيّة تستغل حقوق الحماية بالنّسبة إلى الأقليات، وتعمد إلى التّدخل في شؤون المناطق التي فيها هذه الأقليات سواء بطرق شرعيّة أو غير شرعيّة، وتمارس نفوذها بطريقة تمثّل خطرًا على أمن البلاد[15].

[14] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم Mesail-i Mühimme-i Şam, No, 79, Lef 1.

[15] Engelhard, Türkiye ve Tanzimat, (Çev. Ali Resat), Istanbul, 1912, s. 64-65, 304.

اتخذت الدّولة العثمانيّة جملة من الإجراءات من أجل الحيلولة دون حدوث مثل هذه المشاكل. وفي هذا الإطار صدر قانون عن نظارة الخارجية بتاريخ 22 صفر سنة 1863/1280م، وهو قانون ينظم عمل القنصليّات في موضوع أعداد الرّعايا العثمانيين وامتيازاتهم16. وهذه الامتيازات مثلما ذكرنا آنفًا استغلتها الدّول الأوروبية دائما لخدمة مصالحها وترتيب حساباتها الخاصة بها، بل إنّ الأمر تحول في بعض الحالات إلى استخدام للقوّة والتهديد. وفي فلسطين بشكل خاص، تم استغلال موضوع إسكان اليهود بشكل كبير سواء من قبل فرنسا أو انكلترا أو ألمانيا [17].

عبد القادر الجزائري ومسألة المهاجرين

بعد وصول القافلة الأولى إلى بلاد الشّام تبعتها قوافل أخرى، بيد أنّنا لا نعرف على وجه التّحديد متى جاءت وكيف وصلت. لكن من المهمّ القول بأنه في عام 1855م انضاف إلى المهاجرين الجزائريين الموجودين في سوريا مهاجر جديد، وهو معروف ومشهور على نطاق واسع، إنّه الأمير عبد القادر الجزائري18، فبعد أن سلم سلاحه للفرنسيين عام 1847م ظلّ معتقلاً لوقت طويل في فرنسا، ثم أُطلق سراحه بعد ذلك. ومكث وقتًا قصيرًا في باريس ثم غادرها إلى اسطنبول. ثم من اسطنبول انتقل إلى مدينة بورصة، لكن بسبب وقوع زلزال في

---

[16] Samur, Sebahattin,” Osmanlı Devletinde Cezayir Göçmenleri ve Abdülkadir el-Cezayiri”, Erciyes Universitesi Ilahiyat Fakultesi Dergisi, Cilt 8, Erciyes 1992, s.146-158.

[17] للاطلاع على مزيد من التّفاصيل بخصوص الجهود التي بذلتها فرنسا في هذا الموضوع، وخصوصًا في موضوع توطين اليهود الجزائريّين في فلسطين انظر: وجيه كوثراني، "فرنسا وفلسطين والصّهيونيّة في مطلع القرن العشرين"، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، 19-24 أفريل 1980، عمّان 1983، الجزء الثاني، ص. 539-579.

[18] كان للأمير عبد القادر الجزائري دور فعال في مقاومة الاحتلال الفرنسي وقد اكتسب بمقاومته هذه شهرة واسعة داخل الجزائر وخارجها، بل امتدت شهرته لتصل إلى الولايات المتّحدة الأمريكية ، انظر: Adil BAKTIAYA, 1830: “Fransa’nın Cezayir’i İşgali, Abdülkadir’in Yükselişi ve Amerikan Kamuoyunda Abdülkadir Hayranlığı”, Ortadoğu Etütleri, Ocak 2010, Cilt 2, Sayı 2, ss.143-169.

بورصة غادرها وانتقل إلى الشّام. استقر الأمير عبد القادر هنا، وبفضل شخصيّته المتميزة وشهرته التي انتشرت في الآفاق وفي سوريا كذلك أصبح من أعلى أشراف الشّام مكانة [19].

وفي عام 1860م عندما وقعت الأحداث في جبل لبنان ثمّ امتدت إلى الشّام كان للشّيخ عبد القادر الجزائري دور مهمّ في إخماد نار الفتنة، وهذا ما زاد من شهرته وذيُوع صيته. فقد بذل جهودًا كبيرة من أجل تهدئة غليان الأهالي المسلمين والحيلولة دون وقوع أحداث عنف. ولهذا السّبب تم توسيمه من قبل الحكومة العثمانية ومن قبل فرنسا على حد سواء[20]. بيد أنه بعد فترة من الوقت نلاحظ أنّ العلاقة ساءت بين الأمير عبد القادر ووالي الشّام حمدي باشا. وقدّم كلّ طرف شكاياته إلى الباب العالي والمابين الهمايوني، وأراد إظهار نفسه على أنّه على حق[21]. غير أن الوثيقة نفسها تفيد بأنّ المياه عادت إلى مجاريها بين الأمير عبد القادر والوالي حمدي باشا بعد فترة من البرود في العلاقات بينهما[22] .

وبالرّغم من التوتّر وسوء التّفاهم الذي يحصل من حين لآخر بين الأمير عبد القادر والمسؤولين في الشّام فقد أفادت وثيقة أخرى أنّ الأمير كان يمثل عنصر توازن واستقرار، فقد كان يسهر على ترتيب أوضاع المهاجرين الجزائريّين ويعمل على منع حدوث مشاكل من قبل بعض العناصر المشاغبة، ومثّل كذلك عنصر ترابط قويّ ما بين المهاجرين الجزائريين من جهة وما بين جيرانهم من السّكان والحكومة من جهة ثانية. ومن المهم أن نعرف أنّه بعد وفاة الأمير عبد القادر سنة 1883م بدأ بعض المهاجرين في الادّعاء بكونهم فرنسيّين[23]. ولهذا السّبب تعقّدت مسألة جنسيّة المهاجرين الجزائريين مع الوقت وأصبحت تمثل مشكلةً حقيقيّة.

المهاجرون ومسألة الجنسيّة

---

[19] محمد كرد علي، خطط الشّام، الجزّء الرّابع، مكتبة النّوري، الطبعة الثانية، دمشق (د. ت) ص. 72.

[20] A. Halük Ülman, 1860-1861 Suriye Buhranı, Sevinç Matbaası, Ankara 1966, s. 34.

[21] الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Y. EE 18/417

[22] الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Y. EE 18/417

[23] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم Y. EE 14/244 (لائحة مقدّمة إلى المابين الهمايوني).

حسب ما نفهم من اللائحة التي عرضها حسين رضا باشا على المابين الهمايوني والمؤرخة بتاريخ 7 نيسان سنة 1304رومي /الموافق لـ19 أفريل سنة 1888م فإنّ عدد المهاجرين الجزائريين قد زاد بشكل كبير ما بين 1848 و 1888م. وحسب ما أوضحت الوثيقة فإنّ عدد المهاجرين الجزائريين في المنطقة بلغ ما بين 8 آلاف و10 آلاف شخص[24]. لكن ينبغي أن نأخذ في الاعتبار أنّ عدد هؤلاء لم يسجّل بشكل رسمي ومنظّم في أيّ مكان، ولذلك يمكننا القول إنّ هذا الرّقم هو مجرّد تقديرات، وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ هذا الرّقم وإن كان مبالغًا فيه إلى حدّ ما فإنّه لا يمكن التّقليل من شأن عدد المهاجرين.

والمهمّ هنا ليس عددهم بقدر ما هو الموقف والوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه. فمن بين هؤلاء المهاجرين من ادّعى بأنّه يملك الجنسيّة الفرنسيّة، وعدد هؤلاء كان يرتفع من يومٍ إلى آخر. والأمر الآخر أنّ الذين يزعمون امتلاك الجنسيّة الفرنسيّة أكثرهم ممن تميل نفوسهم لارتكاب المخالفات والجرائم. وقد جاء في اللائحة التي بعث بها حسين رضا باشا إلى الباب العالي ما يلي:"...إنّ الذين يدّعون التبعيّة لفرنسا أكثرهم من الأجلاف، وهؤلاء مستعدّون لاختلاق المشاكل كلّ يوم". وقد ردّ الباب العالي بأنّ المهاجرين الذين قبلوا بالتّابعية للدولة العثمانية سوف يُعاملون معاملة المواطنين العثمانيّين، وأمّا الذين ادعوا أنّهم فرنسيو الجنسية فسوف يتمّ استثناؤهم25.

ومن المؤكد أنّ المسألة لا تتعلّق فقط بمخالفات وارتكاب جرائم، فهؤلاء الأشخاص قد تكون لديهم مشاكل ماليّة وشخصيّة ضد الدولة، وبادّعائهم الجنسيّة الفرنسيّة يكون هدفهم إنقاذ أنفسهم من هذه المخالفات. وفي اللائحة التي قدّمها حسين رضا باشا إلى المابين الهمايوني نجد توضيحاتٍ بهذا الشأن: "إنّ القاطنين داخل طبرية في المزرعة التّابعة للأملاك السّنية زعموا منذ عام ونصف تقريبًا أنّهم من رعايا فرنسا، وقد تجرأوا على تعريف أنفسهم بهذه

---

[24] الوثيقة نفسها.

[25] Sebahattin Samur, "Özel Memuriytle Beyrut'a Gönderilen Hüseyin Rıza Paşa'nın Bir layihasının Işığında XIX Yüzyılının Sonuna Doğru Fransa'nın Suriye Siyaseti", E.U. Ilahiyat Fakültesi Dergisi, s. 271-187, Kayseri. 1989. Sayi 6, s. 280-281.

الصّفقة، وإذا أصرّوا على دعوى التّبعيّة الأجنبيّة ولم يستلموا التّذكرة العثمانيّة (الهوية العثمانيّة) فسوف يتم طردهم من الأراضي السنيّة، بل وعند الضّرورة يتم إخراجهم من الممالك المحروسة".

ولم يكن القاطنون في طبرية فقط من أعلنوا التّبعية الأجنبيّة، فمثلا اللاّجئين الجزائريّين القاطنين في الشّام والمناطق التّابعة لها سجّلوا أنفسهم كرعايا تابعين للدّولة العثمانيّة، وتم إنهاء الإجراءات المتعلّقة بهم، وعُمّرت بطاقات هويّاتهم، وبالرّغم من ذلك "...فأكثرهم يستنكفون حتّى الآن من استلامها". وأما الموجودون في منطقة صفد فقد أعدّوا في وقت سابق عددًا من طلبات العرضحال مختومةً وموقّعةً وقدّموها إلى حمدي باشا، وبالرّغم من ذلك "فيوجد قسم منهم إلى حدّ الآن يدّعون بأنهم ليسوا عثمانيّين، بل من ذوي الجنسيّة الفرنسيّة"26.

وقد نالت أسرة الأمير عبد القادر الجزائري نصيبها من هذا الجدال. فللأمير عبد القادر ولدان ظلاّ طول الوقت من المحبّين للدّولة والمتمسكين بالجنسيّة العثمانية، وهما محمد ومحيي الدّين. أمّا الأمير علي– والذي يتمتع بنفوذ فكريّ أوسع من بقيّة إخوته – فقد عاش ردحًا من الزّمن متجنسًا بالجنسية الفرنسيّة ثم انتقل وتبنّى الجنسيّة العثمانيّة. كما أن الأمير سعيد من هذه الأسرة نفسها عُيّن على إدارة الشّام لبعض الوقت في نهاية الحرب العالمية الأولى من قبل قيادة الجيش العثماني بعد الانسحاب من الشّام، وظل في هذه الوظيفة لمدة ثلاثة أيام فقط، أي إلى حين دخول الوحدات التّابعة للأمير فيصل إلى الشّام. ومن أفراد هذه العائلة كذلك الأمير عمر، وهذا الرّجل تحالف مع الفرنسيّين، وقد تمّ إعدامه من قبل جمال باشا بتهمة الجوسسة[27].

وقد أكّد والي سوريا حسين رضا باشا على ضرورة حلّ مسألة الجنسيّة مع السّلطات الفرنسيّة حلاّ جذريّا. وبالفعل أصدر مجلس الوزراء العثماني قرارًا بضرورة وضع حدّ لهذه

[26] Suriye'ye Yerleşen Cezayirli Muhacirlerin Tabiiyeti Meselesi 1847-1900, Islam Arastirmalari Dergisi, Sayi 1, 1997, s. 91-106.

[27] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم Y.EE 14/244 ، دخل الأمير علي بن الأمير عبد القادر في وقت لاحق إلى مجلس المبعوثان ممثلاً عن الشّام، وانتخب مساعدًا لرئيس المجلس، وأثناء الحرب العالمية الأولى أرسل إلى ألمانيا.

المشكلة. وحسب ما نفهمه من الوثيقة فإنّ الباب العالي اجتمع مع السّفير الفرنسي وتوصّل الطّرفان إلى اتفاق في الموضوع، وتم إبلاغ المسؤولين في سورية بضرورة تطبيق المواد المتعلقة باللاجئين الجزائريّين. وتمخّض اللّقاء بين الباب العالي والسّفير الفرنسي على جملةٍ من المواد تم إرسالها إلى الحكومة الفرنسيّة، ومن بين أهمّ هذه المواد ما يلي:

- يوجد جزائريون يهاجرون إلى سورية في مجموعات، ومن يستوطنون منهم في البلاد – شأنهم شأن غيرهم من المواطنين العثمانيّين – فهم "يعتبرون من رعايا الدّولة العلية"[28]. أمّا الذين يعنّ لهم تبنّي الجنسيّة الفرنسيّة من بين هؤلاء فهم مُجبرون على ترك البلاد في وقت محدّد.
- بالنّسبة إلى الذين يأتون إلى سورية فرادى حاملين للجواز الفرنسي، ثم يسجّلون جوازاتهم في القنصليات الفرنسيّة "عند قدومهم مباشرة"، فهؤلاء يعتبرون من رعايا الدّولة الفرنسيّة. والذين يعنّ لهم من هذا القسم التّجنس بالجنسية العثمانيّة فيتمّ قبول طلباتهم. وبالنسبة إلى الذين يعملون في الوظائف المدنية أو العسكريّة، أو الذين استوطنوا في "الأراضي الأميريّة" بدون مقابل، فهؤلاء يعتبرون مواطنين عثمانيّين، ومن يريد منهم التجنس بالجنسية الفرنسيّة فهو مجبر على ترك البلاد في مدة محدّدة. أما الذين لا يغادرون فيعاملون معاملة مواطني الدولة العليّة.
- بموجب المادة الثّانية فالجزائريون الذين قبلوا باعتبارهم مواطنين فرنسيين وقاموا بأعمال تخل بأمن البلاد وسلامتها، يقع التحقيق في الأمر من قبل لجنة خاصة ويجبرون على ترك البلاد في مدة قصيرة.
- بموجب المادة الثّانية يسلم إلى الباب العالي الدّفتر الذي سجلت فيه أسماء الجزائريّين وجوازات سفرهم. ووفقًا للاتفاق، فلكي يتم القيام بهذه الإجراءات يختار الباب العالي والسّفارة الفرنسية والولاية والقنصلية الفرنسيّة موظفًا عن كلّ طرف منهم، ويتم تكوين لجنة، وبعد أن تنهي هذه اللجنة أعمالها تفصل بين أسماء الذين سيبقون مواطنين عثمانيين

[28] لا تفرّق الحكومة العثمانية في تعاملها مع المهاجرين القادمين من الجزائر بين مسلم ويهودي، فهي تعتبرهم مواطنين عثمانيين على حد سواء إذا التزموا بالتّبعية للدّولة (انظر: الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم DH. SFR 138/27).

وبين الذين يريدون البقاء رعايا فرنسيّين، وتنظّم أسماؤهم في نسختين مختلفتين، ويقع تقييدهم في دفاتر. وتسلّم نسخة من الدفتر للباب العالي ونسخة أخرى للسفارة الفرنسيّة.

- في حالة حدوث سوء تفاهم في تنفيذ هذا الاتّفاق بين الموظفين العثمانيين والقناصل، يتم اتّخاذ القرار من قبل الباب العالي والسّفارة على ضوء ما يفدُ إليهما من تقارير.
- يتم تطبيق هذا الإجراء بحق الجزائريين في فلسطين وفي سائر المناطق التّابعة للدّولة العثمانية.
- بالنّسبة إلى الجزائريين الذين يتركون بلادهم ويرغبون في الهجرة إلى داخل حدود الأراضي العثمانية للعيش فيها، فهؤلاء يعاملون معاملة المواطنين العثمانيين ويتم إسكانهم وتوطينهم في أراضي مناسبة[29] .

وحسب ما يفهم من المواد المذكورة، فإنّ قسمًا منها تم تطبيقه وتنفيذه بالفعل في وقت سابقٍ، والمسألة لا تُحلّ بواسطة جهة واحدة بل بالاشتراك بين الطّرفين. لكن من الصّعب تتبع الموضوع في الوثائق لمعرفة إلى أيّ مدى تمّ تطبيق هذه الإجراءات، وما هي المشاكل التي يمكن أن تكون نجمت عنها. وأغلب الظّن أنّ المسألة تم حلّها بنسبة كبيرة.

وإلى جانب أبناء عبد القادر الجزائري نلاحظ وجود شخصيّات أخرى مهمّة ضمن اللاّجئين الجزائريّين، ومن بين هؤلاء نذكر مثلاً طاهر الجزائري (1852-1920م)، وهذا الرّجل شغل وظيفة المفتّش العام في المدارس بالشّام أثناء ولاية مدحت باشا، وقد أسدى خدمات جليلة للدّولة خصوصًا في مجال التّعليم. وكان عضوًا بارزا في "مجمع اللّغة العربيّة" وله مؤلّفات كثيرة[30].

[29] الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم Irade Meclisi Mahsus No. 4625, Lef 2.

[30] لمزيد من التفصيل عن حياته وآثاره انظر: محمد سعيد مصيطفى، "الشّيخ طاهر الجزائري وإسهاماته العلميّة"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة غرداية، العدد 33، مارس 2018م.

خاتمـة:

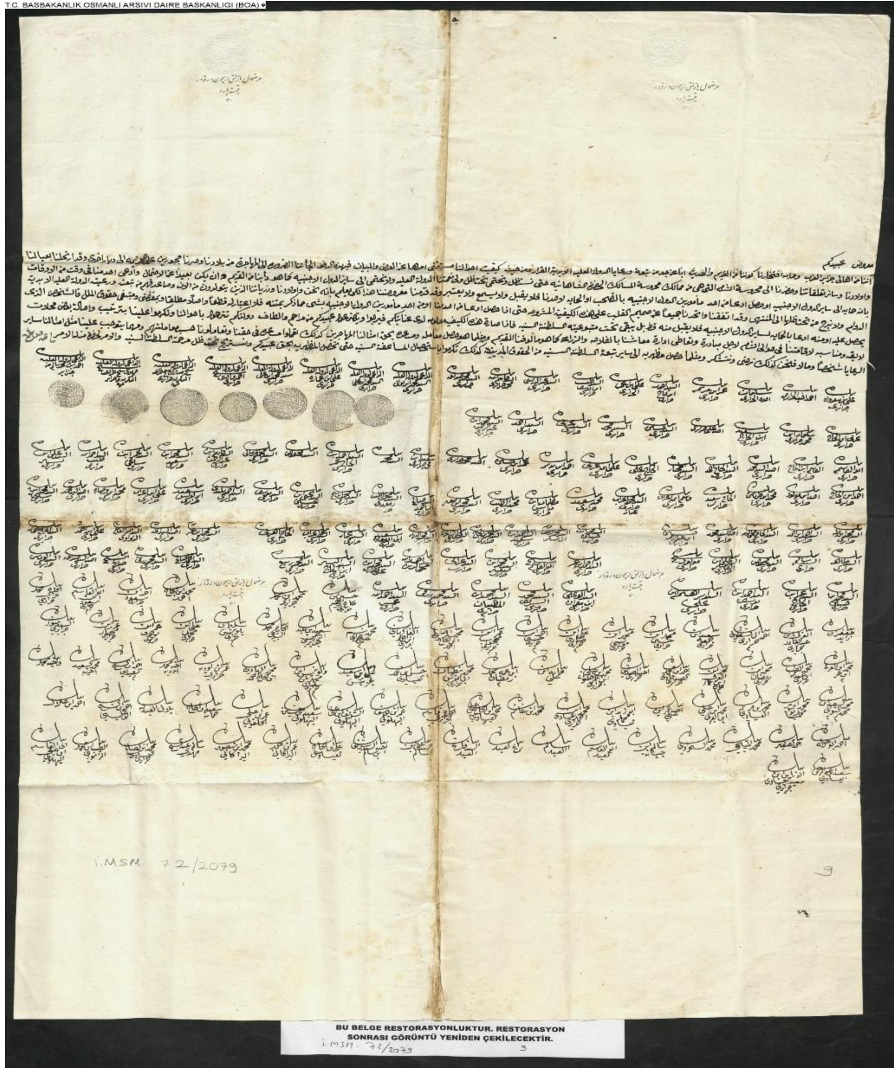
لقد كشف لنا البحث في الوثائق المتعلّقة بالمهاجرين الجزائريين سواء في العاصمة الآستانة أو في الولايات الأخرى أنّ الحكومة العثمانيّة عاملتهم معاملة المواطنين العثمانيّين دون تمييز بين مسلم وغير مسلم، ووفرت لهم المسكن ووسائل المعيشة، وأعفتهم من الالتزامات المالية حتّى يتمكنوا من الاستقرار وبناء حياتهم بطريقة مناسبة. ورغم الظّروف الصّعبة التي كانت تمر بها الدّولة انطلاقًا من منتصف القرن التّاسع عشر، فقد استقبلت أعدادًا كبيرة من المهاجرين الجزائريّين من مختلف مناطق البلاد، ثمّ في وقت لاحق اِنضاف إليهم مهاجرون آخرون من الولايات العربيّة التي وقعت تحت نير الاحتلال الأجنبي مثل مصر وتونس ثم طرابلس الغرب. وجدير بالذّكر أنّ بعض هؤلاء المهاجرين أسس عددًا من الأوقاف، وبعضهم الآخر تبوّأ مناصب سياسيّة وعلمية ودينيّة وعسكرية مهمة في الدّولة. وهذه المجالات كلّها ما تزال تحتاج إلى دراسة وبحث على ضوء ما ظهر من وثائق الأرشيف العثماني. فهذه الوثائق تمثل مصدرًا مهمّا للمعرفة التّاريخيّة بالنّسبة إلى الباحث العربي، ولذلك فمن الضّروري الاستفادة منها وتجلية الحقائق المتصلة بالعلاقات العربيّة التّركية في الفترة العثمانيّة.

الملاحـق:

وثيقة رقم – 1

معروض عبيدكم،

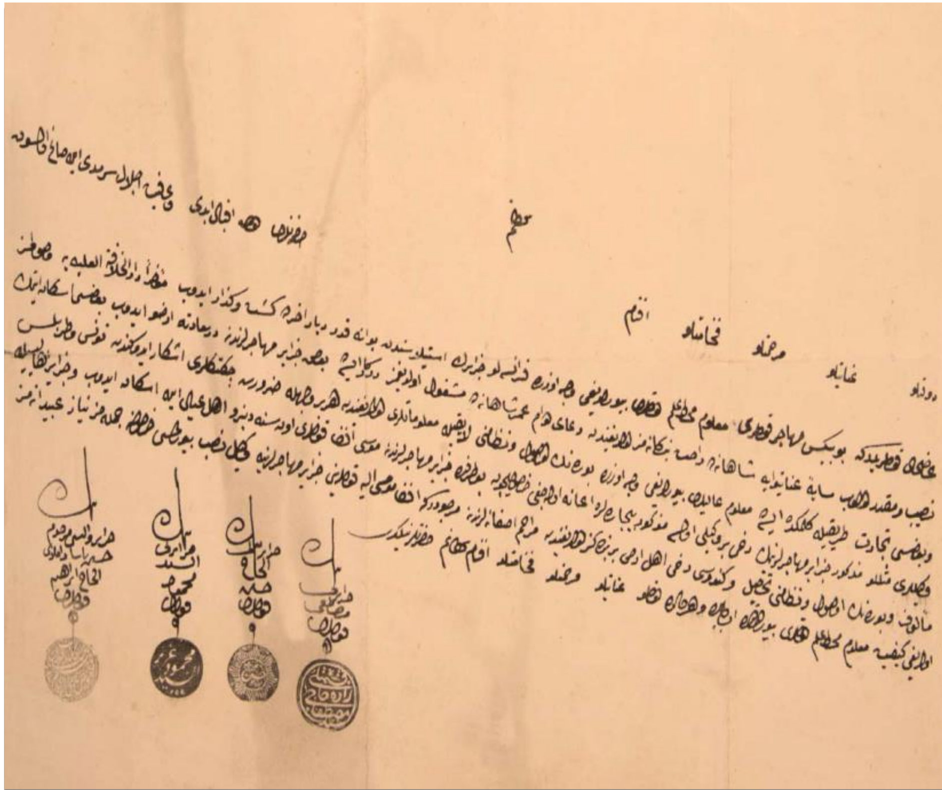
إننا من أهالي جزائر الغرب وحماية افتخارنا كوننا من القديم والحديث أبا عن جدّ من تبعة رعايا الدولة العليه الأبدية القرار، ومن حيث كيفية أحوالنا مستغني أمرها عن العرض والبيان، فبهذه الدفعه ألجأتنا الضروره إلى المهاجرة من بلادنا، وصرنا مجبورين على العزيمه إلى ديار أخرى، وقد ارتحلنا ابعيالنا واولادنا وسائر تعلقاتنا وحضرنا إلى محروسة الشام التي هي من ممالك محروسة المالك الحضرة الشاهانيه حتى نستظل ونحتمى تحت ظل ولى نعمتنا الدولة العليه، ولا نحتمي إلى سائر الدول الأجنبيه كما هو دأبنا من القديم، وأن يكن بعيدا عن الاحتمال وادعى احد منا في وقت من الأوقات بأنه حماية إلى ساير الدول الأجنبيه، أو حصل ادعا من احد مأمورين الدول الأجنبيه بالتصحب أو الحمايه لأحدنا فلا يقبل ولا يسمع ولا يعتبر. وقد قدمنا معروضنا هذا لكى يعلم بأنه نحن وأولادنا وذرياتنا الذين يتولدون من الآن وصاعد فهم من تبعت ورعية الدوله العلية الأبدية الدوام، ولا نبرح من تحت ظلها إلى المنتهى. وقد اتفقنا واتحدنا جميعا عن صميم القلب على هذه الكيفية المشروحه حتى إذا حصل ادعا من أحدنا، أو من أحد مأمورين الدول الأجنبيه بشيء مما ذكر بمتنه فلا اعتبار له قطعًا وأصلا مطلقا، وبمقتضى ومبتغى حقوق الملل فالشّخص الذى يحصل عليه أو منه بالحماية لساير الدول الأجنبية فلا يقبل منه قط، بل يبقى تحت متبوعية السلطنة السنيه، فإذا صارة هذه الكيفية معلومة لدى عنايتكم فيرجوا ويتضرعوا عبيدكم من مراحم وألطاف دولتكم تترحموا بأحوالنا وتكرموا علينا بترتيب وإحالة بعض محلات لايقه ومناسبه لإقامتنا في حوالى الشام لاجل مبادرة وتعاطي إدارة معاشنا بالفلاحة والزراعة كما هو مألوفنا القديم. ومثلما هو حاصل معامله ومساعده بحق أمثالنا المهاجرين، كذلك تعملوا مساعده في حقنا وتعاملونا حسب معاملتهم. ومهما يتوجب علينا مثل أمثالنا ساير الرعايا شخصا ومالا فنحن كذلك نرضى ونتشكر. ومثلما حصل مظهريه إلى ساير تبعة السلطنة السنيه من الحقوق الدينية كذلك تكرموا باستحصال المساعفة السنيه حتى تحصل المظهرية بحق عبيدكم ونستريح تحت ظل مرحمة السلطنة السنيه. والأمر لحضرة من له الأمر. في 4 صفر سنة 1264 هـ (11 جانفي 1848م).



العرض حال الذي قدّمه المهاجرون الجزائريون إلى السّلطات العثمانية والمؤرخ بتاريخ 4 صفر سنة 1264 هـ/ الموافق لـ 11 جانفي سنة 1848 م ويعلنون فيه ولاءهم للدّولة العثمانية ورفضهم اللّجوء إلى أية جهة أجنبية أخرى، ويلتمسون منحهم مكانًا مناسبًا للسّكن والعمل، ومعاملتهم معاملة المهاجرين الآخرين إلى الدّولة.

المصـدر: الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم: I.MSM 72/2079, Lef 9

وثيقة رقم – 2



الحكومة العثمانية تقدم مساعدات نقدية لأهالي الجزائر وطرابلس الغرب ممن انقطعت بهم السبل جراء الحرب، وطلب موسى أفندي تعيينه وكيلاً لمتابعة أمور المهاجرين الجزائريين الذين قدموا إلى اسطنبول لأجل التجارة أو الإقامة. (29 ذي الحجة سنة 1260 هـ/ الموافق لـ9 جانفي سنة 1845م).

المصدر: الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم: A.DVN, 10/31

وثيقة رقم – 3

İ.MSM 72/2079

1

İ.MSM.00072.02079.001

خطاب الأمان الصّادر عن حاكم الجزائر الماريشال الفرنسي بيتشو والذي تم تسليمه إلى السيد أحمد الطيب بن السّيد محمد سالم (دون تاريخ).

المصـدر: الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم: I.MSM 72/2079, Lef 1

وثيقة رقم – 4

دفتر مسجل فيه قائمة بأسماء وأعداد المهاجرين الجزائريين القادرين على ممارسة الحراثة والزراعة من الرجال والصبيان والنساء (من اليمين)، وقائمة ثانية مسجل فيها قائمة بأسماء الرجال والصبيان والنساء الذين هم غير قادرين على ممارسة الحراثة والزراعة (من اليسار).

المصدر: الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم: I.MSM 72/2079, Lef 4

وثيقة رقم – 5

الموافقة على طلب المهاجرين الجزائريين في دمشق لإسكانهم في المنطقة المسماة القصرية بلواء عكا، وإعفائهم من الضرائب والخدمة العسكرية. (15 ربيع الأول سنة 1285 هـ/ الموافق لـ5 أغسطس سنة 1868م).

المصـدر: الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم: A.MKT.MHM, 416/3

المصادر والمراجع:

1.المصادر:

-الأرشيف العثماني في اسطنبول، وثيقة رقم: A.DVN, 10/31

-الأرشيف العثماني، الوثيقة رقم: A. AMD 34/37

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم: A. MKT. MVL 8/46

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم: DH. SFR 138/27

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم: I.MSM 72/2079, Lef 1

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم: I.MSM 72/2079, Lef 4

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم: I.MSM 72/2079, Lef 9

-الأرشيف العثماني،وثيقة رقم Irade-i Meclisi Mahsus No. 4625, Lef 2.

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Mesail-i Mühimme-i Şam, No, 79, Lef 1.

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Mesail-i Mühimme-i Şam, No, 79, Lef 3

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Mesail-i Mühimme-i Şam, No, 79, Lef 4.

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Mesail-i Mühimme-i Şam, No, 79, Lef 7.

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Y. EE 18/417

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Y. EE 14/244

-الأرشيف العثماني، وثيقة رقم Y.EE 14/244

2.المراجــع:

أ. مراجع عربية:

-أرجمنت كُوران، السّياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية 1970م.

-محمد غانم، "من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر: الوثائق الفرنسيّة والهجرة إلى الدّيار الإسلامية"، مجلة إنسانيات، العدد 12، سنة 2000 ص. 27-38).

-وجيه كوثراني، "فرنسا وفلسطين والصّهيونيّة في مطلع القرن العشرين"، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، 19-24 أفريل 1980، عمّان 1983، الجزء الثاني، ص. 539-579.

-محمد كرد علي، خطط الشّام، الجزّء الرّابع، مكتبة النّوري، الطبعة الثانية، دمشق (د. ت) .

-محمد سعيد مصيطفى، "الشّيخ طاهر الجزائري وإسهاماته العلميّة"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة غرداية، العدد 33، مارس 2018م.

ب. مراجـع أجنبية:

BAKTIAYA, Adil 1830: “Fransa’nın Cezayir’i İşgali, Abdülkadir’in Yükselişi ve Amerikan Kamuoyunda Abdülkadir Hayranlığı”, Ortadoğu Etütleri, Ocak 2010, Cilt 2, Sayı 2, ss.143-169.
Buzpinar, Tufan, ”Suriye'ye Yerleşen Cezayirli Muhacirlerin Tabiiyeti Meselesi 1847-1900, Islam Arastirmalari Dergisi, Sayi 1, 1997, s. 91-106.
Engelhard, Türkiye ve Tanzimat, (Çev. Ali Resat), Istanbul, 1912.
Samur, Sebahattin, “Özel Memuriytle Beyrut’a Gönderilen Hüseyin Rıza Paşa’nın Bir layihasının Işığında XIX Yüzyılının Sonuna Doğru Fransa’nın Suriye Siyaseti”, E.U. Ilahiyat Fakültesi Dergisi, s. 271-187.
Samur, Sebahattin, ” Osmanlı Devletinde Cezayir Göçmenleri ve Abdülkadir el-Cezayiri”, Erciyes Universitesi Ilahiyat Fakultesi Dergisi, Cilt 8, Erciyes 1992.
Ülman, A. Halük, 1860-1861 Suriye Buhranı, Sevinç Matbaası, Ankara 1966.

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية
ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820
ASJP Algerian Scientific Journal Platform

المجلد: 02، العدد: 01	رجب 1444هـ/فيفري 2023م	الصفحات: 64-87

علاوة عمارة: نص غير معروف حول جماعتين مبتدعتين بالمغرب الوسيط

Alloua Amara: An unknown text about two innovators in the Middle Maghreb.

مامي محمد *	منصوري يحي
جامعة علي لونيسي، البليدة 2 (الجزائر)	جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)
Mami05moh@gmail.com	Mensouriyaya19@gmail.com

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال 2022/11/19 تاريخ القبول 2023/01/16 الكلمات المفتاحية: الداودي، كتاب الأموال، برغواطة، سسوالة، المبتدعة.	من خلال النازلة التي تطرق إليها الداودي في كتابه الأموال، تم التعرف على مجموعتين مبتدعتين في المغرب الوسيط خاصة في المغرب الأوسط وهما برغواطة و سسوالة، وقد حددت هذه النازلة أيضا موطن وهوية كل من قبائل كتامة وأشير وعجيسة، لقد حُكم على سُسوالة بنفس الطريقة التي حُكم بها على برغواطة في الفقه المالكي. وفي الواقع فإن الداودي لم يكن موافقا على دفع كلا الجماعتين " سُسوالة وبرغواطة " الجزية ، وقد أمر بسلبهم وبيعهم ومطاردتهم عندما أصر هذا الفقيه بأن هاتين الجماعتين لم تكونا لا مجوسيتين ولا يهوديتين ولا مسيحيتين بما أن هؤلاء وجب عليهم دفع الجزية. وكلمة كفار التي أُطلقت على سُسوالة وبرغواطة تظهر – بالنسبة للفقهاء– أن هؤلاء "المبتدعة".
Article info	**Abstract:**
Received: 2022/11/19 Accepted: 2023/01/16	Through the calamity that al- Daoudi dealt with in his book al-Amwal, two innovators were identified in the middle Maghreb, especially in the central Maghreb, and they are the Barghawata and Susawala. By Barghawata in Maliki jurisprudence. In fact, al-

* المؤلف المرسل:

Dawudi did not agree with the payment of the tribute by both groups, the Suwala and Barghawata, and he ordered them to be plundered, sold, and chased when this jurist insisted that these two groups were neither Magi, nor Jews, nor Christians, since they had to pay the tribute. And the word "infidels" that was applied to Suwala and Barghawata shows - for the jurists - that these are "innovators".

Key words:
Daoudi, Book of Funds, Barghawata, Susawala, Innovator.

مقدمة:

بالرغم من أن الفتح العربي لبلاد المغرب كان موضوعا للعديد من الأعمال، لا يوجد حسب علمي من سلط الضوء على أسلمة الشعب البربري بعد الحملات العسكرية الأولى في القرن الأول الهجري، ثم إن نتاج الكتابة التاريخية لا تعطي لنا إلا معلومات شحيحة حول فتح وأسلمة المغرب الأوسط ، وهذا ربما بسبب أن هذه المنطقة كانت تسيطر عليها الحياة الريفية. غير أنه ومنذ سنوات عديدة سمح استخدام النوازل الفقهية كمصادر تاريخية بمعرفة مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية للعالم الإسلامي الوسيط. و لقد أشار كلود كاهن (Claude Cahen) إلى أهمية هذا النوع من المصادر بالنسبة للباحث :" المصادر الفقهية هي الوحيدة في الغالب أو تقريبا من يخبرنا عن مختلف مظاهر الحياة الخاصة و العامة في العصر الوسيط الإسلامي." و بالخصوص و بشكل دقيق فهذه المصادر هي النوازل الفقهية و التي عرفها ك. كاهن "بأنها الأجوبة التي قدمها الفقهاء لطلبات الفتوى التي تقدم بها القضاة أو آخرون بالنسبة للمسائل الصعبة و الجديدة " التي لم يرد فيها نص" التي صادفتهم أثناء ممارسة وظيفتهم[1].

إن هذه الاستشارات تدور حول حوادث واقعية، والتي يمكن أن نحدد إطارها الزماني والمكاني، وعليه فهي ذات أهمية كبيرة جدا". إن الاسم المستخدم في وسم هذه الاستشارات الفقهية تختلف حسب مقاطعات العالم الإسلامي الوسيط: يطلق عليها النوازل في المغرب الأقصى والأندلس، والمسائل بالنسبة لإفريقية، والفتاوى بالنسبة للمشرق. والحال أن إباضية المغرب استخدموا المصطلحات الثلاث وأضافوا مصطلح " الأجوبة "، و حسب اعتقادي فهم أول من أسس جامع للفتاوى في إفريقيا الشمالية[2].

من بين أقدم المؤلفات الفقهية المغاربية المالكية نجد "كتاب الأموال" لأبي جعفر أحمد بن نصر الداودي والذي له أهمية لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديني للمغرب وصقلية. والحال أن نازلة من بين نوازل هذا الفقيه أخرجت من الظلام مجموعتين مبتدعتين في المغرب الأوسط و الأقصى، البرغواطيون و المعروفون نوعا ما من مصادر أخرى، و سسوالة غير المعروفين إلى حد الآن[3].

1- ترجمة لشخصية الداودي :

إن أقدم من خصص ترجمة للداودي هو القاضي عياض (ت 544 هـ / 1149 م)، القاضي المرابطي الشهير لسبتة، وحسب معلوماته فإنّ أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي هو أصيل المسيلة أو بسكرة ، وعاش في طرابلس أين ألف تعليقا على " الموطأ " ثم إستقر في تلمسان أين توفي في (ت 402/1011-12) .[4] ثم إنّ ابن بشكوال مؤرخ السير الأندلسي من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، يخبرنا بأن الداودي درّس في تنس والمسيلة وفي بسكرة. لقد كان عصامي التكوين، فضلا عن تتلمذه – حسب مصادر أخرى – على يد الشيخ إسحاق بن ابراهيم بن عبد الله الزبيدي المكنى بالقلانسي (ت 359/971)، كان هذا الأخير متضلعا في علم الكلام وأعتقله الفاطميون بالمهدية يعد الداودي من بين أكبر شيوخ المدرسة المالكية في المغرب في القرن العاشر الميلادي بعد ابن أبي زيد وأبي الحسن القابسي. و قد كان مختصا أيضا في علم الحديث وفن النظر وألف العديد من الكتب والتي لم يصل إلينا معظمها [5].

- كتاب النامي في شرح الموطأ : تعليق على موطأ الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ/795م) مؤسس المدرسة المالكية، حيث توجد نسخة مخطوطة منه في جامع القرويين في فاس تحت رقم 175.
- الوافي في الفقه: كتاب في الفقه الإسلامي حسب المذهب المالكي.
- النصيحة في شرح البخاري : وهو شرح لجامع الأحاديث للإمام البخاري(ت 256/ 869) .
- الإيضاح في الرد على القدرية : وهو تأليف في علم الكلام .

- كتاب الأصول : وهو يبدو أنه يتناول علم أصول الفقه .
- كتاب البيان : مضمون هذا الكتاب مجهول [6].
- كتاب الأسئلة و الأجوبة في الفقه : هذا المصنف هو في الفقه الإسلامي . وتوجد نسخة منه في مكتبة جامع الزيتونة تحت رقم 10482 . [7]
- كتاب الأموال: كتاب متعلق بالنظام العقاري و الذي سنتحدث عنه فيما بعد.
- والعديد من النوازل التي أوردها الونشريسي [8] (ت 914/ 1508) في كتابه المعيار، و أيضا القاضي عياض في كتابه مذاهب [الحكام].

2- كتاب الأموال :

لقد استخدمنا مخطوط كتاب الأموال المحفوظ في مكتبة الإسكوريال تحت رقم 1165 عربي والذي صوّر على ميكروفيش بمعهد البحث وتاريخ النصوص - القسم العربي (IRHT) بباريس. و قد اعتبر كنسخة وحيدة من هذا الكتاب التي وصلت إلينا إلى غاية اكتشاف النسخة الموجودة في المكتبة العامة في الرباط. ثم إن الجزء الخاص منه بصقلية نشره و ترجمه حسن حسني عبد الوهاب و فرحات الدشراوي في : دراسات إستشراقية مهداة إلى روح المستشرق: ليفي-بروفنسال. [9] أيضا نشر الدشرواي بعض المنتخبات من هذا الكتاب في حوليات الجامعة التونسية[10].

إن كتاب الاموال قد نشر حديثا من طرف رضا محمد سليم شحادة من خلال مخطوط الرباط. تتكون النسخة الموجودة في مكتبة الإسكوريال من 58 ورقة بالخط المغربي[11]. ثم إن الداودي لم يحرر إلا جزءا من هذا الكتاب لأننا عندما نقرأ في بيانات النسخ بعد الإشارة إلى تاريخ النسخة (السبت 23 صفر 677هـ/ 15 جويلية 1278م) نجد أن الشيخ الداودي كتب الجزء الأول من الكتاب ، وأن محمد بن عبد الرحمان المغيلي أكمل الجزء الثاني. وأيضا نجد أن الكتاب يبدأ ب " أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي قال ......" و حتى هذه العبارة تتردد بشكل واضح في الجزء الثاني من الكتاب.

في هذه الدراسة الفقهية و التي تتعلق بالنظام العقاري في العالم الإسلامي حسب المذهب المالكي في المغرب وإفريقية وصقلية عرضت مسائل فرضها نظام الاراضي والضرائب المأخوذة على الأراضي، والمناجم وحق استغلال الماء .ثم إنّ العديد من النوازل وردت في هذا الكتاب وتوجد واحدة منها شغلت اهتمامنا بالخصوص والتي عدنا إلى نسختها الأصلية و نقترح ترجمتها إلى الفرنسية كالآتي[12]:

و سئل أحمد عن بيع برغواطة و شرائهم و من غنمهم، و هل تضرب عليهم الجزية إن أجابوا إلى ذلك بعد القهر ؟ و عن قوم ذكر أنهم على الكفر بنواحي أشير– و هم من صنهاجة – و هم يزعمون أنهم من العرب . قال : و هل يحملون محمل العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ؟ و كيف الأمر في الجميع؟ قال : إذا سبي برغواطة فبيعهم جائز، و استرقاقهم إذا خمسوا و قسموا، و لا تقبل الجزية منهم إن بذلوها، و إنما جاء النص في الجزية في أهل الكتاب و المجوس. و كذلك القوم الذين من صنهاجة، و هم قوم من قوم يقال لهم مسوالة، و من كان بمثل حالهم بنواحي كتامة و عجيسة. فمن كان هو المرتد نفسه قتل و ماله للمسلمين. و من ورث كفره عن آبائه فهو بمنزلة برغواطة، و إنما يسترقون إذا أسلموا و يجبرون على الإسلام، و أما من أسر كفره فليس فيه إلا القتل.

3– نازلة من القرن العاشر الميلادي:

وصلتنا هذه النازلة من دون أي تاريخ لأنها أدرجت في كتاب الأموال، الذي هو كتاب في الفقه. و لقد أشرنا أعلاه أن الكتاب لا يحمل إلا التاريخ الذي أورده الناسخ . لكن من الممكن جدا تحديد تاريخ تقريبي لهذه النازلة بما أن الداودي الذي استقر في المسيلة ثم بتلمسان أين توفي في 402هـ/1011 يكون قد أفتى بهذه النوازل في المغرب الأوسط سواء في المسيلة أو في تلمسان في هذه الفترة. وحسب هذه الإشارات يمكن أن نستنتج أن زمن هذه النازلة هو ما بين نهاية القرن العاشر و بداية القرن الحادي عشر الميلادي. إن هذه النازلة تدخل في الفترة التي كان فيها المغرب تحت الحكم الزيري التابع للدولة الفاطمية في القاهرة . ونهاية القرن العاشر الميلادي عرفت أيضا الغزوات التي شنها الأمراء الصنهاجيون ضد المجال البرغواطي.[13] ثم أن اختيار الداودي كمرجع في هذا الكفاح ضد المنشقين في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى هو بسبب المكانة التي تمتع بها ليس فقط في تلمسان أو المسيلة فقط و لكن أيضا في المغرب كافة.

تتكون النازلة التي أفتى بها بشكل عادي من سؤال وجواب . لكن المسألة مزدوجة وتتعلق ببرغواطة من جهة وبسسوالة من جهة ثانية.

والحال أن الفقيه أجمل المسألتين في نازلة واحدة . إن هذه المسألة تخص منطقتين في المغرب : جبال المغرب الأوسط بالقرب من أشير والواجهة الساحلية الأطلسية للمغرب. إن جماعة برغواطة المبتدعة –التي وصفها ابن حوقل، والبكري وابن عذاري المراكشي وابن أبي زرع الفاسي و ابن خلدون– كانت موضوع العديد من الدراسات والتي نرشد إليها القارئ. لكن يجب تحديد هوية جماعة سسوالة ومواطنها ومعرفة الديانة التي مارستها هذه الجماعة والمخرج الذي خصصه لها التشريع الإسلامي.

لمعالجة هذا الموضوع، تعتمد مادتنا الوثائقية بالخصوص على المصادر الجغرافية بالخصوص كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي (ت نهاية القرن العاشر الميلادي) ، والمسالك والممالك للبكري (ت 1153/487) ، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (كتاب ألفه في 548 هـ/1153م)، وأيضا على المصادر التاريخية البحتة، بالأساس القاضي النعمان بن محمد (ت 363/ 974) ، وابن حماد الصنهاجي (ت 628/ 1230) ، وابن عذارى المراكشي (النصف الأول من القرن الثالث عشر)، وابن خلدون (ت 808/ 1405م) .

4– سسوالة : جماعة بربرية صنهاجية :

إن الإشارة الوحيدة عن وجود سسوالة التي تنتمي إلى القبيلة الكبرى البربرية صنهاجة تعزى إلى النازلة التي أفتى بها الداودي. لقد خصص ابن خلدون جزءا من كتابه عن تاريخ البربر لصنهاجة وتاريخها، و يدقق على أن صنهاجة كانت في عهده القبيلة الأكثر عددا في بلاد المغرب[14] حيث كانت تظم أكثر من سبعين بطنا والتي من بينها تلكاتة أسياد المغرب الأوسط. والحال أن لا يجب أن نخلط هؤلاء مع صنهاجة الجنوب أو صنهاجة اللثام أجداد المرابطين.

كانت تلكاتة تمثل صنهاجة المغرب الأوسط[15]، و هي قبيلة الحماديين (398– 547/ 1007–1152) والبادسيين بإفريقية (362–543– /972–1149) .

وحسب إبن خلدون فإن تلكاتة شغلت المنطقة التي تمتد ما بين المسيلة و برج حمزة "البويرة

حاليا" ،ومدينة الجزائر، ومليانة إلى غاية وادي ملوية[16]، باستثناء بعض الجيوب التابعة لقبائل أخرى والتي من بينها بطن زناتي مستوطن في منطقة المدية وجبال الونشريس.

إنه من الصعوبة بمكان تحديد البطن الذي تنتمي إليه جماعة سُسوالة الصنهاجية. و في الواقع ابن خلدون قد عدد القبائل الصنهاجية الرئيسية في المغرب الأوسط: تلكاتة، وبني متنان، وونوغة، وبني مزغنة (المستوطنة في مدينة الجزائر) ، وبني جعد، وبطوية، وبني يفرن، وبني خليل. هذه الأخيرة استوطنت وادي بجاية أين لجأ المهدي بن تومرت مؤسس حركة الموحدين[17]، ومن جهته يدقق الداودي على أن الجماعة الصنهاجية المذكورة في النازلة —سسوالة — هم قوم من قوم سُمّوا سُسوالة وهذا ما يظهر على أن هذه الجماعة ليست مهمة من حيث العدد بالمقارنة مع القبيلة الكبرى الصنهاجية المستوطنة في المغرب الأوسط ألا وهي تلكاتة.

وحسب الموطن الجغرافي المذكور في النازلة يبدو أن سُسوالة هي جزء من تلكاتة تلك القبيلة الصنهاجية الكبرى المستوطنة في المغرب الأوسط يحدد ابن خلدون نطاق انتشارها بالحيّز الذي تشغله ما بين حمزة " البويرة" و المسيلة شاملا منطقة أشير موطن الحماديين والباديسيين.

وفضلا عن ذلك فالنازلة تشير إلى أناس آخرين لا ينتمون إلى جماعة سُسوالة و الذين يعيشون مع هذه الجماعة الصنهاجية في منطقة كتامة وعجيسة و ينتحلون ديانة مبتدعة شبيهة بديانة سُسوالة (ومن كان على حالهم بكتامة وعجيسة) . لكن من غير الممكن في الحالة الحاضرة من معارفنا أن نحيط بهم بشكل أدق[18].

5– منطقة جبلية بالمغرب الأوسط :

إن تحديد هوية وموطن المواضع الثلاثة المشار إليها في النازلة وهي أشير وكتامة وعجيسة يطرح بعض الإشكالات والتي سنحاول توضيحها. إن تحديد موطن أشير سيكون مفتاحنا في تحديد كتامة وعجيسة. في الواقع فإن الرابط بين كتامة وأشير هو وحده من يسمح لنا بالتعرف على المنطقة التي أشار إليها المؤلف (الداودي) و هي منطقة لا صلة لها مع بلاد كتامة الكبرى، في منطقة القبائل الصغرى في بلاد الجزائر حاليا.

أ/ أشير :

ماعدا البكري، تتفق جميع المصادر على القول بأن مدينة أشير شيّدها زيري بن مناد الصنهاجي قائد قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط وخادم الفاطميين في 324هـ/935م[19]. وقد أشار إليها الجغرافي المشرقي المقدسي –من القرن العاشر الميلادي– مع نظيراتها من المدن بينها المسيلة وسوق حمزة وتنس. وأقدم مؤلف وصفها هو الجغرافي المشرقي ابن حوقل (ت 367هـ/977م) : "أشير مدينة بحصن يسكنها آل زيري بن مناد ولها سور حصين وأسواق وعيون تطّرد وأجنة ومزارع إقليم حسن القدر."[20] و البكري الجغرافي الأندلسي من القرن الحادي عشر الميلادي وصف مدينة أشير قائلا " أشير هي مدينة جليلة حصينة يذكر أنه في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما، ولا يوصل إلى شيء منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال، وهو في شرقيها الذي ينفذ إلى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الأقدام، وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها... والذي بنى سورها بلجين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة سبع وستين وثلاثمائة (977-978م)، وخربها يوسف بن حماد بن زيري، واستباح أموالها، وفضح حرمها وذلك بعد أربعين وأربعمائة (1048-10149م)، ثم تراجع الناس إليها بعد خمسين وأربعمائة (1063م)".

وأيضا الإدريسي الجغرافي العربي في بلاط ملك النورمان روجي الثاني والذي كتب في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي اكتفى بتقديم المعلومات التالية "وهو حصن حسن البقعة كثير المنافع وله سوق يوم معروف يجلب إليه كل لطيفة ويباع به كل طريفة" . والوصف الجغرافي الأخير الذي نورده هنا حول أشير هو لمجهول مؤلف كتاب الاستبصار[21] الذي كتب بخصوص أشير: "بناها زيري بن مناد الصنهاجي، وتعرف بأشير زيري، وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة، وإنما بني سورها وحصنها وعمرها فليس في تلك الأقطار أحسن منها. وهي بين جبال شامخة محيطة بها، وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من بناء الأول"[22].

إن المصادر التاريخية تتناقض خاصة حول تاريخ تأسيس هذه المدينة، و يطرح مشكل آخر فيما يخص التحديد الدقيق لمكان هذه الحاضرة البربرية المندثرة. وفي الواقع لقد تم إكتشاف معالم أثرية لثلاثة مواقع بجبال كاف الأخضر في التيطري غير بعيد عن المدية. .وهذه المواقع

هي : منزه بنت السلطان ، ياشير و بنية، و حسب الأثريين فإن كان قصر بني زيري[23] يقع في هذه الحاضرة الأخيرة .و في جميع الحالات فإن مدينة أشير التي ذكرها الداودي كانت تقع بجبال كاف الأخضر إلى الجنوب من مدينة الجزائر وإلى الشرق من قصر البخاري.

ب/ عجيسة :

إن نص النازلة التي عرضت على الفقيه المالكي "الداودي" تكتفي بالإشارة إلى نواحي أشير . لكن الإجابة تحدد هذه المناطق : عجيسة و كتامة . إن عجيسة هي قبيلة بربرية من المغرب الأوسط ، ثم إن ابن حزم الأندلسي (ت 1063/456)[24] و ابن خلدون (ت 1405/808)[25]يتفقان على القول بأن هذه القبيلة البربرية الصغيرة هي فرع من البرانس حسب التقسيم العام للنسابة العرب . والنص الأكثر قدما الذي نمتلكه عن عجيسة هو نص فاطمي. إن القاضي النعمان بن محمد (ت 363 /974) القاضي الكبير الفاطمي لإفريقية يشير إلى فتح الجيش الفاطمي بقيادة أبي عبد الله الداعي لقلعة وشنوك انطلاقا من معقله في ميلة أين هب على سطيف من أجل قتال عجيسة وكان أن أخضعهم وأقروا بالسيادة المطلقة للفاطميين . ومن هذه المعلومة أمكن الإستنتاج أن موطن عجيسة هو غرب سطيف صوب المسيلة .

إنّ البكري (ت 1094/487) الذي كتب مصنفه الجغرافيي مرتكزا على المعلومات الشفوية والمدونة في كتب عصره ذكر مرتين عجيسة : أولا " فحص عجيسة " بالقرب من الغدير ، ثم " جبل عجيسة " حول مدينة المسيلة . إن هاتين الإشارتين من البكري تسمح لنا بتحديد موطن عجيسة ما بين شمال المسيلة والغدير . هذه الحاضرة الأخيرة " الغدير " كانت قرية تقع في الجنوب الغربي من سطيف وإلى الشمال من قلعة بني حماد . ثم إن ابن حماد الصنهاجي (ت 1232/628) فقيه و مؤرخ المغرب الأوسط أشار أيضا إلى بلد عجيسة. وفيما يخص معركة كيانة بين الفاطميين و المتمرد الإباضي أبو يزيد النكاري في 947/336 ثم توجه (قيصر) إلى أوسجيت وهي بسفح جبل القلعة من جهة الشمال مما يلي بلد عجيسة، فهرب أهلها منه وصاروا مع أبي يزيد. ثم توجه إلى بني عوسجة وهم من عجيسة" و أيضا

حسب هذا النص فإن موطن عجيسة يتموقع في الجزء الشمالي من جبل قلعة بني حماد و يمتد إلى غاية جبال قلعة كيانة[26].

لقد خصص ابن خلدون في كتابه لمحة صغيرة عن قبيلة عجيسة :" عجيسة وهم من بطون البرانس من ولد عجيسة بن برنس... وكانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تونس والجبال المطلة على المسيلة وكانت منهم يسكنون جبل القلعة... وراموا كيد القلعة فستلحمهم السيف ثم هلكوا وهلكت القلعة من بعدهم وورثت مواطنهم عياض بذلك الجبل عياض من أفاريق العرب الهلاليين" وهنا بالتأكيد ابن خلدون لم يضف شيئا بالنظر للذين سبقوه ، و إن لم يذكر عند هؤلاء و جود بطن من عجيسة في منطقة تونس، والتي لا صلة لها مع منطقة أشير المذكورة في النازلة واستقرار قبيلة عياض العربية الهلالية، لكنه يدقق على أن قلعة كيانة كانت تقع في بلاد عجيسة. و في الأخير فإن الداعية الإسماعيلي عماد الدين إدريس القرشي(ت 872-1488) والذي أعاد نسخ المصادر الفاطمية المغربية الخاصة بالقرن العاشر الميلادي يحدد موطن عجيسة في المسيلة وفي ناحية بجاية[27].

ومن كل ما سبق يمكن أن نستنتج أن بلاد عجيسة تمتد ما بين شمال المسيلة والغدير وقلعة كيانة، وتظم بالخصوص الجزء الشمالي من جبل قلعة بني حماد، و الذي يسمى حاليا المعاضيد، إلى غاية آثار قلعة كيانة. إن هذه المنطقة الجبلية حملت اسم سكانها الأوائل "بلد عجيسة أو جبل عجيسة " على الاقل إلى غاية القرن الحادي عشر الميلادي وحتى و إن تم تهجير السكان الأصليين لعجيسة " الموطن" على ثلاثة مراحل و هي كالآتي : حملة أبو عبد الله الداعي عند تأسيس السلالة الفاطمية والذي جنّد وحدات تنحدر من هذه القبيلة في جيشه الإفريقي، ثم ما قام به أبو جعفر بن حمدون الأندلسي عامل المسيلة الفاطمي، والذي نقل عدد معتبر من قبيلة عجيسة من أجل إعمار مدينته الجديدة، ثم المجزرة التي قام بها الخليفة المنصور خلال معركة كيانة حيث قضى على بطنين من هذه القبيلة بسبب مناصرتهما للمتمرد أبي يزيد.[28] ومن جهته قام حماد بن بلكين –مؤسس القلعة في جبل عجيسة– بإبعاد و قتل جيرانه من عجيسة و هو ما سمح لقبائل عياض العربية الهلالية بالتوغل في هذه المنطقة الجبلية.

ت/ كتامة :

كتامة هي اسم المكان الأخير الذي ذكر في النازلة و هو الأكثر صعوبة من حيث تحديد موقعه. في البدء من المفيد التذكير على أن كتامة هي قبيلة بربرية كبيرة من البرانس والتي تحوي العديد من البطون، من بينها بني سكتان، وإجانة، ولهيصة ،ومتوسة وبني زلدوي. ثم إن البكري يفصّل بوضوح ما بين مقاطعات المغرب الأوسط : بلاد صنهاجة، وبلاد قسطيلية وبلاد كتامة . إن هذا التقسيم يتأسس على العنصر الاجتماعي والتنظيم الإداري تحت حكم الفاطميين والحماديين[29].

إن المصادر التاريخية والجغرافية تتفق على وصف بلاد كتامة والتي تمتد – في الفترة التي تهمنا– من عنابة إلى بجاية وأيضا إلى غاية المدن التالية : قسنطينة والقل وجيجل وميلة وإكجان وسطيف والغدير وبلزمة ودكمة ومرسى الدجاج، وبلدة تامسنت الواقعة قرب المسيلة. لكن موضع الإشكال الذي يطرح نفسه هو كالآتي : إن موطن كتامة المشار إليه في نازلة الفقيه الداودي يقع في منطقة أشير، وعليه أين يوجد بالتدقيق موطن كتامة؟ ولماذا سميت كتامة في حين أن سكانها صنهاجيين؟ . إن الإقليم المأهول في بداية العصر الوسيط من طرف قبيلة كتامة تقلّص على مر القرون.

في زمن ابن خلدون كانت القبائل الكتامية تسكن الأراضي التي تمتد من عنابة إلى بجاية و أيضا ما بين جبال الأوراس والبحر . إلا أن البعض من البطون الكتامية إستوطنت من قبل خارج الإقليم الذي حدده ابن خلدون " القبائل الصغرى".

فيما يتعلق ببداية الفاطميين يظهر القاضي النعمان بأن عجيسة و زواوة كانتا تجاوران كتامة، وفي نفس الفترة وصف ابن حوقل مقاطعتي إفريقية وتيهرت حيث يذكر حضور كتامة " القبيلة" في الحواضر القريبة من المسيلة و هي : المهريين وتامسنت ودكمة[30] وأوسجيت. وقرن من بعد يكرر الإدريسي ما قاله القاضي النعمان، مضيفا تواجد هذه القبيلة في جبال الونشريس[31].

إن المعلومات الوصفية التي أوردناها لا تحدد بالضبط ناحية كتامة التي تقطنها قبيلة صنهاجية. لكن يمكن أن نستنتج أن كتامة كانت مجاورة لعجيسة و هذه الأخيرة كما رأينا استقرت في المنطقة الجبلية ما بين أشير و قلعة بني حماد. و يمكن لنا أن نعتمد على ابن عذاري

المراكشي خاصة في تحديد ناحية كتامة بشكل دقيق، لأنه في كتاب البيان حرص على أن جبل كيانة (حصن أبي يزيد) أين لجأ و تحصن المتمرد الإباضي أبو يزيد النكاري يقع في كتامة. و قد كتب ابن خلدون حول تأسيس قلعة بني حماد :" في سنة 398هـ/ 1007م اختط حماد مدينة القلعة قرب كتامة ، وهو الجبل الذي يسمى عجيسة ." [32]و قول ابن خلدون هذا يدعم ويؤكد تحديدنا للأماكن التي نعنيها بالدراسة. ثم إن المنطقة الجبلية التي تقع بالقرب من قلعة كيانة إلى الشمال من قلعة بني حماد (هذه الاخيرة ستشيد بعد هذه الحادثة بسنوات قليلة) قد حافظت على اسمها " كتامة " على الرغم من اختفاء سكانها الأوائل. والحال أن غياب المدن في المنطقة قبل تأسيس قلعة بني حماد في 398 /1007 -08 يعقّد أيضا من مسألة الأسماء المستخدمة لتسمية هذه المنطقة، وهذه هي مبرر ذكرها في سؤال النازلة بمنطقة أشير ثم عجيسة وكتامة في الجواب[33].

إن المنطقة التي سكنها البطن الصنهاجي –سُسوالة– تتطابق مع المنطقة الجبلية التي ما بين قلعة بني حماد و أشير، و الأسماء المستخدمة في وسم المنطقة تعود وتتعلق بالسكان الأوائل : و هذين الاسمين هما كتامة و عجيسة (جبل عجيسة). إن جبل عجيسة يمتد إلى الشمال من جبل القلعة، وكتامة على ما تبقى من الجبل مع احتواء قلعة كيانة. إن الاسمين كتامة وعجيسة سيندثران تدريجيا و سيعوضان ب " جبل قلعة بني حماد" و جبل عياض الذي هو اسم القبيلة الهلالية الذين سيطرت على هذه الجبال. وإلى يومنا هذا فإن جبال قلعة بني حماد يطلق عليها جبال المعاضيد و جبل الرحمة[34].

6– توفيقية من الشعائر :

بعد تحديد التعريف بسسوالة وتحديد موطنها وجب أن ندقق في الديانة التي مارستها هذه الجماعة، وبعد قراءة النازلة خرجنا بالملاحظات التالية :

- هذه الجماعة لم تكن لا مسيحية و لا يهودية بما أن النازلة ذكرت بأن الجزية لم تفرض إلا على أهل الكتاب، وهو ما لا ينطبق على هذه الجماعة.
- هذه الجماعة لم تكن مجوسية: و الفقيه يدقق على أن الجزية لا تخص هذه الجماعة البربرية لأنها تخص فقط أهل الكتاب والمجوس. ونحن نعلم أن الفاتحين المسلمين قد فرضوا الجزية على

البربر الذين بقوا على وثنيتهم. وذكر سحنون بن سعيد التنوخي مؤسس المذهب المالكي في المغرب الإسلامي- في المدونة الكبرى نقلا عن مالك بن أنس أن الخليفة عثمان بن عفان قد فرض الجزية على البربر وأن الرسول صلى الله عليه و سلم اعتبر جميع الأمم الغير مسلمة مثل المجوس[35]. ومن جهته أوضح أبو عبيد القاسم بن سلاّم البغدادي (ت 838/224) مؤلف كتاب الأموال أن الخليفة عثمان بن عفان قد قبل جمع الجزية التي دفعها البربر على الرغم من أن هؤلاء كانوا وثنيين و ليس مجوسا مثل الفرس[36].

- على الرغم من كون الخوارج والإباضية أعداء المذهب المالكي في بلاد المغرب إلا أن السلطات المالكية في بلاد المغرب لم تعتبرهم أبدا كفارا. و في الفترة التي أفتى فيها الداودي بهذه النازلة، يبدو من خلال قراءة المصادر عدم بقاء فرق خارجية أخرى ماعدا الجماعات الإباضية. ثم إن مصير الإباضية قد حدّده أحد فقهاء المذهب المالكي التابع لبلاط القيروان والحكم السلالاتي الأغلبي، فقد أقرّ الفقيه سحنون مؤسس المدرسة المالكية في القيروان القرار السياسي الذي اتخذه بني أمية والمالكية المشرقية فيما يتعلق بفرق الخوارج والتي من ضمنها الإباضية.

حثّ هذا القرار على دعوة الخوارج إلى العدول عن مذهبهم أو تصفيتهم. ثم إن ابن أبي زيد القيرواني قد أجاز قتال الخوارج الذين يضايقون أهل السنة. وقد وجب انتظار النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي حتى يصل الفقهاء المالكية الى تعميق معارفهم عن الأصول العقدية للإباضية الوهبية. ويُفسّر هذا التطور بالتغلغل المالكي في مناطق نفوذ الإباضية. وقد سمح الفقيه المالكي السيوري للإباضية بإقامة الصلاة في مساجدهم وهذا يعد تطورا في الموقف بالنظر إلى سابقيه، لكن هذا الفقيه لم يختلف عن مالكية القيروان بما أنه لم يجز زواج السنة من الإباضية . ثم إن مالكية المغرب أقرت بوجود الإباضية الوهبية وهذا ما يقودنا إلى التأكيد على أن الكفار المذكورين في النازلة ليسوا من الإباضية [37].

- إن الديانة التي مارستها جماعة سُسوالة تتطابق مع توفيقية دينية متأثرة بالإسلام والطقوس البربرية. وفي الواقع فالداودي قد أفتى بنفس الحكم في مسألة برغواطة و سُسوالة، و قد أمر الفقيه بعدم قبول الجزية التي تدفعها برغواطة و سُسوالة لأن الجزية لا تخص إلا أهل

الكتاب والمجوس. ونخلص إلى أن ديانة سُسوالة تشبه ديانة برغواطة، والتي وجب تخصيص بعض الأسطر لها بما أنها أكثر شيوعا من نظيرتها السُسوالية[38].

7–ديانة برغواطة:

كانت برغواطة عبارة عن اتحاد قبلي بربري الذي أسس مملكة في تامسنا على طول الشريط الساحلي الأطلسي للمغرب الحالي، مابين سلا وأزمور ضمنه الدار البيضاء. ولقد تأسست هذه المملكة بعد فشل الثورات الشعبية الخارجية ضد ولاة ورموز السلطة الأموية في القيروان والمغرب في القرن الثامن. و قد دامت إلى غاية مجيئ الموحدين في القرن الثاني عشر الميلادي.

إذا كان كتاب صورة الأرض لابن حوقل هو الأكثر قدما من بين الكتب التي تحدثت عن تاريخ برغواطة، فإن البكري يعتبر المصدر الرئيسي الذي يتحدث عنهم. والمصادر الأخرى مثل البيان لابن عذاري المراكشي، و الأنيس المطرب لابن أبي زرع الفاسي والعبر لابن خلدون متأخرة وعلاوة عن ذلك فهي متوافقة. وقد روي تاريخ برغواطة من ثلاث طرق مختلفة : الأولى رسمية ونقلها البكري و الذي أعاد نسخ النصوص البرغواطية نفسها. والثانية مشرقية ونقلها ابن حوقل . والثانية مغربية بحتة سردها ابن عذاري المراكشي وابن أبي زرع الفاسي وابن خلدون. و عليه لا يوجد أي نص كتبه أحد البرغواطيين أو أحد المشايعين لهذه الديانة بما أن جميع المعلومات التي نقلت إلينا تتأثر بنزعة ناقليها، وحتى البكري الذي يستند إلى نصوص حررها برغواطيين أنفسهم[39].

يمتزج التاريخ السياسي لبرغواطة مع تاريخ مملكة بني طريف التي سيطروا عليها. ولقد أسس هذه المملكة طريف عقب فشل الثورات الخارجية الصفرية بقيادة ميسرة المطغري ضد الوالي الأموي على القيروان ما بين 122-740/124-742. وكان أن لجأ طريف إلى منطقة تامسنا أين أسس مملكة مستقلة عن الحكم العربي وقد تعاقب على مملكته خلفاءه إلى غاية ظهور المرابطين. ومحمد الطالبي يؤكد على أن البرغواطيين يُعرفون بعقيدتهم أكثر من انتمائهم القبلي بالنظر لعدد القبائل التي ضمته هذه المملكة[40].

لقد تأسست بدعة برغواطة في الوهلة الأولى على يد صالح بن طريف ابن مؤسس المملكة. و قد ادعى النبوة بعد تلقيه الوحي القرآني بالبربرية. و يذكر ابن حوقل الذي جمع هذه المعلومات في 340/951-2 أن صالح بن طريف استند في ادعاءه النبوة إلى آيات قرآنية. و هذا الرجل هو صالح المؤمنين الذي ذكره الله في القرآن .[41] وكان أن مرر صالح بن طريف ملته إلى ابنه إلياس (177-227/793-842) وإلى غاية عهد القائد البرغواطي الثالث بقيت البدعة البرغواطية محصورة في الأسرة الحاكمة خوفا وحذرا. والحال أن التعليم العام لهذه الديانة البرغواطية يكون قد بدأ حسب مصادرنا في عهد القائد الرابع أي يونس بن إلياس (227-271هـ/842-884م).[42] وإليكم ما قاله المبعوث الرسمي للبرغواطيين في بلاط قرطبة عام 352/963، والذي نقل خطابه البكري: "فتولى الأمر بعد أبيه فأظهر ديانتهم ودعا إليها وقتل من لم يدخل فيها حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة، حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إيّاه". و بالمختصر فإن المصادر تجمع على أن يونس فرض ديانته بالقوة والنار[43].

و فيما يخص الخطوط العريضة لهذه الديانة فالمصادر توضح على أن صالح و يونس و أبي جُفير قد ادعوا النبوة، وحسب ابن حوقل فإن الديانة البرغواطية تتمثل بهذه الطريقة الموالية: إن نبوة صالح بن طريف قد تكون مسجلة في قرآن بربري، والمؤسس يكون قد أجبر البربر على صيام شعبان بدلا عن رمضان. وابن عذاري المراكشي يضيف بأن هذه الديانة تفرض خمس صلوات بالنهار و خمس صلوات بالليل والعديد منها دون سجود، والنحر يكون في الحادي عشر من محرم، و قد تم تعديل الوضوء الإسلامي ....إلخ. كان قرآن برغواطة بالبربرية و يتكون من ثمانين سورة يبدأ بسورة أيوب و ينتهي بسورة يونس. ويُذكر أن القسم الأكبر من سوره تحمل أسماء الرسل الذي ذكرهم القرآن الإسلامي. و أيضا تبدو الديانة البرغواطية كخليط توافقي من الشعائر والطقوس و الممارسات المتأثرة خاصة بالإسلام. ومحمد الطالبي يؤكد " بأن هذه الديانة كانت ثمرة التثاقف في خدمة الحب الخاص النقي والحقيقي الوطني المجروح ". ولقد بحث البرغواطيون عن بربرة الإسلام من أجل إثبات هويتهم، لكن رد الفعل هذا لم يسلم من تأثير الإسلام .[44]

8- من برغواطة إلى سُسوالة:

لقد ذكر المؤلف المجهول لكتاب الجمان الشخصيات البربرية الثلاث التي ادعت النبوة و هي صالح بن طريف، وعاصم بن جميل ،وحميم بن منا الله، أنبياء في برغواطة وغمارة. في المقابل لا توجد أية اشارة مباشرة تتعلق بنبي محتمل مؤسس لسُسوالة، لكن المقارنة ما بين هذه المجموعات المختلفة تسمح لنا طرح بعض الفرضيات[45].

لقد تأسست الديانة البرغواطية بعد فشل الثورات الخارجية ضد الولاة العرب في القيروان، ولقد كان رد فعل أحد القادة الخوارج هو اللجوء الى تامسنا وتأسيس مملكة بربرية خالصة. والحال أن المصادر الفاطمية التي تروي تفاصيل عن المنطقة التي لجأ إليها المتمرد الإباضي المشهور " أبو يزيد" المكنى بصاحب الحمار لا تشير البتة إلى سُسوالة أو أية جماعة خارجية أخرى مهما كانت. لكن هذه المصادر التي تروي السردية الرسمية الفاطمية تفصل في القبائل الموالية لأبي يزيد وتقدح فيها بكلمات مثل الدجالون والملاعين ..إلخ. وعليه يمكن أن نفترض أن العديد من هذه القبائل اتبعت شكلا تصوريا خاصا بها عن الإسلام بعد النهاية المأساوية للقائد أبي يزيد وأتباعه في قلعة كيانة في 947/336.[46] إن هذا التحول يمكن ارجاعه إلى نتائج الخسارة التي تكبدتها الثورة الخارجية البربرية ضد حكم عربي شيعي ستند على بربر كتامة والعبيد الصقالبة. وسُسوالة المستقرون حول قلعة كيانة شاركوا من دون شك في تمرد أبي يزيد ابن شداد الصنهاجي (ت بعد 1204/600) مؤلف كتاب اخباري يعنى بتاريخ المغرب المعنون ب الجمع والبيان في اخبار المغرب والقيروان يروي في مقتطف نقله عنه النويري واقعة مفادها أن قائد مبتدعة غمارة تمّ إعدامه في أشير في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. و حسب هذا المؤلف فلقد هاجم زيري بن مناد قائد صنهاجة في أشير غمارة في المغرب الاقصى عندما ادعى قائد هذه القبيلة النبوة، وكان أن قتل مناد بن زيري العديد من أفراد هذه القبيلة مصطحبا معه قائدها الذي أعدمه في أشير. وإنه لمن المفيد ذكر النقاش الذي جرى بين نبي غمارة وفقهاء أشير :

– الفقهاء : إن كنت نبيا حقا ماهي علامات النبوة ؟

نبي غمارة : إسمي موجود في القرآن .

الفقهاء : ما هو إسمك ؟

نبي غمارة ؟ اسمي حميم، واسم أبي جاء من الله، و في القرآن حميم هو نزول الكتاب من عند الله القوي الحكيم ؟ [47].

و الحال أن المغرب الأوسط لم يعرف إلى هذه الفترة حركة انشقاق كبيرة على منوال سُسوالة زمن ذهاب صاحب أشير إلى المغرب الأقصى من أجل وأد بدعة غمارة. وبما أن سُسوالة يقطنون في منطقة انتشار كتامة وعجيسة على بعد ما يربو عن ستين كلم من أشير فإن بداية بدعة صنهاجة–سُسوالة لا يمكن أن تكون سابقة لمعركة كيانة. لكن ما يمكن ملاحظته هو أن الأفكار البدعية دخلت المغرب الأوسط في هذه الفترة بعد أن تم جلب مدعى نبوة غمارة إلى أشير متحدثا أمام السكان[48].

المصنّف الاسماعيلي عماد الدين ادريس أورد المعلومة التالية :" وصل جفنة الخادم الى قلعة الحجارة بجيش قوامه كتامة يوم الخميس السابع رمضان (335هـ/02 أفريل 947م)، ووجد من بينهم ثائر و الذي تمرد في مسالتة في بلاد كتامة . و لقد ادعى هذا الثائر النبوة وأحل المحرمات ". والحال أن مجال مسالتة بالقرب من ميلة في بلاد القبائل الصغرى وهو مالا يتطابق مع كتامة جبال قلعة بني حماد. لكن هذه الإشارة تظهر جليا وجود محاولات بدعية في المغرب الأوسط قبل عهد سُسوالة، حتى و إن وجب علينا أن نكون يقظين إزاء المصادر الفاطمية بما أن ذلك يندرج ضمن العلاقات بين السلطة الفاطمية والمعارضة، لأنها تتميز بالدعاية الإسماعلية[49].

لقد حُكم على سُسوالة بنفس الطريقة التي حُكم بها على برغواطة في الفقه المالكي. وفي الواقع فإن الداودي لم يكن موافقا على دفع كلا الجماعتين " سُسوالة وبرغواطة " الجزية . وقد أمر بسلبهم وبيعهم ومطاردتهم عندما أصر هذا الفقيه بأن هاتين الجماعتين لم تكونا لا مجوسيتين ولا يهوديتين ولا مسيحيتين بما أن هؤلاء وجب عليهم دفع الجزية. وكلمة كفار التي أُطلقت على سُسوالة وبرغواطة تظهر – بالنسبة للفقهاء– أن هؤلاء "المبتدعة" قد اعتبروا

خارجين عن الملة تماما، وذلك من دون شك بسبب رفض هذه الأشكال الإسلامو–بربرية من التوافق الديني[50].

إن النص الفقهي الوارد في النازلة والمطبق على برغواطة وسُسوالة ليس بجديد. فلقد رأينا بأن قائد صنهاجة المغرب الأوسط كيف أباد أهل غمارة .عادما لقائدها بأوامر فقهاء أشير. ثم إن ابن حوقل وهو أول من كتب عن برغواطة وصف في مصنفه الجغرافي" رباط سلا" الوقع في منطقة حدودية أين كان يهاجم وينهب المسلمون برغواطة. وأما الجديد في نازلة الفقيه المغربي الداودي هو الترخيص بالبيع والشراء وإبادة هاتين الجماعتين المبتدعتين. بيد أن تكملة إجابة الداودي تقودنا إلى التفريق بين المصير الذي سيقت له سُسوالة والمصير الذي سيقت له برغواطة . ففي البداية ميّز الداودي بين رجال سُسوالة : الذين ارتدوا طواعية والذين ورثوا الدين عن آبائهم . فالبنسبة للأوائل فقد أمر الفقيه بقتلهم، وفي الحالة الثانية فقد طبق عليهم نفس النص الخاص ببرغواطة : فقد سمح بسلبهم ونهبهم واسترقاقهم ناهيا عن فرض الجزية عليهم. ثم إنه أضاف فيما يخص الفئة الثانية من سُسوالة حكم مفاده تعقبهم. والفرق الثاني بين برغواطة وسُسوالة أن الأولى أقدم من الثانية. والحال أن الداودي عندما فرق بين فئتين من سُسوالة حدد بدقة الرأي الخاص بكل فئة. إن هذا التفريق يدعم ويقوي فرضيتنا حول أصل البدعة التي وقعت فيها هذه الجماعة الصنهاجية، والتي ظهرت بعد النهاية المأساوية للثورة الخارجية بقيادة أبي يزيد النكاري في 336هـ/947م. وفي الأخير أمر الداودي بقتل أفراد سُسوالة الذين يخفون ديانتهم بممارستها خفية في بيوتهم[51].

9– اللغة العربية و بربر صنهاجة :

توجد مسألة أخرى طرحتها هذه النازلة ألا وهي مسألة اللغة. نقرأ في الجزء الأول منها بأن هذه الجماعة أسلافها ينحدرون من العرب وهو ما يفنده الداودي الذي يقر بالهوية البربرية لهذه الجماعة. لكن المشكلة ليست هنا، بل في اللغة العربية المستعملة من قبل هذه الجماعة. وبما أن هؤلاء يدعون أنهم عرب فمن الواجب عليهم التحدث بلغة العرب. وهل إنتشرت اللغة العربية في قبائل صنهاجة قبل التوغل الهلالي؟

إن ما نملكه من معلومات حاليا لا يسمح لنا بالإجابة الشافية عن هذه المسألة. وقدكتب المقدسي عند وصفه لمغرب زمانه: " إن لغة أهل المغرب هي العربية لكن لغة عربية أقل ووضوحا و تختلف عن اللسان الذي ذكر استخدامه في المقاطعات الأخرى ". إن هذه المعلومة جاءت من رحالة مشرقي الذي يعرف المغرب قليلا وخاصة مناطقه الجبلية. حيث يقول أن المغاربة يتحدثون لغة عربية تختلف عن العربية المشرقية، أي لغة جهوية ممزوجة بكلمات و تعابير محلية . ويؤكد محمد الطالبي المتخصص في المغرب الوسيط وجود العديد من اللغات، بربرية بالأساس والتي إنتشرت في جميع أرجاء المغرب بالخصوص الأرياف والجبال[52]. ثم إن المصادر البربرية تقدم لنا معلومات أكثر دقة، فهي تظهر أن اللغة العربية ومختلف اللغات البربرية كانت منتشرة، لكن توجد ملاحظتين تخص صنهاجة تستحق التوضيح هنا.

خصص أبو العباس الدرجيني (ت 1271/670) -مؤرخ السير والتراجم الإباضي وهو من قلعة درجين- ترجمة لأبي سهل الفارسي آخر ترجمان الرستميين بتيهرت في القرن التاسع الميلادي، حيث ذكر فيها أنه عاش في جزاير بني مزغنة[53] و هي مدينة تقع في بلاد صنهاجة أين نظم أشعارا باللغة البربرية. و إنه لمن الصعب التدقيق أن هاته اللغة البربرية أو تلك كانت مستخدمة في بلاد صنهاجة، لكن من الممكن التخمين أن اللغة العربية كانت أقل انتشارا من اللغات البربرية في هذه المنطقة الصنهاجية في هذه الفترة [54].

وأبو الربيع الوسياني مؤرخ السير الإباضي الكبير من القرن السابع الهجري/الثاني عشر الميلادي أورد نقاشا بين العالم الإباضي عبد السلام بن منظور و تاجر صنهاجي، والذي نفهم من خلاله أن العالم الإباضي قد اكتشف بأن التاجر صنهاجيُ لأنه استخدم كلمة " در "و التي يقابلها بالعربية " أعطى" . و يبدو من هذا المقتطف أن اللغة المستخدمة بين التاجرين كانت العربية وأن اللغة العربية الخاصة بالتاجر الصنهاجي كانت ممزوجة بكلمات و عبارات تختلف عن اللغات البربرية الأخرى[55] .

لقد كانت المسألة اللغوية موضوع العديد من الدراسات التاريخية لكنها لم تصل إلى إجابات شافية. وفيما يخص الفترة التي تهمنا فإن الإشارات التي أوردناها لا يمكن أن تحل هذه المسألة بشكل نهائي. والحال أن الأصل العربي المدعى من طرف سُسوالة وجب أن يرافق

باستخدام اللغة العربية، لكن في تلك الفترة ظهرت صنهاجة في الحياة السياسية كمولى للفاطميين، وقد أعطي الأصل العربي لصنهاجة مثلما أعطي لكتامة. إننا نجهل أصول هذا العزو لكن النسابة العربي ابن الكلبي (ت 819/204) كان هو الأول من قدم هذه النظرية والتي أخذها عنه من أتى بعده من النسابة العرب والبربر وطورها الفاطميون والزيريون[56].

تخمينات عن حول مصير سسوالة :

إن المنطقة التي قطنتها سسوالة كانت تظم قبل تأسيس قلعة بني حماد ثلاثة قلاع وهي: قلعة كيانة وقلعة الحجارة وقلعة شاكر. إن الأولى هي الأكثر أهمية والتي خرّبها الجيش الفاطمي أثناء المعركة الأخيرة ضد الخوارج. وبداية من 398هـ/1007م عرفت هذه المنطقة الجبلية بناء مركز حضري كبير : إنها قلعة بني حماد والتي أصبحت فيما بعد العاصمة السياسية للحماديين وقطب اقتصادي لبلاد المغرب. إن المنطقة الجبلية لكتامة وعجيسة عرفت إذا حضور حمادي قوي وأيضا تأثير ثقافي عربي – إسلامي الذي أخذ في التعمق[57].

لقد تجاهل الاخباريون تماما تواجد ومصير سُسوالة . و هذه الجماعة لم تذكر قط بعد تأسيس قلعة بني حماد. وفيما يتعلق بعجيسة يذكر ابن خلدون أن هؤلاء البربر كانوا الوحيدين الذين نفاهم الحماديون بقيادة حماد بن بلكين، وما يقوي تأويلنا : لقد كانوا كلهم مثل سُسوالة أي جماعة منشقة وعليه جماعة خطيرة. والسؤال المطروح هو : هل اختفت جماعة سُسوالة في العهد الحمادي؟ يمكننا أن نفترض ذلك، لكن فرضية كهذه تعزوها هنا الأدلة الدامغة لأن المصادر صمتت عن مبتدعة المغرب الأوسط هؤلاء[58].

الخاتمة :

في نهاية هذه الدراسة ماهي النتائج المستقاة من استغلال النازلة التي أفتى بها الداودي؟ في البداية هو التكلم عن جماعة بربرية سكنت منطقة جبلية تقع شمال قلعة بني حماد. إنها سُسوالة وهي بطن صنهاجي تجاهلته كتب الأخبار، وكتب التراجم والسير، وكتب الجغرافية الوصفية. و هذا ما يفسر بأن منطقة كتامة وعجيسة تقدم مثالا مميزا عن منطقة لم يتم ادماجها بشكل جيد في المجال الإسلامي المغربي والتي فلتت من الحكم العربي المركزي قبل تأسيس قلعة بني حماد. و يمكننا أن نفترض وجود جماعات بربرية أخرى مماثلة في المغرب الأوسط لكن

سكتت عنها المصادر التاريخية بسبب "بدعتها". وهذه الجماعات التي كان اندماجها في المجتمع الإسلامي ضعيفا طرح مشكلا فقهيا بالنسبة للفقهاء المالكية. فالداودي الذي يعد أحد المراجع المالكية في بلاد المغرب التي لا جدال فيها لا يعتبر سُسوالة مثل اليهود ولا مثل النصارى أو المجوس ، لكن ككفار. إن حالة سُسوالة تندرج ضمن جدلية حادة ومستمرة ما بين "القوى العليا" و" القوى السفلى" واللتان تتعارضان في الغاية و القصد حسب المخطط الهيكلي الذي اقترحه محمد أركون [59].

تتشكل " القوى العليا " عن طريق التضامن الوظيفي بين الدولة، وكتابات المؤرخين والفقهاء، والثقافة واللغة والدين المرتبط بالدولة بفضل موظفي المقدس المعينين من طرف الحكم. هذه القوى الأربعة تسيطر على " القوى السفلى" وهي : المجتمعات المجزأة، والمشافهة والثقافة و اللهجات الشعبية، والبدع ، وهي نفسها محكوم عليها بالاندثار عن طريق استيعابها في الوسط السوسيو – ثقافي الرسمي، وتصبح بقايا ومخلفات التي لا تتوقف عن مقاومة الفعل الرسمي للحكم المركزي . إن هذا الإطار من التحليل ينطبق تماما على مجتمع المغرب الأوسط في نهاية القرن العاشر الميلادي. إن التعارض المباشر بين "المذهب الرسمي" الذي يمثله الفقهاء المالكية و"بدع" سُسوالة يندرج ضمن جدلية حادة بين " القوى العليا" و "القوى السفلى". ساند الحكم السلالاتي المستقر بأشير ثم بقلعة بني حماد أصحاب المعرفة العقدية في حين أن حركة "مقاومة" سُسوالة كانت مدعومة بالثقافة شعبية والمشافهة. لكن هذه الحركة السفلية لم تكن بمعزل عن التأثير الثقافي للقوي العليا والذي انتهى باحتضان جزء من ثقافتها. إن حركة سُسوالة انتهت بعد تأسيس قلعة بني حماد في المنطقة التي قطنتها سُسوالة لأن الحكم المركزي أبان عن تضامن مستمر مع قوة " الفقهاء" ضد " البدع".

الهوامش:

[1]كلود كاهن: مقدمة لتاريخ العالم الاسلامي في القرون الوسطى بين القرنين السابع و الخامس عشر الميلاديين، باريس، 1982، ص 75.

[2] المرجع نفسه: ص 74

[3]المرجع نفسه: ص 75.

[4]القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أبو محمود، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1967، ص 623.

[5]ابن فرحون المالكي: الدباغ المذهب في معرفة أعيان المذهب، تح: أبو أحمدي أبو النور، دار التراث العربي، مصر، 1972، ص 165-166.

[6]القاضي عياض: المصدر السابق، ص 623؛ ابن فرحون المالكي: المصدر السابق، ص 166.

[7]ابن فرحون المالكي: المصدر نفسه، ص 166.

[8]أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية و الأندلس و المغرب مج1، 2، 3، تح: محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت،1983، ص 7، 382، 421.

[9]ليفي-بروفنسال: النظام العقاري في صقلية خلال العصور الوسطى، مج2، باريس، 1962، ص 401-444.

[10]حوليات الجامعة التونسية، مج4، 1967، ص 83-100.

[11]تم اصدار كتاب الأموال من طرف الأستاذ سليم شحادة، رباط دار احياء التراث المغربي، سنة 1986.

[12] حوليات الجامعة التونسية، مج4، ص 100.

[13]النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مج24، تح: ناصر الأهواني، دار الحياء المصرية، القاهرة، 1983، ص 162.

[14]ابن خلدون: كتاب العبر، ج6، مؤسسة الجمل للنشر، بيروت، ص 461.

[15]المصدر نفسه: ص 461.

[16]المصدر نفسه: ص 153.

[17]المصدر نفسه: ص 152-153، 227.

[18]ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج1، دار صادر، بيروت، 1977، ص 170.

[19]نذكر على سبيل المثال ابن حوقل، صورة الأرض، ج2، دار صادر، بيروت، 1938، ص 89؛ مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في اعاجيب الأمصار (وصف مكة والمدينة..)، تر: سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، كلية الآداب جامعة الاسكندرية، 1958، ص 170.

[20]البكري: المغرب في ذكر بلاد الإفريقية ، تحيق دو سلان ، طبعة فرانكفورت، المعهد العلمي العربي الاسلامي، 1993، ص 60.

[21]مجهول: الاستبصار، النص العربي ،ص 170/ النص المترجم، ص 105.

[22]الإدريسي: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1 تر: هنري دوزي، دار لاييد، 1968، ص 99.

[23]حول مدينة أشير: يكتفى بقراءة " شابسيار " منطقة الكاف لخضر وآثاره " المجلة الإفريقية، ع 13، 1869، ص 116-121.

[24]ابن حزم الأندلسي: جمهرة النسب العربي، تح: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1948، ص 461.

[25]ابن خلدون: المصدر السابق، ص 145.

[26]ابن حماد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح: أحمد جغلول البدوي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص 42-43.

[27] عماد الدين إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار. تح: فيصل دشراوي، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس،1979، ص 52، 53.

[28]ابن الحماد الصنهاجي: المصدر السابق، ص 43.

[29] القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، تح: وليد القاضي، دار الأساقفة، بيروت، 1970، ص 72، 74، 94-95.

[30] ابن حوقل: المصدر السابق، ص 86.

[31] الإدريسي: المصدر السابق، ص 253، 296.

[32] ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تح: ج س كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ص 220.

[33] ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 171، ج2، ص 43.

[34] القاضي النعمان: المصدر السابق، ص 96.

[35] ابن سحنون: المدونة الكبرى، ج3، مكتبة السعادة، القاهرة، 1323هـ، ص 46.

[36] أبو عبيد: كتاب الأموال، تح: محمد حارس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص 39.

[37] ابن سحنون: المصدر السابق، ج3، ص 47-48.

[38] R . le tourneau, l’occident musulman du VII E al fin du XV E Siècle ; dans annales de l’institut d’études orientales, XVI, 1985 , p151.

[39] ابن سحنون: المصدر السابق، ص 49.

[40] المصدر نفسه.

[41] محمد الطالبي:" استقلال المغرب العربي"، ج3، مقال منشور في كتاب التاريخ العام لإفريقيا، باريس، منشورات اليونسكو، 1990، ص 217-218.

[42] المرجع نفسه، ص 220.

[43] البكري: المصدر السابق، ص 259.

[44] المصدر نفسه.

[45]كتاب الجمان، مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم 1547، ص 144.

[46]المصدر نفسه، ص 145.

[47]النويري: المصدر السابق، ص 162، 163.

[48]المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: دي جيويج، طبعة فرانكفورت، معهد الاسلامي العربي العلمي، 1992، ص 317.

[49]عماد الدين ادريس: المرجع السابق، ص 416

[50]المقديسي: المصدر السابق، ص 243.

[51]ابن حوقل: المصدر السابق، ص 82.

[52] محمد الطالبي:" استقلال المغرب العربي"، ج3، مقال منشور في كتاب التاريخ العام لإفريقيا، باريس، منشورات اليونسكو، 1990، ص 296.

[53]قبيلة صنهاجية التي استوطنت مدينة الجزائر وأعطت اسمها لها خلال العصر الوسيط.

[54]الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، تح: ابراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسطينة، الجزائر، 1974، ص352.

[55]أبو الربيع الوسياني: سير المشايخ بالمغرب، تح: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1985، ص27.

[56] المصدر نفسه: ص 28.

[57] النويري: المصدر السابق، ص 163.

[58] المصدر نفسه.

[59]محمد أركون:"تاريخية الفكر العربي الاسلامي"، في كتاب الدولة في المغرب العربي ،قراءة إيف لاكوست،باريس، 1991، ص 48-50.

ASJP Algerian Scientific Journal Platform

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820

المجلد: 02، العدد: 01	رجب 1444هـ/فيفري 2023م	الصفحات: 88-123

سياسة التنصير للأسرة السليمانية على مسلمي الحبشة
(من نهاية القرن 9هـ/15م إلى بداية القرن 10هـ/16م).

The Christianization policy of the Solomon family on the Muslims of Abyssinia
(From the end of the 9 AH / 15th century AD to the beginning of the 10 AH / 16th century AD).

غندوز عائشة *
جامعة الجيلالي بونعامة –خميس مليانة (الجزائر)
guendouz.aicha@univ-dbkm.dz

نور الدين شعبان
جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)
chabani.noureddine@univ-dbkm.dz

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال 2022/09/08 تاريخ القبول 2022/11/19 الكلمات المفتاحية: التنصير؛ ممالك الطراز الإسلامي ؛ الحبشة ؛ دولة المماليك ، الأسرة السليمانية ، البرتغال.	ظهرت في بلاد الحبشة العديد من الممالك المسيحية التي أثرت على التركيبة السكانية للمجتمع، وبذلك نهدف من خلال هذه الورقة البحثية إلى معالجة موضوع غاية في الأهمية ؛ فيما يخص الوجود الإسلامي في بلاد الحبشة وأثر القوى المسيحية السليمانية في اضطهاده والنكد به؛ الذي يمكن اعتباره ا نوع آخر من استمرار الحروب الصليبية في منطقة القرن الإفريقي، مبرزين في ذلك مظاهر السياسة التنصيرية على ممالك الزيلع الإسلامي، ودور الديانة المسيحية في ازدهار المجتمع المسيحي الحبشي من ناحية تطور المعارف والمعتقدات التي جسدتها، حركة الترجمة والتأليف و حتى النقش والعمارة الدينية، إلاّ أنّ ذلك كان سلبا على الجالية الإسلامية المتواجدة في الحبشة لذلك قامت هذه الأخيرة كالرّدة فعل بإعلان الجهاد الإسلامي ضد القوى المسيحية بزعامة مملكتي أوفات وعدل؛ وتقف في صفوفها باقي الإمارات المسلمة.
Article info	Abstract:

* المؤلف المرسل

Several Christian kingdoms appeared in Abyssinia, influencing the society's demographics. Therefore, we aim through this research to address a critical issue, regarding the Islamic presence in Abyssinia and the impact of Christian Solomonic forces in its persecution and slander. Theses acts can be considered as a continuation of the Crusades in the Horn of Africa. We will also be highlighting the manifestations of the Christianizing policy on the Islamic kingdoms of Zeila, as well as the role of Christianity in the prosperity of the Abyssinian Christian community in terms of knowledge development and beliefs embodied by the movement of translation, authorship, inscription, and religious architecture. However, because of the negative impact it had on the Muslim diaspora present in Abyssinia, the, the latter declared Islamic jihad against the Christian forces led by the kingdoms. of Ifat and Adal, joined by the rest of the Muslim Emirates.	**Received:** 2022/09/08 **Accepted:** 2022/11/19 **Key words:** Christianization; Islamic kingdoms, Abyssinia, The Mamluk Sultanate, Solomonic Dynasty, Portugal.

1. مقدمة:

تعتبر فترات ما قبل الإسلام إحدى الحلقات المهمة في منطقة شرق إفريقيا ككل؛ حيث تواجدت بها ممالك إفريقية أضحت نماذج فريدة من حيث التطور خاصة في مجال الصناعة والتعدين؛ في وقت لم تكن أوروبا تعرف من ذلك شيئاً، ومن نماذج هذه الممالك مملكة "أكسوم" التي عرفت المسيحية خلال القرن الرابع للميلاد، والتي برزت فيها الأسرة الزاغوية التي لم توفيها الكتابة التاريخية حقها، إذ يقتصر ما نعرفه عنها سوى ما تناثر بين طيات الكتب وهو لا يشفي غليل القارئ الباحث.

وبالمقابل لم تكن هضبة الحبشة (موطن مملكة أكسوم) بعيدة عن المراكز الحضارية الإسلامية، التي تسربت سلميا منذ القرن الأول الهجري(7م)، ما أسفر عن هجرات عديد من القبائل العربية نحو شرق إفريقيا لتجد مرتعاً خصبا يروي ظمأها ونشر دين الرسالة المحمدية. رغم أنها في غالب الأحيان كانت بسبب اضطهاد الدولة الإسلامية لهم في المشرق الإسلامي، بسبب خروجهم عن طاعة، أو رغبة في العيش في أرض التجارة ومصادر المياه والكنوز، لتتمكن هذه الهجرات من إقامة إمارات إسلامية في الحبشة ومنطقة الطراز الإسلامي وسط مجتمع مسيحي يحيط بها من كل الجهات. لتجد هذه الإمارات الإسلامية في طريقها أسرة مسيحية

متعصبة، وهي الأسرة السليمانية، التي تستند إلى أسطورة انتمائها إلى سلالة النبي سليمان عليه السلام، و التي نصبت نفسها حاملة مبدأ محاربة الإسلام في بلاد الحبشة.

انطلاقا من هذا الوضع، أوسمنا ورقتنا البحثية هذه بعنوان" سياسة التنصير للأسرة السليمانية على مسلمي الحبشة نهاية القرن 9ه/15م وبداية القرن 10ه/16م"، وذلك لهدفين رئيسيين أولهما إبراز الدور الحضاري لهذه الممالك في نشر الإسلام وحضاراته في هذه الجهة؛ وثانيهما توضيح ما تلقته هذه الممالك من اضطهاد جراء السياسة التنصيرية الزجرّية، التي تعددت طرقها وأساليبها وحتى أهدافها الدخيلة ضد الإسلام والمسلمين في كامل العالم الإسلامي، وعلى هذا عالجنا الموضوع انطلاقا من تساؤل عام حول مظاهر سيّاسة التنصير للأسرة السليمانية المسيحية على المجتمع الإسلامي الحبشي ومدى تأثير ذلك على الوجود الإسلامي.

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية العامة أسئلة فرعية من أجل تفكيك الموضوع إلى عناصر جزئية وهي كالتالي:

كيف استطاع المهاجرين العرب من توطيد مراكز نفوذهم في الهضبة الحبشية و تشيد ممالك بجميع ترساناتها الحضارية ؟.

ماهي الآليات التي دعمت نفوذ الأسرة السليمانية لتولي الحكم وادعاء الشرعية النبوية ؟.

ماهي أساليب التنصير التي مورست ضد ممالك الطراز الإسلامي. وما دور البرتغال في تأجيج حدّة الحقد ضد الإسلام والمسلمين في الحبشة؟ كيف ساهمت النصرانية في ازدهار المجتمع الحبشي؟ وما سلبيات ذلك على دولة المماليك والجاليات الإسلامية في القرن الإفريقي وسودان وادي النيل ؟.متبعين المنهج التاريخي الإسترجاعي الذي يقوم على دراسة الوثيقة وتحليلها للوصول إلى النتائج المسطرة.

2.هجرات العرب إلى شرق إفريقيا:

1.2. صلة الحبشة بشبه الجزيرة العربية:

إن الصلة التي ربطت الحبشة بشبه الجزيرة العربية قديمة جدا منذ عصور ماقبل الإسلام؛ وتمثلت أهم معابرها التجارية عن طريق باب المندب، وشبه جزيرة سيناء، و سواحل المحيط الهندي التي مثلت نقاط تواصل مهمة بين المنطقتين، وكانت أهم سلعة في التبادل التجاري آنذاك "الرقيق الحبشي". ثم في العهد الإسلامي تسرب إليها الإسلام مثلما وصل إلى باقي الممالك المجاورة لها، من الهضبة الحبشية،[1] هذه الأخيرة التي تقع بين وادي أعالي النيل وسهول أرض الصومال حتى" أديسا أبابا" حيث توجد في هذه الهضبة موطن الشعب الحبشي،[2] لكن الجغرافي ابن حوقل خلال القرن الثالث الهجري(9م) ربط أراضي البجة المشهورة بأرض المعادن ببلاد الحبشة التي تحتوي هذه المعادن أيضا «...**بلاد الحبشة وأرض المعدن(يقصد العلاقي) مبسوطة لاجبل فيها**... »، ما يؤكد أن البحر لم يكن حاجزا يحول دون تواصل حضاري [3] .

كما تميزت منطقة القرن الإفريقي بالموانئ التي أثرت في اتصالها التجاري، منها سواكن، دهلك[4]، مصوع، أركيكو، زيلع[5] ، بربرة ، مقديشو، برافا، ماليندي، كما وصلت المنتجات الإفريقية عبر هذه الموانئ إلى غاية أوروبا[6]. ومن أشهرهم مصوع ودهلك بسبب اتصالهم بالبحر الأحمر.[7] ومما يعزز العلاقة بين القطرين كما ذكر الزهري هو «**وجود الذهب ببلاد الحبشة وأن أهل مصر يجلبون إليها ويدخلونها**»[8] وهو ما ساهم في تحول الكثير من الأحباش إلى الدين الإسلامي،[9]ولتوضيح الصورة نقول أن ميناء الزيلع يعد أهم طريق لممالك الطراز الإسلامي بمن فيها؛ مملكة إيفات الإسلامية التي تمتعت بازدهار حضاري خاصة خلال القرن1 العاشر الهجري(16م) لما غدت من أهم معابر الإسلام إلى شرق القارة الإفريقية [10].

أما فيما يخص التركيبة الاجتماعية لبلاد الحبشة فهناك إثنيات متعددة لعل منها لا للحصر: الأورومو والصوماليون، العفر، الأمهرا والتقراي[11].كما أن بلاد الحبشة تميزت بعدة

خصائص جعلتها محل انتقال للمؤثرات الحضارية من شبه الجزيرة العربية إلى سواحل شرق القارة الإفريقية حسب المقريزي[12].ولعل من ثمرات ذلك أنها أضحت تمد شرق إفريقيا بكيانات سياسية ومذهبية جديدة، مثل جماعة الزيدية[13] وهم من الشيعة الفارين من الدولة الأموية، ثم تبعتهم مجموعة أخرى بزعامة سبعة مهاجرين وتسمى هجرة الإخوة السبعة.[14]

وعلينا أن ننوه هنا بدور قبائل البجة في نشر الإسلام في المنطقة، لكن لابد أن نشير هنا أن قبائل البجة لم تكن مسلمة، وإنما دخلت للإسلام بالتدرّج عن طريق الهجرات الحجازية، كما أن موقعها الأصلي لم يكن بلاد الحبشة؛ وهذا ما يقودنا للاعتقاد أن بلاد الحبشة عرفت أيضا هجرات عربية من بلاد النوبة والصحراء الشرقية للسودان، لكننا نلاحظ تراجع هذا التأثير الحجازي بمعية قبائل البجة في مرحلة الغزو البرتغالي للساحل شرق إفريقيا، وهذا ما سنفصل فيه لاحقا.[15]

2.2 التعريف بممالك الطراز الإسلامي:

تحدثت كتب الرحلات والبلدان عن جغرافية بلاد الحبشة وفي ذلك يصور لنا الاصطخري من مؤرخي القرن الرابع الهجري (10م) قائلا:"... **وأما الحبشة على بحر القلزم، وهو بحر فارس، فينتهي حد لها إلى بلاد الزنج، وحد لها إلى البرية التي بين النوبة وبحر القلزم، وحدها إلى البجة والبرية التي لا تسلك**..."[16]، لا شك أن بعض القبائل المهاجرة إلى الحبشة تألقت وبدأت تترقى إلى مراكز إسلامية، ومع مرور الوقت تحولت إلى إمارات إلى ممالك إسلامية أطلق عليها البعض اسم إمارات أو سلطنات الزيلع الإسلامية[17]، هذه الممالك تمثل نماذج حقيقية للدول الإسلامية في الحبشة[18].

ولذلك يقتضي بنا الأمر إلى إيضاح البنية الدينية لهذه البلاد قبل تأسيس هذه الممالك؛ التي عرفت المسيحية منذ حقب زمنية قديمة إلى جانب بقاء الديانة الوثنية.[19]

وإذا حاولنا إعطاء تعريف لممالك الطراز الإسلامي انطلاقا من المصادر العربية المشرقية فإننا نجد القلقشندى يعرفها بقوله:«...**مملكة عظيمة جليلة المقدار متسعة الأرجاء فسيحة الجوانب، بها أقاليم كثيرة العدد مجهولة الأسماء غير مشهورة ولا معلومة ثم هم على قسمين القسم الأول البلاد النصرانية، وهي القسم الأوفر عددا الأوسع مجالا وهو الذي يملكه ملك أمحرا**... »، ويقصد هنا الدولة السليمانية[20]، أما ابن فضل الله العمري [21] فيخبرنا عن ممالك الطراز الإسلامي بأنها سبعة ممالك لسبعة ملوك هي أوفات ، دورا، أرابيني ، هدية ، شرخا ، بالي[22]، دارة[23] .

أعطت هذه الممالك للبلاد، صبغة إسلامية من خلال نشر الثقافة العربية الإسلامية وإقامة علاقات اجتماعية عن طريق المصاهرات مع بعضها البعض في بلاد الحبشة[24]، كما كان للتسامح والعدل المتصلين بالبساطة والمنطق السليم أكبر الأثر في إقبال الناس على اعتناق الإسلام[25]، أما عن طريقة الحكم فقد سادها نمط الحكم الوراثي باستثناء مملكة بالي التي تبنت فيما بعد حكم الشورى[26]، واتخذوا اللغة العربية لغة للحديث وقاموا بتأدية فريضة الحج[27]، حيث تحولت سلطنة أوفات الإسلامية باستحواذها على مناطق النفوذ وعلى حركة القوافل التجارية[28] إلى أقوى إمارة على باقي السلطنات مثل هرر.[29] أما بخصوص مشيخة بالي فقد تميزت بخصوبة أراضيها ووفرة المنتجات الزراعية فيها، وعموما تفاوتت هذه السلطانات كمًا وكيفًا من حيث النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية [30].

3.2 ظهور الأسرة السليمانية في الحبشة.

أ– الممالك المسيحية في الحبشة قبل السليمانيين .

بدأت العصور التاريخية في الحبشة قبل قيام مملكة أكسوم بعدة قرون، وقد شملت مملكة دعمت أجزاء كبيرة من مملكة الحبشة (شمال إثيوبيا حتى وسط إريتريا) والتي شكلت فيما

بعد قلب المملكة الأكسومية، حيث كان "أدوليس" ميناء المملكة المطل على خليج الزيلع[31]،أما مملكة أكسوم فقد بلغت عنفوان مجدها في عهد "الملك عيزانا"[32] الذي ترك مجموعة من المخطوطات باللغة الإغريقية تؤكد علاقاته مع جيرانه، لكننا لما نبحث عن مدلول هذه المخطوطات نجد شح في المصادر التي أرخت لهذه الحادثة التاريخية، ويمكن التنويه أيضا أن هذه المخطوطات تحتوي على معلومات غاية في الأهمية بخصوص عصر الملك " عيزانا" و مظاهر الإزدهار الحضاري الذي عرفته مملكة أكسوم في عهده، وفي هذه الفترة دخلت النصرانية[33] إليها على يد الشقيقين "فرومنتيوس" و"فرومونيوس"[34]، اشتهرت بانتشار اللغة الأمهرية، كما أصبحت اللغة الرسمية للرجال الدين القساوسة، والحكام وحتى الفئات الشعبية للمجتمع الحبشي المسيحي[35]، وبذلك تمثل اللغة الأمهرية لغة التعليم والإيمان عندهم.[36]

وجدير بالذكر إبراز وضع المجتمع الإسلامي المهاجر في بلاد الحبشة خلال عهد الملك الحبشي" أصحمه بن أبجر" النجاشي[37] الذي أحسن معاملتهم ورفض تسليمهم إلى قريش، وبقرية النجاشي بإقليم تقراي شيَّد أول مسجد في إفريقيا كأول أرض عرفت الإسلام، لكن نقول أن هذا سكتت عنه أغلب المصادر التاريخية عند تناول تاريخ العمارة الدينية في إفريقيا جنوب الصحراء. وبعد نهاية حكم المملكة صعدت إلى الحكم في المنطقة الأسرة الزاغوية خلال القرن السابع الهجري (13م)، أما الديانة المسيحية فقد استمرت طوال هذه الفترة ليشكل بطاريق الإسكندرية[38] المرجعية الدينية للحبشة[39]، بينما الأمر اللافت للانتباه هو عدم وجود كتابات وافية عن حكم هذه الأسرة المسيحية، ما جعل العديد من الكتاب والمؤرخين يسقطونها عند التعرض لدراسة تاريخ بلاد الحبشة، وبخصوص سقوطها وظهور الأسرة السليمانية التي تعتبر مجال دراستنا، فيمكن القول أنه كان لرجال الكنيسة دور في تثبيت حكم الملك الجديد"يكونو أملاك" لهذه الأسرة[40] .

ب – التعريف بالأسرة السليمانية669هـ/1270م وأهم ملوكها .أكدت جميع المصادر التاريخية التي تعرضت لتاريخ الأسرة السليمانية[41] على أن الأحباش أعطوا أهمية كبرى لقصة سيدنا سليمان مع بلقيس ويجعلون منها أساسا هاما في تاريخ دولتهم، حتى أنهم أخذوا ينقبون في أسفار العهد القديم والعهد الجديد، ومحاولة إثبات أن لنبي سليمان والملكة بلقيس ولدا اسمه مينيليك[42]، وأن الملك سليمان قال له أنت ابن داوود، وأجلسه على العرش وسماه منيليك ودقت له الطبول وقيل هذا داوود بن سليمان بن داوود[43]. وقيل أيضا أن الملك سليمان أعطى للملكة بلقيس خاتما قائلا:« إذا كان لديك ابن أعطه إياه وأرسليه لي»، وغادرت الملكة وأنجبت ولدا سمته منيليك وأعطته خاتما وأرسلته مع حاشية كبيرة، وهكذا مسح الملك سليمان لمنيليك بالزيت المقدس وأطلق عليه اسم داوود[44]، قال الله تعالى: وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠[45]؛ لكننا لما نعود للقرآن الكريم لا نجد شيء من ذلك ؛ ولو كان صحيح لا تم ذكره، أو الإشارة إليه في السيرة النبوية.

وكان القصد من وراء هذه الرواية هو إضفاء صبغة القداسة على الأسرة الحاكمة الجديدة، حتى لايحاول أحد الانتفاض عليها، وقد اعتمد واضعوا هذه الأسطورة على تعلق أفراد الأحباش بمثل هذه القصص، إذ يقال أن القديس "تكلا هيمافوت" الذي تبنى هذه الأسطورة هو الذي وضع قائمة الأسرة السليمانية تسلسلا حتى سليمان الحكيم، وذلك حتى يمكن للملك "يكونوا أملاك" من اعتلاءالعرش وهو الذي أطلق عليه هذ اللقب معناه "سوف يكون ملكا" بعد أن كان اسمه الحقيقي"تسقا أبا أسس"، ولذلك كان كل ملك يصعد إلى الحكم يسعى إلى ربط نسبه بتلك الأسرة ولو على سبيل الإدعاء[46].

لعبت الكنيسة دورا في إنهاء عهد الأجاويين أو الزغاويين وتسليم العرش إلى يكونو أملاك، إلا أن التراث المنقول والرواية الشفوية تقول أن أول من حكم هو " أروى نجوس" والد

ملكة سبأ بلقيس وهو زعم ليحمل الجد[47]. ومن أهم ملوك هذه الأسرة نجد الملك "يكونو أملاك" مؤسس الأسرة السليمانية الجديدة أن جعل من توليته شرعية تبدوا وكأنها تعود لأسرة أكسوم المسيحية القديمة[48]، بالإضافة إلى الملك "زرء يعقوب" الذي كان حاقدا على الإسلام والمسلمين ووضع نصب عينه الدفاع عن المسيحية،و التمكين لها فأرسل الحملات التنصيرية.[49]

3.بواعث نجاح سياسة التنصير[50] في بلاد الحبشة .

كما أشرنا سابقا إلى قدم العلاقة بين بلاد العرب و الحبشة منذ الهجرة الثانية للمسلمين وأصحابهم، لحق بهم أذى البطارقة، فأخذوا يتحينون الفرص للفتك بالمسلمين وإبادتهم، وظهر ذلك جليا في القرن الثامن الهجري (14م) [51].

1.3.الاختلاف المذهبي في بلاد الحبشة وأثره على وحدة ممالك الطراز الإسلامي .

التنوع المذهبي في شرق إفريقيا لم يكن وليد هذا العصر، وإنما عرف انتشارا كبيرا في كافة أقطار العالم الإسلامي سواء بلاد المغرب، المشرق، أو الأندلس؛ ما أدى إلى ظهور المناظرات والسجّلآت العلمية بين العلماء والفقهاء، لكننا نرى هذا العامل في منطقة شرق إفريقيا كان أحد الأسباب التي ساهمت بطريقة غير مباشرة في نجاح سياسة التنصير على مسلمي الحبشة، حتى أصبحت معقلا للعديد من الاختلافات المذهبية المسيحية والإسلامية، فمثلا وجد نزاع بين المسيحيين في الحبشة والذي كان من أسبابه محاولة البرتغاليين نشر المذهب الكاثوليكي بين الأحباش مما ترتب عليه وجود صراع بين اليعاقبة والكاثوليك[52]، بينما ممالك الطراز الإسلامي عرفت مذاهب مختلفة رغم سيادة المذهب السني المالكي في أغلب الممالك.أما المذهب الحنفي فقد وجد قبولا في مملكتي "دور" و"بالي" لتتبع مملكة أوفات المذهب الشافعي، ونجد المذهب الشيعي[53] الذي انتشر بين قبائل الصومال نتيجة اتصالهم بالزيدين الذين هاجروا في منتصف القرن الثاني الهجري(8م)، مما أدى إلى زيادة الفجوة بين

الجانبين؛ أي انعدام الوحدة الدينية، أما الأحباش فاتبعوا مذهب ديني واحد ألا وهو المذهب اليعقوبي[54]، وأطلق عليهم اسم اليعاقبة[55] .

والواقع أن انقسام دويلات الطراز بين السنة والشيعة والحنفية والشافعية أضرَّ بها من حيث الوحدة الدينية، وهذا ما استهدف الوجود الإسلامي في منطقة القرن الإفريقي[56]، وبذلك أضحت علاقة ممالك الطراز الإسلامية بممالك الحبشة المسيحية علاقة ولاء[57]. وكانت المذاهب المسيحية تناوئ بعضها البعض عند ظهور الإسلام وتعرض الناس لزعزعة ايمانهم[58]، ومن الواضح أن الأحباش كانوا يتعصبون تعصبا شديدا لدينهم ويمقتون ماعداها من أديان ومذاهب، وبلغت درجة تعصبهم لذلك المذهب أنهم كانوا يقتلون من يعتنق المسيحية على المذهب الملكاتي، متخذين في ذلك كافة الوسائل من ترغيب، وترهيب، وتعذيب،[59] ويؤكد ذلك القلقشندي في قوله :«... **ثم كرسي الإسكندرية بعد مصيره إلى اليعاقبة قد تبع البطريق القائم به على مذهب اليعاقبة الحبشة والنوبة وسائر متنصرة السودان...** »[60].

عموما فإن الفقهاء والعلماء في ممالك الطراز تميزوا بالتسامح الديني المنصوص عليه في الدين الإسلامي، بينما الأحباش تميزوا بالتعصب الأعمى لدينهم، وهو ماساهم في زيادة الحقد والخلاف بين المسلمين والمسيحيين[61].

2.3. غياب الاتحاد الإسلامي للقبائل العربية في النوبة والحبشة ودولة المماليك:

لعله من المفيد تبيان ما رصدته لنا المصادر العربية خلال هذه الفترة؛ بما تميزت به هذه الإمارات من تنافس شديد فيما بينها، ونتيجة لهذا سقطوا فريسة في أيدي الملوك السليمانيين[62]، عبر تهديدات متعاقبة [63]، و يصف المؤرخ العمري هذا الوضع بقوله:«...**مع مبينهم من عداوة والمباينة مابين النصارى والمسلمين ومع هذا فكلمتهم متفرقة وذات بين**

بينهم فاسدة...»[64]، هذا ما أثر على الوضعية السياسية لممالك الطراز الإسلامي التي أخفقت في تشكيل رباط أو اتحاد قوي فيما بينها.[65]

في إطار محاولة دولة المماليك حماية مسلمي الحبشة من السياسة التعسفية للملوك السليمانيين استجاب السلطان قلاون[66] بإرسال المطران إلى الحبشة، ورغم ذلك استمر عداؤهم للمسلمين ونقضهم لعهود الهدنة من بينهم الملك "عمد أصيون الأول"، خاصة بعد الإظطهاد الديني للأقباط في مصر، حيث قام السلطان ناصر قلاوون[67] بتدمير كثير من كنائس المسيحيين، مما دفع به إلى إرسال وفد إلى القاهرة يطلب من السلطان إعادة بناء الكنائس والكف عن إظطهاد الأقباط، وأنذره باتخاذ إجراءات مماثلة مع رعاياه من المسلمين المتواجديين في الحبشة؛ وهدَّده بتجويع أهل مصر بتحويل مجرى النيل، وعندما وصلت الأخبار إلى سلطان أوفات "حق الدين" قام هو أيضا بإحراق عدد من الكنائس، وأجبر المسيحين على إعتناق الإسلام، وكانت هذه الأحداث سبَباً في إثارة الأحباش، هنا نلاحظ أن سياسة التنصير لم تكن موجهة إلى ممالك الطراز فقط وإنما مستهدفة كافة المسلمين سواء الحبشة أو مصر[68]، حتى أنه تم ارسال أحد البطاركة من مصر إلى بلاد الحبشة محملا بالهدايا إلى حطي الحبشة[69]، وبذلك حاولت هذه القوى الحد من انتصارات المسلمين ببيت المقدس وبلاد الشام التي كان يقودها الممالك الإسلامية المتعاقبة على حكم مصر؛ الأيوبيين والمماليك[70].

علينا توضيح طبيعة العلاقة بين ملوك دولة المماليك والأسرة السليمانية التي تميزت بحدة التوترّ، الذي أدى إلى سخط البلاط والكنيسة بالحبشة، وإدانتها للسلطنات الإسلامية بمصر بخصوص الأقباط وغيرهم من الرعايا المسيحيين، رغم أنه كانت هناك سفارات بين" يكونو أملاك "و"الظاهر بيبرس" ثم "عمد أصيون" إلى "الناصر بن قلاوون".[71]

وبالتالي يمكننا أن نستنتج أن العداء المتواصل بيّن للديانة المسيحية على الإسلام، مؤثر سلباً على الوجود الإسلامي بالحبشة، وأصبح محل تهديد للمسلمين بمصر، كما حدَّ من توحيد التكتُّل بين القبائل العربية المسلمة المهاجرة ضد المسيحية، خاصة القبائل الحجازية التي انتشرت في بلاد البجة والنوبة والتي تواجدت أيضا في الحبشة، هذه القبائل التي كانت قريبة من الحدث؛ لكن لم يكن لها دور مؤثر بسبب انشغالها بقضاياها الداخلية، وخاصة أنها قامت ممالكها في أراضي تَعُجُ بالمسيحية .

3.3. دور الكنيسة الحبشية في بعث حركة التنصير ضد الإسلام .

صارت الكنيسة هي الراعي الوحيد للتعليم في الحبشة، كما انتشرت مدارس الرّهبنة[72]،بالإضافة إلى التنسيق والتوجيه الذي مارسته الكنيسة اليعقوبية الملكانية في إضفاء الشرعية والقوة، وتمليك ثلث الأراضي بما فيها أراضي الممالك الإسلامية.[73] وفي هذا الصدد كان الرقيق الحبشي أثمن ما يهديه الأباطرة الأحباش إلى السلطان المصري والبطريرك[74] وشاعت الأساطير التي تعتقد بأن الأحباش كانوا يسكنون بمصر منذ زمن طويل؛ حيث تميزَّ طابع ولاء الكنيسة الحبشية للكنيسة القبطية في إتباعها نفس الطقوس والعادات، والتقويم مثل: شعيرة الصوم[75]؛ لكن غالبية المجتمع أضحي يخلط بين طقوس اليهودية مع ما جاء في الإنجيل[76]. وقويت الكنيسة المسيحية بحصولها على أكبر الموارد من الأملاك والإقطاع كما عمد الأباطرة إلى إيفاد الرسل إلى سلاطين مصر للسماح لبطريريك الإسكندرية باختيار المطارنة وإرسالهم إلى الحبشة[77]، ومن ضمن أحد المطارنة الذين تم اختيارهم؛ قام ببناء سبع مساجد إلا أنه زُجَ به في السجن وتم تدمير تلك المساجد، مما قوى من سلطة الكنيسة بين الوثنين وقلص من انتشار الإسلام.[78]

4. دور التنصير في تطور المجتمع المسيحي الحبشي السليماني.

1.4. ازدهار البناء الإديري.

ويقصد به الاهتمام بالمنشآت الدينية، وعليه فقد أسهمت الحركة الديريّة بجهد كبير في نشر المسيحية بقيادة الملوك الذين اهتموا ببناء الكنائس، و لتأكيد ذلك اتخذوا ألقابا مسيحية مثل: جبرا مقل (أي عبد الصليب)، ولبنا دنجل (أي ابن العذراء) وكان من حق المطران أن يصدر قرار يطرد الملك من حق الكنيسة، هذا النفوذ المتعاظم لرجال الدين تطور عبر القرون.[79]

فقد بنيت الكنائس و الإديرة التي تحيط بها أكواخ ومساكن الرهبان والمدارس والمرافق المشتركة الأخرى، وكان المسنون والأيتام يلجئون إلى الدير بحثا عن المأكل والمشرب، فإيواء الأيتام كان سببا مستهدفا لنشر المسيحية على أوسع نطاق ممكن، حتى انتشرت في كل قرية بناء كنسي يضم الراهبون والراهبات، كما انتشرت ظاهرة التعليم المسيحي في الإديرة التي كانت تجذبهم وتغمرهم بالمال والتكريم وبعد نجاحهم يعينونهم قساوسة في تلك الكنائس.[80]

وعلى غرار ذلك أضحت الإديرة، أحد أهم موضوعات الفن المسيحي الذي تمثل في رسم ا"الملك سليمان" و"ملكة سبأ" والحاشية من حولهما، وكذلك قصص العذراء والكثير من القديسين، أما الصورة التي نجدها مكررة في أكثر من موضع هي صورة السيدة مريم والدة النبي "عيسى عليه السلام" جالسة على عرش يحيط بها الملائكة والقديسون، ومن أهم الملوك الذين اهتموا بالمنشات المعمارية نجد الملك "زرء يعقوب"الذي شيد العديد من الكنائس، وحفيده الملك "لبنا دنجل" الذي اهتم بالإديرة القديمة في إقليم تقراي.[81]

2.4. انتشار حركة الترجمة.

لم يكن المسيحيين غافلين عن الإنتاج الفكري العربي الإسلامي، بل اهتموا بكتب الفتوحات العربية لمصر و ماجاء في أخبارها، وترجموا كتابا حول"فتح العرب لمصر"،ولا غرو من ذلك إن كانت الأسرة السليمانية برصيد ثقافي كبير، خاصة مقدموه من إنتاج معتبر يعبر عن

ثقافتهم المحلية؛ ومن أهم المجالات التي طرقها الأحباش وأبدعوا فيها نجد الأدب والفن اللذان أبرزا عن حركة كبيرة للترجمة والتأليف، نتيجة انتشار المدارس الملحقة بالكنائس و الإديرة، وانتشار المكتبات والكتب، منتصف القرن السابع الهجري(13م)، حيث وصل فيها الأدب الحبشي خاصة (838-873هـ/1434-1468م) إنتاجا معتبرا مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحياة الاجتماعية،[82] حيث ساد اعتقادهم اختفاء الخطيئة والألم، وأن حياة ما بعد الموت يسودها السعادة والسلام وخلود الأرواح.[83]

أما الكتب التي ترجمت وألفت في هذه الفترة،كانت كلها تعظم من شأن الكنيسة ورجالها والسلالة السليمانية فترجمت كتب عن الطقوس، والكتاب المقدس، وصحف الرهبنة، والقديسين .[84]

وإلى جانب عملية التّرجمة ظهر فن الرسم المسيحي، إذ رسمت مجموعة من الصور يدعون أنها تمثل مريم العذراء ووضع في ذراعها الأيسر طفل يزعمون أنه المسيح عيسى عليه السلام، كما ظهرت محاولات ترجمة المخطوطات التي كتبت في هذه الفترة باللُّغات العبرية الجعزيّة من طرف الرَّحالة، ورجال الدين البرتغاليين، بالإضافة إلى ذلك ترجمة تاريخ لإسكندر الأكبر مع مواصلة نشر النصوص الإثيوبية الأخرى.[85]

3.4. الكتابة والتأليف عند الملوك السليمانيون .

مع وصول الملك" يكونو أملاك " إلى سدة الحكم(669-684هـ1280-1285)م، انتشرت الكتب التاريخية التي تصف حياة القديسين والشهداء، وأساطير بدأ الخلق، وحتى الأسطورة التي تربط ملوك الأسرة السليمانية بالملك سليمان الحكيم والملكة سبأ، وفي عهد الملك عمدا أصيون (814-845هـ/1314-1344)م ،ظهرت في الحبشة خلال هذه الفترة فكرة "أغاني الحرب" التي أصبحت من مميزات الأدب الجعزي، أما في عهد "الملك زرء

يعقوب"كتب عدة كتب منها كتاب (Mahsafa Milad) ويعني كتاب "الميلاد" وكتاب آخر يسمى الثالوث،و البرهان، أو كتاب الضوء، ويعتبره كتاب رسالة الإنسانية حسب زعمهم[86]. وهو أحد أهم الكتب التي وضعها للدفاع، عن عقيدته ضد العبادات الوثنية والخرافات التي انتشرت بين الأحباش في عصره ومحاربة السحرة، كما كتب كتابا آخر رد فيه المخالفين لمذهب الحبشة. ونلاحظ هنا تشابه هدف الملك "زرء يعقوب" والمسلمين في محاربة السحر والسحرة والبدع الوثنية، وهو نفس النهج الذي سار عليه الملك "ناؤود" الذي وضع الكثير من الصلوات والتراتيل الشعرية للسيدة مريم العذراء، وقد رتبت تلك التراتيل لتتلى على حسب أيام الأسبوع.[87]

كما وضع كتاب باللّغة العبرية حول زوجات البطارقة وحياة الأنبياء مثل أبونا" آدم" والنبي"موسى" عليه السلام، وإعطاء أهمية بالغة لكتاب "صفر التكوين"؛ وزيادة عن ذلك فقد أشارت العديد من الكتابات الاستشراقية إلى الكم الهائل من المخطوطات التي ألفها القساوسة في هذا الجانب، وبذلك أفادت أنها موجودة بالمتحف البريطاني[88] .

تهدف تلك الكتابات إلى حث المجتمع على التمسك بسيرة ملوكهم، فملوك الأسرة السليمانية تربوا منذ الصغر على أيدي رجال الدين والتنقل بين العديد من المراكز الرهبانية أي مصر والحبشة، وكان من نتاج التلاقي بين الأدب القبطي والأدب الحبشي،أن وضع الأحباش عدة مؤلفات في الطقوس الدينية و"علم اللاّهوت"، و"كتاب الساعات" الذي وضع في عهد "عمدا أصيون"[89] قانون الملوك"، الذي يضم جزءان الأوّل: يخص الجوانب الدينية في حياة الأحباش والثاني يخص الجوانب الاجتماعية مثل الزواج والقروض، التبرع، الوصايا، الهبات، وغيرها من شؤون الحياة الاجتماعية[90]، كما اتصلوا برسامين خاصين من بلاد البندقية في هذا المنحى.[91]

يشمل الأدب الجعزي الكتاب المقدس إلى جانب الأدب والتاريخ اللاّهوتي والكنسي وغيرها؛ من الأعمال الفلسفة والفيلولوجيا[92]، حيث أن أقدم الوثائق مازلت موجودة هي النقوش الموجودة في أكسوم التي تعود للقرن الرابع الميلادي، وبدأ مع الأدب المسيحي باللّغة الجعزّية، ثم إدخال المسيحية إلى أكسوم، كما أقيمت نشاطات أدبية وتعليمية في الإديرة، مثل كتاب "مجد الملوك" الذي وضع في القرن الثامن الهجري(14م)، حول زيارة الملكة "شيبا" إلى الملك سليمان وولادة ابنهما "منيليك الأول" الذي يعتبر في إثيوبيا مؤسس السلالة السليمانية[93].

وظل الملك "زرء يعقوب" أكثر ملوك الحبشة إسهاماً، حيث مثل عهده أزهى عهود الحبشة في حركة الترجمة والتأليف، من كتبه كتاب "الإيمان الحبشي الأرثوذكسي" وشجع العديد من الكُتَابْ الأحباش وعثر على مخطوطات باللّغة الجعزّية في الحبشة تعود إلى عصر الملك "زرء يعقوب"[94].

4.4. ربط الملوك السليمانيون لعلاقات مع أوروبا المسيحية .

عرفت منطقة شرق إفريقيا دورا حضاريا بارزا نهاية العصر الوسيط، في حين عرف المغرب الإسلامي فترة ركود نتيجة للحصار البحري المحكم الذي فرض عليه من لدن الأساطيل الأجنبية[95]، ونقصد هنا البرتغالية، واستمر حقد الكنيسة يزداد الذي غذته الصراعات بين المسلمين والروم النصارى[96]، خصوصا إذا علمنا أن البلاط الإثيوبي درّج على استمالة بعض الزعماء المسلمين بسلطنات ممالك الحبشة المسلمة[97] ، ويعتبر الكُتَابْ الغربيين أن ظهور الإسلام في بلاد الحبشة بمثابة عصر مظلم، لأنه قطع اتصال الحبشة مع الإمبراطورية الرومانية[98].

وعليه؛ فقد كان للمراكز البرتغالية في المحيط الهندي، والهند دورا بالغا في مساندة المملكة الحبشية المسيحية، حيث اتسمت العلاقات بين الأحباش والمسيحين والأوروبيين؛ بالولاء الديني الذي كان له دور مهم في ترسيخ العلاقات بين الطرفين[99].

ومع بداية القرن العاشر الهجري (16م) عمل الملك "لبنا دنجل" على إرسال رسالة إلى "الملك جون" ملك البرتغال سنة 927ه/ 1520م، يطلب فيها منه أن يمده بعمال مهرة في تصوير وطباعة الكتب وآخرون في صناعة السيوف والأسلحة، وصناعة المعادن، وضرب العملة، وأطباء وجراحون، وصناع الأدوية وغيرهم من الحرفيين.[100] كما حضر لهجوم مشترك مع البرتغاليين على ميناء الزيلع،[101] وفي ذلك يقدم لنا المؤرخ المشرقي "شهاب الدين المقديسي" وصفا لما كان يجري:"...**ومراكب الفرنج على ساحل البحر على القمم تسترق الجياع**..." ويواصل قوله أنه كان "صلاح الدين الأيوبي" يحاربهم.[102]

ومن كتب الرّحلة التي تركت لنا انطباعات حول العلاقات الحبشية الأوربية، خلال العصر الوسيط نجد كتاب الرحالة " ألفاريز" الذي ذكر الرسائل الموجهة بين ملوك الحبشة المسيحية والبرتغال، وبذلك دون لنا العديد من الأحداث في رحلته المعنونة ب: Narrative of the Portuguese embassy to Abyssinia during the years 1520-1527 أو "روايات حول السفارات البرتغالية إلى الحبشة خلال 1520-1527م"[103].زار خلالها سلطنة "قطاجاروا" الإسلامية ومجموعة من الإمارات الوثنية الصغيرة الواقعة في دواخل الهضبة الحبشية، خصص جزءًا كبيرا في كتابه عن احتفالات وعادات الكنيسة المسيحية التي أعجبته هندستها، وأكثر ما صدمه هو طقوس الاستحمام في "عيد الغطاس المسيحي"، حيث كانوا يدعون إلى تجنب تناول لحم الخنزير واللّحم النجس، فكان عمل هذا الأخير سفيرا للبرتغال في الحبشة حامل للرسائل بين الطرفين.[104]

كانت السفارات عند القوى الصليبية تهدف لنسج المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين، ومن بينهم "يكونوا أملاك"، الذي أرسل سفارة إلى إمبراطور بيزنطة طالبا منه التنسيق معه ضد المسلمين، ما زاد من التعصب الديني للأحباش ضد مسلمي الطراز الإسلامي، أما تعصب البرتغال ضد المسلمين كان بهدف ضمان استمرار الكشوفات الجغرافية البرتغالية للوصول إلى الهند. ومن جهة أخرى كان يهدف للسيطرة على طرق القوافل التجارية في شرق إفريقيا التي كانت في أيدي القبائل العربية المهاجرة آنذاك،[105] زيادة عن ذلك أرسلوا رحالة لمحاولة إقامة حلف من الحبشة وأرمينيا والدولة البيزنطية[106]، بالإضافة إلى محاولة الوصول على كنيسة القدس تحقق هذا الطموح، ليقوم صلاح الدين الأيوبي بطردهم[107].

5.أساليب التنصير ودورها في إسقاط ممالك الطراز الإسلامي .

1.4 هدم المساجد :

كان هدم المساجد من أوّل الوسائل التي أقدم عليها الملوك السُلَيْمَانِيِين بغرض تنصير مسلمي الزيلع، حيث أجمعت المصادر العربية التي أرخت لهذه الممالك أنه كان بها جوامع ومساجد ومآذن، وكانت تقام بها خطب الجماعات، وفيهم الزهاد الأبرار،[108] وتمثل سياسة هدم المساجد التي درّج عليها أكثر من ملك حبشي أحد أساليب الإكراه والنبذ[109] التي مورست على مسلمي الزيلع مثلما حصل مع مسلمي الأندلس، فكان حكام الحبشة النصرانيين يُقْدِمُونَ على هدم بيوت العبادة من مساجد وجوامع وتحويلها إلى كنائس، بالإضافة إلى سياسة التضّييق التي فُرِضَت على مسلمي الزيلع بدفع الجزية حتى لا تهدم مساجدهم، وإن لم يدفعوا فكان مصيرها الهدم[110]، كما تم تحويل هذه المساجد إلى كنائس، و أُحرِقت المصاحف والكتب الدينية الإسلامية[111].

2.4. فرض الأحباش الجزية على لمسلمين:

نتج عن سياسة التنصير التي مارسها ملوك الأسرة السليمانية على مسلمي الحبشة ولاء المسلمين للمسيحيين، فملك الحبشة كان هو من يعين الحكام المسلمين[112]، إذ كانوا يدفعون جزية سنوية لملوك الحبشة، فقد بلغ إذلال المسلمين إلى درجة كان فيها سلاطين مملكة "هدية" يرسلون إحدى بناتهم ضمن الجزية المرسلة لملك الحبشة، وهذا تحت الضغط الكنسي المسيحي،[113] كما كانوا يحملون إليهم في كل سنة قطع من القماش والحرير والكتان المجلوب من مصر واليمن والعراق[114]،بالإضافة إلى ذلك فرضوا الجزية على القوافل التجارية المتجهة من مصر إلى الديار الحجازية[115].

ويصف "القلقشندي" الحالة المزرية التي آلت إليها ممالك الحبشة عقب تسلط الملوك السليمانيين عليهم من زيادة في طلب الجزية المتمثلة في الرقيق من النساء، والأكثر من ذلك من ممارسات الذل و الإهانة[116]، كما فرضت على ساكنة البلاد الحبشية عدم أكل اللّحم المذبوح بالطريقة الإسلامية أو شرب الماء الذي شرب منه المسلم إلا إذا شرب منه القس، ولا يصافحون المسلمين إلا باليد اليسرى إمعانا في احتقارهم،[117] كما كانوا يغزونهم في تجارتهم ويدمرون سفنهم في البحر الأحمر وينهبون كل ما وقع بين أيديهم في موانئهم التيجارية[118].

3.4. سياسة الاضطهاد:

منذ العهد الأول لملوك الأسرة السليمانية، أعلن "يكونو أملاك" حربا طويلة الأمد ضد الإمارات الإسلامية التي امتدت طيلة ثلاث قرون متتالية،[119] اتسم هذا الصراع بالعنف والقسوة البعيدة عن القيم الإسلامية التي تَحَلَتْ بها ممالك الطراز من تسامح ديني مع المجتمع المسيحي.[120] ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تطور إلى محاولات التنصير الإجباري للمسلمين، وهدم المساجد والتنسيق المتواصل مع دوائر الكنيسة في أوروبا مثل البرتغال والكنيسة الكاثوليكية في روما[121].

ولعل أهم دليل على سياسة التنصير الإجباري للمسلمين، حدّث في عهد الملك "عمد أصيون" الذي أكثّر من تعذيب المسلمين وإجبارهم على اعتناق المسيحية،كما واصل ابنه"سيفا أراد" تلك السياسة، إذ أمر بإعدام ونفي كل من أبى الدخول في المسيحية من المسلمين، كما أمر "إسحاق بن داوود" بتنصير كل المسلمين حتى يتم القضاء على كل مسلمي الحبشة. أما الملك "زرء يعقوب" فقد عَيَّن مُوظفا خاصا؛ مهمته تعقب غير المسيحيين وإدخالهم المسيحية، وقد أمر الأحباش بوضع عصابة على جباههم توضح أنهم تابعين للأحباش، وشارة أخرى على أذرعتهم تفيد على أنهم خادمي السيدة مريم البتول ، كما أمر بتحريم الاختلاط بين المسيحيين وغيرهم[122] ؛ وكان الملوك السليمانيين يجبرون أمراء وقادة مسلمي الحبشة على الدخول في المسيحية تحت ضغط الترهيب، والإغراء، وحتى الإبادة والتخريب[123]، وهذا ما يذكرنا بما وقع لمسلمي الأندلس بعد سقوطها سنة 1492م، وما مارسته محاكم التفتيش هناك.

إن الأمر الذي أغفلت عنه أغلب الدراسات هو موضوع استرقاق المسلمين وهم أحرار، منهم الملك" دوايت الأول" الذي قام بأسر النساء المسلمين وأبناءهم وأخذ مواشيهم؛ ومن البطاركة الجابابرة أيضا"دجلجان" الذي خرب ونهب أموال المسلمين وسبي حريمهم[124]، كما عمل "الملك لبنا دنجل" على إضعاف قوة المسلمين عن طريق مساعدة البطريق" دجلجان" له، الذي مارس الإغارة، القتل و حتى أسر الكثير من السكان[125].

ولم تسلم من سياسة الاسترقاق حتى رعية الملك الحبشية؛ رغم أن الإسلام حرم الرق على من دخل الإسلام وفي ذلك توصيف لما قاله صاحب مخطوط " الخبر عن أجناس السودان:"..**كتبهم بالرومية ينشرونها بلسانهم وملكهم يسترق من شاء من رعيتهم بجرم أو بغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه...**"[126]

ورغم ذلك فإن كتابات المستشرقين الغربيين أجمعت؛ على الموقف النبيل الذي أسداه المسلمون من قضية الاضطهاد الديني من خلال تحليهم بالصبّر والتحمّل، لكن ملوكهم لم يحفظوا الوّد. ومثال ذلك ماكتب الملك "يكونو أملاك" في رسالته إلى "الظاهر بيبرس"[127] التي جاء فيها «**وكل من يصل من المسلمين الى بلادنا من المسلمين نكون... نحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون ...ونحن نحفظ كل من يأتي إلينا من بلاد المسلمين فسيروا مطراناً يحفظهم**»[128].حيث يظهر في هذه الرسالة أن "يكونو أملاك" وكأنه يتذلّل لسلطان المماليك بإدعائه المزعوم أنه سيرعى حقوق المسلمين.

هناك اتفاق قام به الملك "إسحاق بن داود" مع رجال دولته والمتمثل في انتزاع ممالك المسلمين من أيديهم وإجلائهم عن البلاد وإبادتهم[129]. هذا السلوك الخشن المتعجرف الذي سلكه المسيحيون يتنافى مع الروح التسامح الديني الذي تميز به الدين الإسلامي الحنيف[130]، كما سارت نفس السياسة مع الملك "سيف أرعد" الذي اتبع سياسة أسلافه في محاولة القضاء على الوجود الإسلامي[131]، أما "زرء يعقوب" فقد ظفر باسترداد "إمارة دورة" المسلمة وتهديدها[132] مستخدما سياسة التفرقة والاضطهاد والحرب، ما أدى إلى تفتيت تماسك المسلمين[133].

5. انعكاسات سياسة التنصير على مسلمي الحبشة.

1.5. انتشار ظاهرة الردة عن الإسلام :

تذكرنا هذه الردة بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وتعيين سيدنا أبو بكر الصديق على إمامة المسلمين بعد اجتماع "ساقفة بني ساعدة" وتم الرجوع عن الإسلام إلى الشرك بالله؛ نفس الأمر حدث في بلاد الحبشة (المعقل الأول لاحتضان الديانة المحمدية مع النجاشي أصحمه

بن أبجر)، خصوصا إذا علمنا أن بلاد الحبشة أرض متعددة الديانات، من المسيحية، اليهودية، والديانات التقليدية الوثنية، ثم الإسلام[134].

وبذلك وجدنا أن الدولة السليمانية قامت بمحاربة الإمارات الإسلامية حتى تقضي على منافسيها وتوسيع نفوذها المسيحي التنصيري،[135] وأهم عمل قام به السليمانيين أخذ ابنة ملك سلطنة "هدية "الإسلامية وتزويجها من أحد النبلاء المسيحيين، ثم جعلها وصية على العرش بحكم دور النسب الأموي في الحكم، حتى يتم تنصيرها بأسلوب إغرائي شنيع[136].

ومن الذين ارتدوا عن الإسلام نذكر عن ذلك للحصر: " إنبا كوم" "enbqom" اسمه يعقوب أو "أبا الفتح"، ولد باليمن عام 1480م وتعلم الإسلام والثقافة الإسلامية في مدارسها، ولما أصبح شابا سافر إلى الحبشة. كان مسلما ثم ارتد عن الإسلام وأختار لنفسه اسم "إنباكوم"، انظم إلى سلك الرهبنة بدير "ديرا" في مملكة شوا الإسلامية وغيرها من الدير، كان يجيد اللغة العربية وفي الحبشة تعلم الجعزية و الأمهرية؛ ليترقي داخل الدير حتى أصبح رئيسا له، ويصل فيما بعد إلى رتبة قس حبشي، وضع عدة كتابات امتدح فيها الديانة النصرانية، كما ساهم في عملية الارتداد لمن دخل الإسلام عن طريق سياسة الجذب واستخدام عملة الترّجمة، حيث ترّجم نحو خمسة كتب من العربية إلى الجعزية من بينها "أطروحة لاهوتية"؛ إذ ساعدته في ذلك جذوره العربية اليمنية في القيام بهذه العملية، ومن مساهمته في عملية الرّدة أنه شجع البعثات البرتغالية للقدوم إلى الحبشة، ولعل أول بعثة زارت الحبشة كانت في عام 1520م[137].

ومن المفيد توضيح أيضا قضية تنصير الوثنيين التي كانت من الأهداف الأولى والتي ركزت عليها الكنيسة، بزعم توحيدهم للبلاد تحت لواء ديني واحد يمكنهم من الوقوف أمام انتشار الإسلام، لذلك بدأت حركة تنصير واسعة بالتركيز على القبائل الوثنية، حيث اعتمدت

في نجاحها على جمع ماتيسر لها من نفوذ؛ أولها السلطة وثانيها الأموال[138]. كانت هذه أحد أهم نتائج حركة الرّدة عن الدين الإسلامي ابان حكم الأسرة السليمانية في ظل غياب العديد من الوثائق التاريخية التي تحتاج إلى تتبع مسارها وتقصي آثارها على الوقت الراهن.

2.5.ظهور حركة الجهاد الإسلامي.

من ممالك مسلمي الحبشة التي قادت الجهاد الإسلامي ضد حركة التنصير كان في مقدمتها مملكة أوفات الإسلامية، التي أضحت أنموذجا حقيقيا للعروبة والإسلام[139]، سميت بعدة تسميات منها "ولاشما"، و"جبرة"، و"جبرت"(بمعنى عباد الله)[140]، جاء رسمها عند ابن الفدا في تقويم البلدان:"... **بأنها من أكبر مدن الحبشة ومن الزيلع إليها نحو عشرين مرحلة، عمارتها متفرقة؛ دار الملك على تّل والقلعة على تّل وهي بعيدة عن البحر وأهلها مسلمون..."[141]**

اشتهر سلاطينها بالتقوى والصلاح والسطوة والجبروت، وبعدم الانصياع طواعية لنفوذ واستبداد السلطة المسيحية السليمانية الحاكمة بمقاطعة أمهرة، وبذلك كانت حركة الجهاد الإسلامي مرتقبة منها لا محالة[142].

نظرا لما وصلت إليه سلطنة "أوفات" من نجاحات في أعقاب ضمها لسلطنة شوا في عام 1258م، وكافة المناطق والأنحاء المتاخمة حول سلطنة عدل الإسلامية وميناء زيلع، وبسطت فيما بعد سلطانها التجاري على البحر الأحمر والمحيط الهندي، وبذلك أثارت البلاط المسيحي الذي اتخذ سياسة عدائية تجاه السلطنات الإسلامية وبخاصة أوفات نفسها التي دخلت في حرب معهم ظلت متصلة لإرغام زعماء هذه المشيخات الإسلامية المتحالفة على لإذعان والخضوع للبلاط الحبشي[143].

كما كانت مملكة "عدل" من الممالك التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية أيضا، واختصت بنظام مالي طبقا لأحكام الشريعة، وكانت خضعت لسلطنة "أوفات" وقادت حركة الجهاد ضد الأحباش وخصوصا في عهد "صبر الدين الثاني" وأخوه "منصور" الذي قام بحشد جيش هاجم به الأحباش واستطاع إيقاع الهزيمة بهم، وقد نتج عن هذه الحملة إسلام ما يقرب من عشرة آلاف حسب شهادة المقريزي.[144] .

وبالمقابل استمر إيذاء وسيطرة السليمانيين لملوك "أوفات"، حتى تم أسر أميرها "حق الدين الأول[145]"وضم إمارة "فطاجاروا" إليها تحت السيّادة السليمانية وتعيين "صبر الدين الأول" حاكما، زيادة على ذلك قام "عمد أصيون" بتدمير باقي الإمارات الإسلامية وإخضاعها لنفوذه، ونتيجة لهذه السياسة ضعفت هذه الإمارات وأصبحت غير قادرة على التصدي للسيطرة الحبشية[146].

إن المسيحيين رأوا في مملكة "عدل" الإسلامية خطرا عليهم لاتساعها وقوتها، واستمرت هذه الحروب طيلة القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر الميلادي[147]، في حين أن سلطنة أوفات نجحت في مد نفوذها، مما أدى حصار الحبشة. ولذلك نجد أن من أسباب هزيمة "عدل" هو عدم وجود وحدة فعالة بين الإمارات.[148] ورجع ذلك حسب رأينا أن ممالك الطراز الإسلامي كانت تفتقر للوحدة السياسية، وكل واحدة تحاول التوسع على حساب الأخرى وإثبات نفوذها متناسين الخطر المسيحي في الداخل والخارج الذي أصبح يهددهم.

ورغم ما آلت إليه ممالك الطراز الإسلامي من الضُعْفِ والوهن؛ إلّا أنها ساهمت في إيقاظ الصحوة الإسلامية من جديد وعلَّمَتْ ملوك الأسرة السليمانية دروسا لا تُنسى في الجهاد وحرية الإنسان، التي يجب أن تُحْتَرم ولا تسترق أو تعذب؛ من بين هؤلاء العرب الذين قادوا حركة الجهاد الإسلامي نجد الإمام "**أحمد بن إبراهيم**" الملقب " **بالغازي** "ويدعى

"جران"، وقد كان لهذا السلطان جيش قوي تمكن من الاستيلاء على جزء مهم من بلاد الحبشة واضطر ملك الحبشة إلى الفرار والاعتصام بالجبال[149]، إذ خاض سلسلة من المعارك استعاد من خلالها الإمارات القديمة حتى أصبح جنوب ووسط الحبشة تحت نفوذ السيطرة الإسلامية من جديد.[150]

خاتمة:

نستخلص من هذه الدراسة أن عصر الأسرة السليمانية كان بمثابة محاولة لإعادة مجد المسيحية في القرن الإفريقي التي مثلتها الحبشة ومصر وروما قبل تغلغل الإسلام، ولما أسفر ذلك إلى ظهور مجموعة من السلطنات الإسلامية مجسدة مظاهر حضارية راقية، لكن الكثير من المؤرخين الغربيين ذهبوا إلى إلغاء كل ما أنجزه المسلمين في شرق إفريقيا عموما والحبشة خصوصا، واعتبار مجد الحضارة راجع إلى انتشار المسيحية، كما أن الكثير من المؤرخين المسلمين لم يبذلوا الكثير من الجهد من أجل إثبات الحقيقة و اكتفوا بنقل ما كتبه غيرهم من الغربيين، وبالتالي يمكننا القول أن حروب السليمانيين ضد المسلمين هي في الواقع حروب للكنيسة ضد الإسلام اتخذت أشكالا وأنماطا متعددة؛ للطعن في مبادئ العقيدة الإسلامية الصحيحة وتشويه الموروث التاريخي الإسلامي بداية من عصر الأنبياء، والصحابة رضوان الله عليهم إلى الحكام المسلمين في ممالكهم، وبالتالي تبقى جميع هذه المعطيات تحتاج إلى بحث ودراسة .

الملحق رقم (01)[2]:



لوحة من الملك يكونو أملاك(سيكون ملكاً) مؤسس السلالة السليمانية تبرز جوانب من الطقوس النصرانية .

الهوامش والإحالات:

[1].علي حسين الشطشاط، **الموجز في تاريخ الممالك الإسلامية في شرق إفريقيا**، كلية الآداب جامعة بنغازي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2012، ص ص 26.197.

[2].H.M. Jones and Elizabeth Monroe : A History of Abyssinia Ethiopia ; Oxford, 1935 ; p .p 5.6.

[3] . ابن حوقل أبي القاسم النصيبي، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان، 1996، ص151، 182

[4] .يقع في ملتقى الطرق البحرية التي تربط بين مينائي زيلع ومصوع كان بمنزلة منطقة عبور للسفن، لذلك اهتم سلاطين دهلك المسلمين بالجيش لتوفير الحماية للجزر من الاعتداءات الداخلية والخارجية .للمزيد أنظر : محمد أحمد محمد علي بهنساوي:،**التجارة الخارجية في الحبشة في عصر الأسرة السليمانية 669–948هـ–1270–1543م** ، حولية سيمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، الع 4، 2014 ، ص 223.

[2] H.M. Jones and Elizabeth Monroe : A History of Abyssinia Ethiopia ; Oxford, 1935 ; p .5

[5] أطلق هذا الاسم على إمارة "عدل" الإسلامية من قبل بعض المؤرخين، وفي بعض الأحيان أطلق على كامل ممالك المسلمين في الحبشة، قامت هذه الأخيرة ببلاد الصومال إلى جانب سلطنة مقدشو الإسلامية على يد الهجرات العربية .للمزيد أنظر: عبد المجيد عابدين، **بين الحبشة والعرب** ، (د.ب) ، دار الفكر العربي، (د.ت)،ص 151.

[6]. ت : تامرات : القرن الإفريقي – **السليمانيون المنتسبون إلى سليمان الحكيم في إثيوبيا ودول القرن الإفريقي**، ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، المج4 ، المشرف : ج.تنياني اليونسكو، بيروت لبنان،1988، ص 321.323.

[7] . محمد أحمد محمد علي بهنساوي، المرجع السابق، ص 223.

[8] . أبي بكر الزهري، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت) ، ص ص 9.124.

[9].تقي الدين المقريزي، **الإلمام بأخبار من بأرض ملوك الحبشة من ملوك الإسلام مع دراسة عن القبائل العربية** في مصر ، المكتبة الازهرية للتراث، القاهرة ، (د.ت)، ص 24.

[10]. محمد أحمد محمد علي بهنساوي، المرجع السابق ، ص 325.

[11]. عطا كنتول، **أوضاع المسلمين في إثيوبيا**، رابطة العلماء السوريين- المجلس الإسلامي السوري، نشر يوم 11 فيفري 2019، تم الاطلاع يوم 11-04-2022، على الساعة 11:15.

[12]. تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ص ص 6.12.

[13] من الحركات الزيدية التي قامت بالمشرق الإسلامي خلال العهد العباسي حركة "محمد بن زياد من ولد عبيد الله بن زياد" التي كانت في عهد الخليفة المأمون العباسي ابن هارون الرشيد، حيث اختط ابن زياد مدينة وأسماها "زبيد "وعملها مقرا لإمارته، لتقوم الدولة الزيدية في اليمن . كما هاجر البعض منهم إلى ساحل بنادر بمنطقة القرن الإفريقي بعد مقتل زعيمهم الإمام زيد بن علي زين العابدين في عام 122ه/739مع هجرة أخرى لقبيلة بني الحارث من منطقة الإحساء(البحرين) وهنا حدث صراع بين الزيديين وأهل الإحساء بسبب الاختلاف المذهبي فالزيدين شيعة أما أهل الإحساء فكانوا سنيين .للمزيد أنظر حسين خضير أحمد : **قيام الدولة الزيدية في اليمن** ، مكتبة مدبولي، القاهرة،1996، ص ص36.37. السيد أحمد الباز: **الحياة العلمية والثقافية في السلطنات الإسلامية في منطقة القرن الإفريقي (7-9ه/13-15م)**، الدولية الإفريقية، المطبعة الحديثة ،(د.ب) ،2011، ص ص 26.27.

[14]. تقي الدين المقريزي، المصدر السابق ص15.

[15].نفسه .

[16] الاصطخري، **مسالك الممالك** ، مكتبة المصطفى ، (د.ب) ،(د.د.ن)، (د.ت)، ص 6

[17]. أطلق عليها المقريزي اسم ممالك الزيلع بينما العمري أطلق عليها اسم ممالك الطراز الإسلامي والبعض الآخر من المؤرخين اسم السلطنات السبع لأنها سبع ممالك للمزيد أنظر تقي الدين المقريزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، مكتبة المصطفى ، (د.ب) ،(د.د.ن)، (د.ت)، ص 224

[18]. نور الدين شعباني، **دروس ومحاضرات في مادة انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء،** مطبوعة بيداغوجية موجهة إلى السنة الأولى ماستر ، أستاذ محاضر في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء – خميس مليانة الجزائر، ص 127.

[19]. عبد الله حسين، **المسألة الحبشية،** مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة، 2012، ص 2.

[20]. أبي العباس أحمد القلقشندي، **الصبح الأعشى،** الج 5، دار الكتب الخديوية المطبعة الأميرية، القاهرة 1915،ص 302.303

[21]. إن معلومات العمري حول الباب الثامن المتعلق بالحبشة بشكل خاص وبقية الأبواب بشكل عام لم تأتِ من مشاهدته وزيارته لتلك الأماكن، بل جاءت من خلال عمله في ديوان الإنشاء في مصر وإطلاعه على الكثير من المراسلات الرسمية بين حكام مصر وحكام بقية الدول ومنها الحبشة، وكذلك من لقائه بعدد من المصريين الذين زاروا الحبشة، أو من الأحباش الذين زاروا مصر كالشيخ عبد الله الزيلعي والشيخ الصالح عبد المؤمن ، والتاجر فرج القوي، وغيرهم من الفقهاء،الذين زودوه بمعلومات غزيرة عن الممالك الإسلامية في بلاد الحبشة. للمزيد أنظر: أكرم جميل بشير ملاح، **ممالك المسلمين في الحبشة من خلال كتاب مسالك الإبصار في ممالك الأمصار لأبن فضل الله العمري، مجلة آداب الرافدين ، الع 56، 2008**، ص3.

[22] قبيلة بلي هي قبيلة من قبائل قضاعة استقرت في شمال الجزيرة العربية كما عرفت هجرات متعددة ، وانتشرت بين صعيد مصر والحبشة ، وكان لها دور في الحضارة العربي الإسلامية معروفة بين القبائل بالوفاء والكرم والشجاعة والأمانة ونبل الأخلاق، نصرت الإسلام والدعوة الإسلامية منذ الوهلة الأولى من الدعوة وجاء وفدها لرسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول من السنة التاسعة للهجرة الذي سمي بعام الوفود .للمزيد أنظر :سلامة محمد الهرفي البلوي : **أضواء على دور قبيلة بلي في الحضارة العربية الإسلامية** ، كتبه ونقله على الشبكة العنكبوتية موسى بن الربيع البلوي ، www.bluwe.com. أطلع على الموقع يوم 22-11-2022.على الساعة 23:10.ص ص 1وماتلاها.كذلك قامت بتأسيس إمارة خاصة بها في الحبشة سميت إمارة بلي، ووقفت في وجه حركة المد التنصيري في بلاد البجة التي كانت مستهدفة من قبل عدة قوى، مثل مملكة أكسوم والكنيسة القبطية المصرية في عصور ماقبل الإسلام أي قبل القرن السابع الميلادي .

[23] . شهاب الدين أحمد بن يحي العومري،**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق :حمزة أحمد عباس ،الج4، إصدارات المجمع الثقافي، (د.ب)، 2002، ص61 وماتلاها.

[24]. تقي الدين المقريزي،الإلمام، المصدر السابق، ص 26.28.

[25] .يوسف أحمد، **الإسلام في الحبشة**، ط، 1، مطبعة حجازي، بالقاهرة، 1935 ص 153.

[26] .تقي الدين المقريزي، الإلمام، المصدر السابق ، ص 3.

[27] . المصدر نفسه ، ص 26.29.

[28]. ضيف الإسلام بدوي بشير،**البلاط الإثيوبي والزعماء المسلمون بالحبشة حتى عام 1525م** جامعة إفريقيا العالمية مجلة بحوث نصف سنوية، الع 24،1421هـ، ص 185.

[29] .أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي الإسلامي والدول الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء منذ دخلها الإسلام حتى الآن**،ط5 ، الهيئة العامة الإسكندرية ، القاهرة ، 1990.ص 390.

[30] .ضيف الإسلام بدوي بشير، المرجع السابق، ص 185.

[31] . الفقي هند عبد المجيد، **الصلات بين حضارات وادي النيل ومملكة دعمت ببلاد الحبشة في الألفية الأولى قبل الميلاد**، مجلة الإتحاد العام للأثريين العرب،2017؛ الع 18. ص 17.768.

[32] عرف الملك عيزانا في الكتابات التراثية بفن النقش ، ومن النقوش الأثرية التي خلفها نجد نقوش حول البيئة الكوشية التي عاصرته في بلاد النوبة، حيث أوضح من خلالها علاقة البيئة بالإنسان وما يتصل بهما، مثل الحيوانات التي لها عدة مدلولات دينية واقتصادية في حياة الفرد الكوشي.للمزيد أنظر: محمد فيصل عبد الله عمر :**البيئات الكوشية في ضوء نقش الملك عيزانا خلال القرن الرابع الميلادي**،أعمال المؤتمر التاسع عشر للاتحاد العام للأثريين العرب –دراسات في أثار الوطن العربي،المنصورة ، الاتحاد العام للأثريين العرب واتحاد الجامعات العربية نوفمبر ، 2016، الصفحات 269-301، ص.ص 370-396. بالإضافة إلى ذلك انه يعد من أشهر ملوك مملكة أكسوم خلال القرن الرابع الميلادي عرف عهده ازدهار حضاري للملكة واشتهر بعلاقاته مع عدة ملوك وسلاطين عصره من بينهم ملوك وقساوسة روما، و في عهده دخلت النصرانية إلى الحبشة .

[33] . يقول المقريزي: النصارى أتباع عيسى نبي الله ابن مريم عليه السلام، سموا نصارى، لأنهم ينتسبون إلى قرية الناصرة من جبل الجليل، بالجيم، ويعر ف هذا الجبل بجبل كنعان، والأصل في تسميتهم نصارى أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام لما ولدته أمه مريم ابنة عمران ببيت لحم خارج مدينة بيت المقدس، ثم سارت به إلى أرض مصر وسكنتها زماناً، ثم عادت به إلى أرض بني إسرائيل قومها، نزلت قرية الناصرة، فنشأ عيسى وقيل له يسوع الناصري، فلما بعثه الله تعالى رسولاً إلى بني إسرائيل، وكان من شأنه ما ستراه، إلى أن رفعه الله إليه، تفرق الحواريون، وهم الذين آمنوا به، في أقطار الأرض يدعون الناس إلى دينه، فنسبوا إلى ما نسب إليه نبيهم عيسى ابن مريم، وقيل لهم الناصرية. للمزيد أنظر: تقي الدين المقريزي،**المواعظ والاعتبار** ، المصدر السابق، ص 1106 وماتالاها.

[34] .فتحي غيث، **الإسلام والحبشة عبر التاريخ**، اهداءات، جراح بالمستفتي الملكي القصري، (د.ب) ،2001، ص38.39

[35] . إيمان سليمان، **للحبشة تاريخ قديم الأسرة السليمانية من الملك منليك إلى الإمبراطور هيلاسلاسى** ، مجلة الأهرام، الع47239، 2016، ص ص 1.3.

[36] . كريستين شايبو، **الكنيسة الأرثوذكسية الإثيوبية (تيواهيدو) مدخل موجز إلى حياتها وروحانياتها**، (د.د.ن)، باريس، 2002. ص04.

[37] . نجاشي: هو لقب يطلق على أي ملك يحكم بلاد الحبشة ، أصله معرب من كلمة "نيجو ستي" ومعناها ملك ، إذن النجاشي ليسا اسما لشخص بعينه، وإنما هو لقب لملك الحبشة الذي يعلو كرسي الحكم . مثل ملك الفرس الذي تسميه العامة **كسرى** وهو شاهنشاه، ملك الروم الذي تسميه العامة **قيصر** هو" **باسيل**"،ملوك الترك والتبت

والخزر كلهم **خاقان**، ملك الصين **بغبور**، ملك الهند الأكبر **بلهرا** أي ملك الملوك، ومن ملوك الهند "جابة" وملك الطافن وملك الجزر وغابة، ملك النوبة **كابيل**، وملك الصقالب **قناز**.للمزيد أنظر: زينب التومي، **العروبة والإسلام في شرق إفريقيا**، دار الخلدونية للنشر، الجزائر ، 2020ص 31، و ابن خرداذبة،**المسالك والممالك** ، مكتبة المصطفى، (د.ب) ،(د.د.ن)، (د.ت)، ص9.

38 أول كنيسة تمت إقامتها في مصر وإفريقيا هي الكنيسة المرقسية بالإسكندرية التي أسسها القديس مرقس خلال القرن السادس الميلادي، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت الكنيسة الإثيوبية ذات صلة بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية خاصة لما تخلصت الكنيسة الإثيوبية من محنة التحول إلى المذهب الكاثوليكي للمزيد أنظر: رباب عادل حسن صالح : **الكنيسة المرقسية بالإسكندرية** ، مؤتمر الفيوم السادس لكلية الآثار، الجزء الثاني ، جامعة الفيوم،2007،الصفحات 971-964.، ص1.هبة يسرى أبو الوفا: **دور المطارنة المصريين في التاريخ الإثيوبي (1635–1699) دراسة وصفية من واقع بعض النصوص الجعزية**، مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد ، الع19، 2022، ص 355.ولتوضيح أكثر كان يتم إيفاد قساوسة وبطاركة من الإسكندرية إلى بلاد الحبشة وذلك كل سنة خلال عهد الأسرة السليمانية.

39 . أطلع على الموقع الإلكتروني **عربي بوست**: يوم 11-04-2022، على الساعة 11:20

40 فتحي غيث، المرجع السابق، ص107.

41 يمثل كتاب حامد إسماعيل علي من أهم المراجع التاريخية التي تحدثت عن الأسرة السليمانية وملوكها وما تلقاه المسلمين من الويل والعناء، لكننا لما نستقرأ صفحاته نجده مركزا كل التركيز على طبيعة العلاقة بين الأسرة السليمانية ودولة المماليك المصرية، هذه العلاقة تباينت بين الصبغة الدينية من خلال إرسال المطران من الإسكندرية إلى الحبشة ، وسياسية من مضمون السفارات التي جمعت ملوك الدولتين؛ بالإضافة إلى الاقتصادية ذات الطابع العدائي بمعلومات غريرة . إلا أنه لم يرّكز بشكل كافٍ حول طبيعة العلاقة الاجتماعية بين مسلمي الحبشة وفئة الأحباش المسيحيين. للمزيد أنظر: إسماعيل حامد إسماعيل علي، **تاريخ ممالك إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الوسيط**، ط1، دار المصورات، الخرطوم، 2021، ص 135-143

42 فتحي غيث، المرجع السابق، ص 33.

43 .إيمان سليمان، المرجع السابق، ص 4.

44. H.M. Jones and Elizabeth Monroe ; op ; cit, p.p11.20

45 سورة سبأ الآية 10

46 . فحي غيث، المرجع السابق، ص ص 34.35.

47 . تكلي صادق ميكوريا، **أكسوم والمسيحية** ، ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام، المج 2،حضارات إفريقيا القديمة ، المشرف على المجلد، جين أفريك اليونسكو ، 1985، ص 408.

48 . شهاب الدين ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 430.434.

[49] .فتحي غيث، المرجع السابق، ص 139.

[50] . النصراني في مفرده يجمع على النصارى وناصرة هي قرية في الجليل نشأ فيها المسيح عليه السلام ، أما النصرانية اسم دين النصارى ، كما أنها الديانة التي تهدف إلى تحويل الناس عن ديانتهم والدعوة إلى دين جديد ونشر عقيدته بالوسائل والأساليب المتنوعة كما أنه يهدف إلى تشكيك الأمم في تاريخهم وعقيدتهم وزعزعة كامل هويتهم ؛ وبذلك يجب التفريق بين التبشير والتنصير لأنهم ليجتمعان في سياق واحد ، فالتبشير يكون بدين عيسى أو دعوته الصحيحة غير التنصير الذي يدعوا إلى النصرانية التثليثية " الأب ، الابن ، وروح القدس". للمزيد أنظر عبد الرزاق عبد المجيد ألورو، **التنصير في إفريقيا**، الإدارة العامة للثقافة والنشر سلسلة دعوة الحق ، كتاب شهري محكم رابطة العالم الإسلامي، 2008، ص ص 14.16.

[51] .يوسف أحمد، المرجع السابق، ص 20.

[52] . تقي الدين المقريزي، الإلمام ، المصدر السابق، ص 22.

[53] .عرفت إفريقيا جنوب الصحراء كغيرها من بلاد الغرب الإسلامي انتشار المذهب الشيعي خاصة لما تغلب الفاطميون على الأغالبة وتمكنوا من القضاء على الدول الخارجية الصفرية المدرارية في سجلماسة و الرستمية في تاهرت خلال القرن الثالث الهجري (9م) وسع لهم المجال لنشر التشيع في السودان الغربي عن طريق القوافل التجارية المارة.وأنا أرى أنها لما انتقلت إلى القاهرة وأسندت الحكم في بلاد الحبشة إلى قبيلة ربيعة الحجازية، ونظرا لطبيعة العلاقة التي جمعتهم، فإنها تمكنت من نشر المذهب الشيعي على يد حلفائها من بني الكنز؛ ودليل ذلك أنها لقبتهم "بكنز الدولة". هذا وإن سكتت غالب الكتابات التاريخية عن ذلك، إلا أننا لما نتتبع الأحداث خلال عهد "صلاح الدين الأيوبي" ومقام به حكام كنز الدولة في الحبشة من محاولة إسقاط حكم بني أيوب في مصر وإرجاع حكم الدولة الفاطمية من جديد يتضح لنا ذلك بجلاء. للمزيد أنظر: مسعودي خالد: **المذاهب الإسلامية في ممالك السودان الغربي في العصر الوسيط**،مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، المج33،العـ1، الصفحات 697-709، 2019، ص 686. عطية القوصي: **تاريخ دولة الكنوز الإسلامية**، القاهرة ، منتدى سور الأزبكية، 2000. و عوض عبد الجليل أبو بكر محمد : **إمارة ربيعة في وادي العلاقي بأرض البجة من 132ه/750م وحتى سنة 815ه/1412م**، مجلة القلزم ، العـ2020،2

[54] . من فرق النصارى نسبة إلى" يعقوب البرذعاني" أحد رهاب القسطنطينية.

[55] . محمد الحافظ محمد النقر، **الصراع الإسلامي المسيحي في الحبشة في فترة الأسرة السليمانية الحبشية 1280-1559م**، مجلة الدراسات إفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم- السودان ، العـ87، ص 127.

[56] نفسه.

[57] . نور الدين شعباني، المرجع السابق، ص 126

[58] . فتحي غيث، المرجع السابق، ص69.

[59] . محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص 129.

[60]. أبي العباس أحمد القلقشندي، المصدر السابق ، ص 304

[61]. محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص 130. .

[62]. تقي الدين المقريزي ، الإلمام، المصدر السابق ، ص .23

[63] .بن خيرة أحمد، **الصراع الإسلامي الزيلعي والمسيحي الحبشي من قيام الأسرة السليمانية إلى التدخل البرتغالي خلفياته ، تجلياته ، أبعاده،(669-966هـ/1270-1559م)**، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله ، 2017 /2018، ص ص6.371.

[64]. شهاب الدين بن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 61.

[65]. ضيف الإسلام بدوي بشير، المرجع السابق، ص ص 159.160.

[66] .كان ملوك هذه الأسرة يهددون سلاطين مصر بمنع ماء نهر النيل عن الجريان، لأن مملكة الحبشة هي التي ينبع منها نهر النيل وذلك في حالة حدوث توتر في العلاقات بينهم وبين حكام مصر. للإضافة ينبع نهر النيل من بحيرة فيكتوريا بدولة أوغندة حاليا، يمر على الحبشة، ويصب في البحر الأبيض المتوسط . للمزيد أنظر حامد إسماعيل علي المرجع السابق ، ص ص 136.137

[67] .تولى عرش دولة المماليك وتم تعينه مرتين، مرة لما كان صغيرا والمرة الأخرى لما كبر وعمره آنذاك أربعة وعشرون سنة، كان أول عمل قام به هو تعيين نائب الأمير وأمير على المطابخ السلطانية، من إنجازاته الخارجية انتصاره على المغول في بلاد الشام، والقضاء على الأعراب الذين كانو ينهبون المدن والقرى؛ و نتيجة لذلك تم توجيه الكثير منهم إلى شرق إفريقيا وتحديدا إلى سودان وادي النيل. للمزيد أنظر:أسامة حسن: **ناصر محمد بن قلاوون**، دار الأمل للنشر والتوزيع،(د.ب)، 1997، ص11 وماتلاها.

[68]. فتحي غيث: المرجع السابق، ص 116.126.

[69] . H.M. Jones and Elizabeth Monroe ; op ; cit, p14.15.

[70]. ضيف الإسلام بدوي بشير، المرجع السابق، ص 194.

[71].نفسه.

[72] .محمد جاب الله علي حليم ،**الدين الأدب والترجمة في الحبشة في عهد الأسرة السليمانية 714هـ-967هـ/1314-1559م**، حولية سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط مجلة سنوية محكمة تعني بالتاريخ الإسلامي والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد 8، القاهرة، ص 140.

[73]. أحمد بن خيرة، المرجع السابق، ص ص377.378.

[74].R.H.CHarles : Book of Jublleesor the Little Genesis teanslated Feom the Editors Ethiopic Textand Edited, with introduction, Notes, And Indices, Adamand charles Black, London, 1902, p.p3.

[75] . H.M. Jones and Elizabeth Monroe ; op ; cit, p.p14.19

[76] .By Rev .Michael Russeell ; History Nubia And Abyssinia, Suerotype Edition, 1833, p.p., 1.9.

[77]. فتحي غيث، المرجع السابق، ص 110.

[78]. المرجع نفسه، 112.

[79]. محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص ص 130.139.

[80]. ت : تامرات، المرجع السابق، ص 441.

[81]. محمد جاب الله علي حليم، المرجع السابق، ص 157.

[82]. نفسه

[83]. R.H.CHarles: op ; cit, p.3.12

[84]. محمد جاب الله علي حليم، المرجع السابق، ص ص146.151.

[85] .William Brendon: Legends of Our lady Mary The Perpetual And Her Mother Hanna, printed in Great Britain, 1837, p.p.2.11

[86]. محمد جاب الله علي حليم، المرجع السابق، ص 144.

[87] . المرجع نفسه ، ص 146.

[88] . R.H.CHarles : op ; cit, p.p14.19.

[89] . محمد جاب الله علي حليم، المرجع السابق، ص 18.

[90] . المرجع نفسه، ص 149.

[91] . H.M. Jones and Elizabeth Monroe: op ; cit, p.p35.39.

[92].الفيولوجيا : هو علم دراسة اللغة عبر الوثائق المكتوبة ، ويدخل في نطاقه أيضا دراسة النصوص وانتقالها ، فمثلما يدرس علم الآثار المخلفات المادية للماضي ، فإن علن الفيولوجيا التاريخية يهتم بدراسة الكلمات وتاريخها وتطورها ، وتطور مضمونها ، واستخلاص المعلومات التي تزخر بها، فهي تقدم خبرات لإعادة بناء الماضي . للمزيد أنظر : كريم ولد النبية ، **دراسة فلبيولوجية لإصلاحات ابن خلدون** ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، الع 05، 2006، ص243.

[93]. كريستين شاييو، المرجع السابق ، ص 112.

[94]. محمد جاب الله علي حليم، المرجع السابق، ص 112.

[95] . عبد الهادي التازي ، **ابن ماجد والبرتغال**، (د.د.ن)، ط2،(د.ب)، 2005 ص9

[96]. نور الدين شعباني، المرجع السابق.ص125.

[97]. ضيف الإسلام بدوي بشير، المرجع السابق، ص 190.

[98] . H.M. Jones and Elizabeth Monroe:op ; cit, p.p., 22.27.

[99]. علي حسين الشطشاط، المرجع السابق، ص 255 .

[100]. محمد جاب الله علي حليم، المرجع السابق، ص 171.

[101]. ضيف الإسلام بدوي بشير، المرجع السابق، ص 197.

102 .المقدسي شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمان ابن إسماعيل ابن إبراهيم، **الروضتين في أخبار الدولتين**، الج1، مطبعة نيل مصر ، القاهرة ، 1687، ص625.

103 . حسن عبد الجليل عبد العزيز لعروسي،**ممالك الطراز الإسلامي في بلاد الحبشة 600هـ–900هـ/1200–1500م**، رسالة ماجيستر،2007، الخرطوم – السودان، ص 10 11.

104 . H.M. Jones and Elizabeth Monroe : op ; cit, p15.

105 .محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص140.

106 .تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ص 36.

107 .H.M. Jones and Elizabeth Monroe : op ; cit, p.p26.30.

108 . شهاب الدين ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 63.

109 لم تكن مسألة هدم بيوت العبادة للمسلمين مرتبطة بعهد الأسرة السليمانية بل سبقتها الأسرة الزاغوية في ممارسة الضغط على المسلمين، لقد أسهم الخلفاء الفاطميين في الضغط على قساوسة الكنيسة واشترطوا عليهم رعاية جانب المسلمين والاهتمام ببناء المساجد و الإكثار منها، فثار المسيحيون بالحبشة قائلين أن هذه المساجد لا لشيء سوى استعمال تجارب العرب ، وقام ملك الحبشة بهدم المساجد السبعة التي تم بناؤها ،كما أصدر عدة قيود على نشاط التجار المسلمين. للمزيد أنظر: محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص 141.

110 أحمد بن خيرة، المرجع السابق، ص 366.

111 محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص 407.

112 عطية مخزوم الفيتوري، **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)**، كلية الآداب منشورات جامعة قراينيوس، ط1، بنغازي، 1998، ص 165.

113 . محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص 61.

114 . شهاب الدين ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 62.

115 . H.M. Jones and Elizabeth Monroe : op ; cit, p33

116.أبي العباس أحمد ابن يحي القلقشندي، المصدر السابق، ص 333.

117 محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص 19.

118. H.M. Jones and Elizabeth Monroe:op ; cit, p.p., 50.53

119 . علي حسين الشطشاط، المرجع السابق، ص206.

120 . نفسه.

121 . محمد الحافظ محمد النقر، المرجع السابق، ص 4.

122 . المرجع نفسه،ص9

123 محمد الحافظ النقر، المرجع السابق، ص ص 10.11.

124.شهاب الدين أحمد ابن عبد القادر ابن سالم ابن عثمان، **فتوح الحبشة**،(د.د.ن)، لندن، 18 لندن، ص 20.

[125] .علي حسين الشطشاط، المرجع السابق، ص205.

[126].تقي الدين المقريزي، **الخبر عن أجناس السودان** ، مخطوط مصور ، المكتبة الوطنية الفرنسية ، 1744، ص 199

[127] . من سلاطين الدولة المملوكية وطد سلطانه ثم نظم الإدارة خاصة مع الأعراب وبلاد النوبة، واتبع سياسة دينية وهي محاولة نشر الإسلام في الجهة الجنوبية من الصعيد المصري عن طريق القبائل العربية المهاجرة التي كانت تواجدت هناك، اشتهر بعدائه للصلبين ووقوفه إلى جانب المسلمين المتواجدين في الحبشة،كما انتشرت في عهده المجاعات التي صاحبتها حركة علمية وأدبية واسعتين للمزيد أنظر: ميخائيل نجم خوري: **سيرة الملك السلطان الظاهر بيبرس (658-676ه)-(1260-1277م)**،جامعة بيروت، بيروت لبنان، مذكرة ماستر ، 1961، ص 68 وماتلاها.

[128] .فتحي غيث، المرجع السابق، ص.ص 123.113.

[129] . يوسف أحمد، المرجع السابق، ص 32.

[130] .فحي غيث، المرجع السابق، ص 92.

[131] . علي حسين الشطشاط، المرجع السابق، ص 208.

[132] .ضيف الإسلام بدوي بشير، المرجع السابق، ص 124.

[133] . يوسف أحمد، المرجع السابق، ص64.191.

[134] . ت ، تامرات، المرجع السابق ، ص429.

[135] علي حسين الشطشاط ، المرجع السابق،ص 207.

[136] . H.M. Jones and Elizabeth Monroe:op ; cit, p.p., 44.50

[137] .محمد جاب الله علي عبد الحليم، المرجع السابق، ص 152.

[138] .فتحي غيث، المرجع السابق، ص 108.

[139] .عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 163.

[140] . فتحي غيث، المرجع السابق، ص 109.

[141] . عماد الدين إسماعيل بن محمد أبي الفدا ،**تقويم البلدان**، تح: ماك كوكين دايلان، (د.د.ن) ، باريس ، 1750،ص 141

[142] . ضيف الإسلام بدوي بشير، المرجع السابق، ص 125.

[143] . المرجع نفسه، ص 167.

[144] . تقي الدين المقريزي، الإلمام، المصدر السابق، ص 210.

[145]. كان السلطان حق الدين أو كما سمي "أحمد حرب أرعد" الذي حكم بين (766-776ه1364-1374م) شديد الغيرة على الدين الإسلامي، ومن مظاهر ذلك رفضه دفع الجزية لملك الحبشة وقام بمحاربته، بالإضافة إلى ذلك

فقد أشاد به المقريزي أنه كان قوي النفس مقداما قوي النفس مهابا، حيث أسلم على يديه جمع غفير من أهل الحبشة، واستمر في الجهاد إلى غاية وفاته.للمزيد أنظر: السيد أحمد الباز، المرجع السابق ، ص ص77.78

[146].علي حسين الشطشاط، المرجع السابق، ص 207.

[147]. أحمد شلبي، المرجع السابق، ص398

[148]. تقي الدين المقريزي، الإلمام، المصدر السابق، ص207.

[149]. إسماعيل العربي، **حاضر الدول الإسلامية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (د.ت) ، ص 343

[150]. تقي الدين المقريزي، الإلمام، المصدر السابق، ص ص 209.210.

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية
ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820
ASJP Algerian Scientific Journal Platform

المجلد: 02، العدد: 01	رجب 1444هـ/فيفري 2023م	الصفحات: 124-146

المظاهر الحضارية في الجزائر على ضوء الرحلة المغربية خلال القرن الثامن عشر الميلادي (العمران انموذجا)

Civilizational manifestations in Algeria in the light of the Moroccan journey during the eighteenth-century AD

حياة بوشريبشة*
جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف (الجزائر)
boucheribchahayette@gmail.com

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال 2022/10/02 تاريخ القبول 2022/11/18 الكلمات المفتاحية: الرحلة المغربية؛ الجزائر؛ المظاهر الحضارية؛ العمران؛ القرن الثامن عشر الميلادي.	تتناول هذه الدراسة البحث في التاريخ الثقافي والجوانب الحضارية للمدن الجزائرية في الفترة الحديثة، وهذا من خلال عرض لأهم ما اشتملت عليه كتب ومصنفات الرحلة المغربية خلال القرن الثامن عشر الميلادي من معلومات تاريخية وعلمية تخص مختلف الجوانب الحياتية في هذه الفترة، خاصة الجانب العمراني الذي يعد مظهرا من المظاهر الحضارية، والذي على أساسه يقاس تطور وازدهار الشعوب، وتعد الرحلات المغربية بتنوع أغراضها وأهدافها سواء حجية أو علمية أو لأغراض أخرى، مصدرا هاما وأساسيا لكتابة التاريخ المحلي للمدن الجزائرية، وقد ركزنا على عرض صورة العمران الجزائري في هذه الفترة، لما احتوته هذه الرحلات من وصف للمنشئات الحضارية المختلفة، الدينية والمدنية والعسكرية للمناطق التي زاروها خلال رحلاتهم، خاصة المدن التي تقع في خط سير قوافل الحجيج، وقد اهتم الرحالة المغاربة بالجانب العمراني والحضاري من خلال وصفهم ما شاهدوه من المعالم والأثار التي صادفوها في طريق سيرهم، وقد تطورت صورة العمران بالجزائر في الفترة المدروسة نظرا لاهتمام حكام الجزائر وأعيانها وكذلك الوافدين كالأندلسيين بالبناء العمراني، إن المجال الزماني لهذه الدراسة حددناه بالقرن الثامن عشر الميلادي؛ أين شهدت الحركة الرحلية المغاربية نقلة نوعية و تزايدا كبيرا سواء في الجزائر أو في بلاد المغارب، أما الإطار المكاني فقد حاولنا الإلمام بكل مناطق إيالة الجزائر التي كانت معبرا لتلك الرحلات خلال القرن الثامن عشر الميلادي.
Article info	Abstract:

* المؤلف المرسل

This study deals with research in the cultural history and civilizational aspects of the Algerian cities in the modern period, and this is through a presentation of the most important contents of the books and works of the Moroccan journey during the eighteenth century AD of historical and scientific information related to the various aspects of life in this period, especially the urban aspect, which is a manifestation Of the manifestations of civilization, on the basis of which the development and prosperity of peoples is measured, and Moroccan trips, with the diversity of their purposes and objectives, whether authentic, scientific or for other purposes, are an important and essential source for writing the local history of Algerian cities. From a description of the various cultural, religious, civil and military establishments of the areas they visited during their trips, Especially the cities that are located in the itinerary of the pilgrims' convoys, and the Moroccan travelers were interested in the urban and cultural aspect by describing what they saw of the monuments and monuments that they encountered on the way of their journey. The temporal scope of this study is defined by the eighteenth-century AD; Where has the Maghreb nomadic movement witnessed a qualitative leap and a great increase, whether in Algeria or in the Maghreb countries? As for the spatial framework, we have tried to familiarize with all the regions of the province of Algeria, which was a gateway to those trips during the eighteenth-century AD.

Received:
2022/10/02
Accepted:
2022/11/18

Key words:
Moroccan flight; Algeria; cultural manifestations; urbanization; Eighteenth century AD.

مقدمة:

شهدت إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر عدة تحولات وتطورات مست جوانب مختلفة، حيث كانت من أهم المراكز التي يقصدها الرحالة والعلماء لنشر العلم والثقافة، وتعد الرحلات من أهم وأصدق المصادر التاريخية التي لا يستغني عنها الباحث أو المؤرخ، فهي تصور العديد من الجوانب المهمة وتتضمن معلومات عديدة حول مختلف المناطق التي زارها الرحالة أو مروا بها، وتختلف كتابات الرحالة عن غيرهم كونها أدق وأعمق وأشمل؛ حيث اهتموا وركزوا على جميع جوانب ومظاهر الحياة، خاصة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والحضارية، وشهدت الحركة الرحلية في القرن الثامن عشر الميلادي نقلة نوعية بسبب استقرار الأوضاع السياسية بالمغرب، فأولت الدولة المغربية أهمية كبيرة لركب الحج المغربي، وقد صور الرحالة المغاربة المدن الجزائرية رغم اختلاف أهداف رحلاتهم، سواء حجية أو تجارية أو علمية أو دبلوماسية، من خلال وصفهم لما شاهدوه من معالم منذ انطلاقهم إلى غاية وصولهم، كما اهتموا كذلك بالجانب العمراني، من خلال تركيزهم على وصف المنشآت العمرانية للمدن والأماكن التي مروا بها، كالمساجد والمدارس، والزوايا والأضرحة والأسواق، التي ميزت كل منطقة وكل ما صادفوه في طريقهم سواء البرية أو البحرية، ويعد التطرق للمعالم العمرانية من مميزات الرحلات المغربية.

وتعد المعالم العمرانية من المظاهر الحضارية التي يقاس بها تطور الشعوب، وقد كان للجزائر في الفترة الحديثة نصيب وافر ومكانة كبيرة؛ إذ اهتم بعض الدايات والبايات بتشييد العديد من المساجد والزوايا والقصور والوقف لها لتخليدا لذكراهم، بعد إدماج العمارة العربية الإسلامية مع العمارة الأندلسية والعثمانية مما أعطاها طابعا مميزا.

فما هي ملامح المظاهر الحضارية العمرانية التي جسدتها كتب الرحلة المغربية في القرن الثامن عشر الميلادي؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسية عدة تساؤلات فرعية منها:

-ما هي أهم الرحلات المغربية التي تحدثت عن الجوانب الحضارية في القرن الثامن عشر الميلادي؟

-كيف صور الرحالة المغاربة العمارة الدينية في المدن الجزائرية خلال القرن الثامن عشر الميلادي؟

-ما هي أهم المعالم المدنية التي جاء ذكرها في الرحلات المغربية؟

-ما هي ملامح العمارة العسكرية التي انتشرت في تلك الفترة؟

ونهدف من خلال هذه الدراسة إلى إبراز صورة المظاهر الحضارية في المدن الجزائرية، من خلال ما جاء في كتب الرحلة المغربية خلال القرن الثامن عشر الميلادي، ووصف المنشئات العمرانية الدينية، من جوامع ومدارس وزوايا وأضرحة، والمدنية، كالبيوت والقصور، والعسكرية، كالأبراج والحصون، والمظاهر الحضارية والثقافية التي كانت تزخر بها المدن الجزائرية في تلك الفترة، وإبراز مدى اهتمام الحكام في الجزائر بالعمارة خاصة المساجد التي لعبت دورا كبيرا في تلك الفترة.

وقد اتبعنا في هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي لوصف المنشآت العمرانية المختلفة.

1- نماذج لأهم الرحلات المغربية خلال القرن الثامن عشر الميلادي

عرف القرن الثامن عشر الميلادي تزايدا ملحوظا للرحلات المغربية إلى المدن الجزائرية، كما اختلفت أنواعها وأهدافها، وهذا بسبب الاستقرار السياسي، وتشجيع الحكام للحركة الرحلية خاصة الرحلات الحجازية، وسوف نعرض في هذه الدراسة أهم هذه الرحلات.

1.1 الرحلة الناصرية (1709م-1710م) لأبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي:

هو أحمد بن محمد بن حسين الناصري الدرعي أبو العباس المدعو الخليفة، ولد في منتصف ليلة الخميس الثامن عشر من رمضان سنة (1057هـ-1647م)، وعاش في أسرة شهيرة بالعلم والتصوف وتوفي سنة (1128هـ)، وتعد الرحلة الناصرية من أهم مؤلفاته، فهي نص تاريخي وأدبي، ومعجم للبقاع والأماكن لما تحتويه من أسماء القرى المندثرة، وقد اعتمد على رحلته بعض العلماء منهم الرحالة الجزائري الحسين الورتيلاني[1]، ويمكن الاستفادة من الرحلة في عدة جوانب ففيها الكثير من المعلومات التاريخية، حيث مزج فيها ما رآه في رحلاته السابقة عند حديثه عن المدن والحوادث، وقد عرّفنا من خلالها أن مواكب الحج كانت أشبه بالمدارس المنتقلة بعلمائها ومكتباتها، كما كان لهم الأثر الكبير في المناطق التي مروا بها[2].

2.1. الرحلة الناصرية الكبرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري:

وهو ابن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي التامكروتي، ولد سنة (1145هـ-1732م)، وتلقى تعليمه بمقر الزاوية الناصرية، ثم انتقل إلى فاس وأخذ عن مشاهيرها، وبعدها ورحل إلى المشرق مرتين لأداء فريضة الحج، وكتب خلالها مصنفه "الرحلة الناصرية الكبرى"، وتصنف هذه الرحلة من أهم الرحلات الحجازية، وهي تنفرد بإفادات مهمة نتجت عن المشاهدة والاحتكاك وهي وثيقة تاريخية وجغرافية، تحتوي العديد من المعارف التي تخص المناطق والمجتمعات التي مر بها، وهي تعبر عن التواصل بين المغرب والمشرق[3].

3.1. رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية لأبي محمد سيدي الشرفي بن محمد الإسحاقي (توفي بعد 1150هـ.)

وهو عبد القادر المدعو الجيلالي السحاقي من منطقة ايت إسحاق النازلين بلاد ملوية، كان يحضر مجالس الأذكار ويهتم بالطرق الصوفية القادرية والشاذلية، وشغل منصب وزير في البلاط الملكي[4].حج الإسحاقي سنة (1143هـ-1731م) وكانت رحلته متزامنة مع رحلة الحضيكي الذي توفي عام (1150هـ)، وتعد رحلته من أهم الرحلات المغربية، وذات قيمة تاريخية وسياسية؛ حيث دونها بطلب من السلطان المولى عبد الله الذي أراد أن يخلد ذكرى حج والدته.، والرحلة هي عبارة عن وفادة رسمية تضم بالإضافة إلى أم السلطان ونجله، نخبة من العلماء والفقهاء يتصدرهم الإسحاقي[5].

4.1. **رحلة ابن الطيب المشرفي من فاس إلى مكة المكرمة:** لفخر الدين محمد الطيب الذي عرف بابن محمد بن موسى الفاسي المعروف بالشرقي، نسبة إلى الشراقة، وهي بالقرب من فاس، ولد بفاس سنة (1110هـ) ونشأ بها وكان واسع الاطلاع قوي المعارضة، وقد رحل إلى مكة ثم إلى الشام والروم، وتعد رحلته من فاس إلى مكة المكرمة، من أهم المصادر التاريخية التي تؤرخ للفترة الحديثة[6].

5.1. الرحلة الحجازية: للعلامة الفقيه ابي عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي توفي سنة (1189هـ):

هو العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد المشهور بالحضيكي ولد سنة (1118هـ)، بسوس جنوب المغرب، ثم تلقى مبادئ التربية والتعليم على يد والده، واهتم بالرحلة لأخذ العلم من علماء الأقطار؛ فارتحل إلى الشرق وكتب مصنفه خلال رحلته الحجازية، وجمع خلالها العديد من الكتب الثمينة توفي سنة (1189هـ). وتعتبر رحلته الحجازية امتدادا لما سبقها من الرحلات الحجازية التي دونها الحجاج وسجلوا فيها انطباعاتهم عن المناطق التي زاروها ومروا بها، وما شاهدوه من مواقع وبقاع وأثار، ونص الرحلة هو عبارة عن تقرير مفصل عن حركة سير الرحلة وأصحابها ذهابا وايابا[7].

6.1.الرحلة الزيانية الترجمانة الكبرى: لأبي القاسم الزياني: هو أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الزياني، ولد في مدينة فاس سنة (1147هـ) الموافق ل (1734م)، ينتسب إلى قبيلة زيان، نشأ أبو القاسم الزياني بمدينة فاس وتعلم بجامع القرويين؛ مما أكسبه ثقافة جيدة في علوم الدين واللغة والأدب، ويعد كتابه "الترجمانة الكبرى" في أخبار المعمور برا وبحرا، من أهم المصادر؛ حيث جمع فيها رحلاته الثلاث وسجل فيه الكثير من فصول التاريخ القديم والحديث، بالإضافة إلى الأحداث السياسية الكبرى التي حدثت في عصره وساهم فيها عندما كان كاتبا، ثم وزيرا للسلطان[8].

2- المراكز الثقافية والعلمية

أخذت المراكز الثقافية والدينية حيزا كبيرا من اهتمامات الرحالة المغاربة خلال رحلاتهم، حيث ركزوا على وصف المنشئات الدينية، لما كان لها من مكانة كبيرة ودورا هاما سواء في العبادات، أو تعليم وتحفيظ القرآن الكريم، ومن أهم المنشئات الدينية التي جاء ذكرها في كتب الرحلة المغربية نجد:

1.2.المساجد: كانت المساجد أول مكان يزوره الرحالة، وعلى هذا الأساس فقد سجل الرحالة المغاربة زيارتهم للمساجد بكل المناطق التي مروا بها، باعتبارها من أهم المنشئات والمعالم الدينية، و بحكم أن المسجد كان مكانا لأداء العبادات، ونشر العلم وتحفيظ القران الكريم[9]، وقد انتشرت المساجد والجوامع في كل المدن والقرى الجزائرية؛ إذ لا تخلو أي منطقة من وجود مسجد رغم الاختلاف في مساحاتها وتصميمها، وقد شهد القرن الثامن عشر الميلادي تطورا كبيرا في بناء المساجد، التي أخذت اهتمام الحكام العثمانيين الذين شيدوا الكثير منها تخليدا لذكراهم، وقد ورد ذكر المسجد في كل الرحلات المغربية نذكر منها؛ مسجد الجزائر الأعظم، الذي بناه يوسف بن تاشفين، والذي يعد من أكبر المساجد وأقدمها، وكان يقصده الرحالة للاجتماع بالأعيان والأعلام وأهل المحابر والأقلام[10]، ويسمى كذلك بالمسجد الكبير، ويعتبر أفخم بناء معماري وهو أحد المساجد الأثرية، كان جداره الغربي بالجنينة، وبشماله الشرقي مصلى للجنائز، وبه ساحة كبيرة كانت تستعمل كواجهة حربية للدفاع عن عاصمة الإيالة،

ولعب هذا المسجد دورا دينيا وتعليميا وحتى عسكريا خلال الفترة الحديثة[11]، بالإضافة إلى جامع القشاش، الذي اكتسب شهرة عظيمة خلال العهد العثماني نظير ما يقدمه من دروس في المدرسة المتصلة به والزاوية المسماة بنفس الاسم، والتي كانت من الزوايا العلمية وكان لهذا الجامع أوقافا عظيمة لشهرته وكثرة الطلبة والغرباء به[12].

أما مدينة قسنطينة التي تعد من المدن الكبرى، فاشتهرت بالمسجد العتيق، الذي جاء ذكره في "الترجمانة الكبرى" لأبي القاسم الزياني؛ حيث يذكر أنه بمجرد وصوله إلى مدينة قسنطينة أثناء رحلته الحجية، قصد المسجد العتيق واجتمع بإمامه وخطيبه[13]، ويعتبر هذا المسجد من أقدم المساجد بالمدينة، ورغم أن هناك اختلاف في تاريخ بنائه ، إلا أن الأرجح أنه بني في القرن الثالث عشر الميلادي، على يد الأمير الحمادي يحي بن عبد العزيز سنة 1236م[14]، ويقع الجامع العتيق أو الجامع الكبير بالحي الذي يعرف بالبطحاء، وهو يطل على أحد الشوارع الرئيسية بالمدينة، يتشكل الجامع من بيت للصلاة والصحن والميضأة والمئذنة[15]، ويتميز بمنبر مصنوع من الخشب يقع على يمينه المحراب له باب به قوس مزين بزخارف نباتية[16]، بالإضافة إلى مساجد أخرى عديدة بالمدينة بعضها مزال موجودا إلى يومنا هذا وبعضها اندثر بسبب الهدم والتغيير الذي حصل بالمدينة، منها جامع سيدي الكتاني، والجامع الأخضر الذين بناه صالح باي، وجامع حسن باي وجامع سوق الغزل[17].

كما أشارت كذلك كتب الرحلة المغربية إلى مساجد قرى مدينة بسكرة، التي تعد من أعظم المدن وأجمعها لمنافع كثيرة لما توفر لها من أسباب العمران، وقد اشترك الرحالة في ذكر ووصف الجامع الأعظم بمدينة بسكرة، وهو جامع جيد البنيان والاتقان له مئذنة عظيمة البنيان، وقد وصفها أبي الطيب الشرقي بقوله:"...**وصعدت مئذنته العظيمة البنيان الشهيرة الإتقان بين الأعيان الواسعة المدارج"**[18]. فهو جامع كبير جدا قديم البناء متقن وبه مئذنة مليحة عالية[19]، ولا تقتصر مدينة بسكرة على الجامع الأعظم فقط، ففي مدينة سيدي عقبة الشهيرة، يوجد المسجد الذي حمل اسمه، و الذي جاء وصفه على أنه مسجد صغير يحتوي على أربعة صفوف متسعة، وبه أسطوانات تشبه أسطوانات مسجد بسكرة، غير أن مسجد

بسكرة أتقن منه صنعة، وكانت مئذنته النصف من مئذنة مسجد بسكرة[20]، وهو مسجد عجيب وحوله قرية، وفيه مئذنة متقنة البناء، وعدد أدراجها إحدى وستون درج، وفي أعلاها عمود يزعم الحجاج أن من يمسك بذلك العمود ويحركه ويقول أقسمت عليك أيتها المئذنة بحق سيدي عقبة إلا ما تحركت، فتهتز وهو اعتقاد كان معروف عند كل الرحالة حيث يذكر ناصر الدرعي؛ أنه في حجة ستة وتسعين صعد إليها بعض من أصحابه، وشاهدوا ذلك وصدقوه، غير أن العياشي أنكر ذلك الأمر وأرجعه إلى إتقان البناء وطول المئذنة، حيث إذا اصطدمت بقوة ظهرت وكأنها تهتز، وقد يكون هو الأرجح والأصح، وقد انتشرت بين الحجيج عادة مستمرة، أنه كل من دخل المسجد يكتب اسمه على حيطانه تبركا به وتخليدا لهذه الذكرى الطيبة[21].

ومن مساجد منطقة بسكرة كذلك مسجد سيدي مبارك بخنقة سيدي ناجي، الذي كان من أهم المراكز العلمية ويعرف كذلك باسم الجامع الكبير وجامع الجمعة، ويعود تأسيسه إلى سنة 1147هـ/1734م ويعد من المعالم التاريخية الهامة في شرق البلاد، ولم يكن دوره لأداء الصلوات فقط بل كان مركزا لنشر العلم حيث كانت تقام فيه حلقات الدروس من طرف شيوخ اشتهروا بالفقه والعلم[22]، وتوجد فيه مقبرة خاصة بأولاد سيدي ناجي.

كما نال مسجد سيدي خالد الذي يعتبر من أشهر مساجد منطقة بسكرة مكانة كبيرة لدى الرحالة المغاربة الذين لا يفوّتون فرصة زيارته والتبرك به، ويقع بواد سيدي خالد، وهو مسجد عظيم بجانبه ضريح ومدرسة[23]، كما كان للإباضية مسجد خاص بهم يؤدون الصلاة به، بحكم أنهم يختلفون في بعض تفاصيل العبادة عن باقي سكان المدن الجزائرية[24].

وتضم مدينة بسكرة كذلك مسجد طولقة، ومسجد الولي الصالح أبي الفضل، الذي جاء ذكر ضريحه دون ذكر المسجد، والذي يكون عادة مع الضريح، فقد تمت الإشارة لهما في رحلة العياشي التي كانت في القرن السابع عشر الميلادي، وقد كانا على قدر كبير من السعة والإتقان وتميزت مئذنتهما بالطول وكانت لهما أدراج كثيرة[25].

كما جاء ذكر مسجد قرية عين ماضي في الجنوب الغربي الجزائري، إذ يذكر ناصر الدرعي في رحلته أنه مر بمسجد قرية عين ماضي، وصلى فيه تبركا بمن صلى فيه من أسلافه الكرام، كما ورد وصف لمسجد أخر يقع في قرية غير بعيدة عن قرية عين ماضي؛ هو مسجد يقع على ربوة، مبني بأحجار وحوله قبور عديدة مفروش بقطائف وحصائر، جيدة وله نور يعلوه وبجانبه مطبخ طعام مبني على صورة بيت، وكان السياح يأتون إليه للتعبد كما كان أهل تلك المناطق يعظمونه لما له من كرامات[26].

وغير بعيد عن قرية عين ماضي، وتحديدا في قرية الغاسول زار الرحالة السجلماسي مسجدها والذي كان مفروشا بالقطائف التي كان يأتي بها الأعراب، ويفرشونها في المسجد رجاء بركة العباد والمصلين، وهو يعد من أكبر وأهم مساجد المنطقة [27].

أما فيما يتعلق بمدينة تلمسان، التي كانت تمثل قاعدة من قواعد المغرب الأوسط، فقد أسست هذه المدينة قبل الإسلام، وأصبحت من أهم الحواضر الإسلامية و توجد بها أنواع من العمارة الإسلامية غير أنها خربت في هذه الفترة وهذا لدواعي مختلفة، وقد تميزت بمساجد فاخرة أشهرها مسجد الإدريسي والمسجد الجامع، ومسجد أبي مدين[28]، ويعتبر هذا الأخير من أهم المساجد والتحف المعمارية التي تميزت بها مدينة تلمسان منذ القديم، واتخذ هذا المسجد اسم الولي الصالح أبي مدين شعيب الذي زار المنطقة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وتوفي بالقرب من المسجد[29].

ومن الملفت للانتباه أن المساجد في الجزائر تشترك في خصائص، وهي أنها متقنة البناء وبها أضرحة ومدارس، ولا يقتصر دورها في العبادات وأداء الصلاة فقط، بل تتعداه لتعليم القرآن والعلوم المختلفة.

2.2. المدارس: جاء في كتب الرحلة المغربية وصف للمدارس التي كانت منتشرة في المدن والقرى الجزائرية، وكانت تضم أمهات الكتب والمصنفات العلمية والمخطوطات، وتتمثل وظيفتها الأساسية في تحفيظ القران للأطفال، وكانت تؤسس منفصلة عن المسجد بغرض المحافظة على نظافتها[30]، ومن المدارس التي ورد ذكرها في الرحلات المغربية، "المدرسة الناصرية"

بخنقة سيدي ناجي، التي تعد من أشهر المدارس، والتي توجد بالقرب من مسجد القرية، بنيت على يد أحمد بناصر سنة 1758م، ويوجد بها خمسة عشرة غرفة لإيواء ومبيت الطلبة القادمين من المناطق البعيدة، وفيها مكتبة ومطهرة وأحواض وألواح، وكانت من مهامها تحفيظ القرآن الكريم، والنحو وباقي العلوم الأخرى[31].

كما كانت بالقرب من مسجد سيدي عقبة بن نافع مدرسة يسكنها طلبة حفظة القرآن الكريم، وكانت للمدارس عدة وظائف بالإضافة إلى التعليم، وظيفة الإيواء والإطعام للطلبة القادمين من خارج القرية[32]، أما في قرية أولاد جلال التي تعد من أكبر قرى بلاد الزاب، فتوجد مدرسة يقصدها الطلاب القادمين من كل الأقطار أو الغرباء عن البلد، لينهلوا من العلوم المختلفة سواء الدينية أو العقلية[33].

ويذكر "الزياني في "الترجمانة الكبرى" أنه في قرية سيدي خالد وبالقرب من ضريحه، توجد كذلك مدرسة صغيرة لتعليم القرآن الكريم ومختلف العلوم الأخرى[34].

3.2. الزوايا والأضرحة والمزارات: تعد زيارة الأضرحة وقبور الأولياء الصالحين والمشايخ من العادات المتوارثة في المجتمعات الإسلامية، وحلقة من حلقات التواصل الثقافي، لذلك اهتم الرحالة بتسجيل مشاهدات ومعلومات حول عددا من الزيارات الخاصة للأولياء الصالحين عبر العصور ضمن ركب الحجيج، ولم تستثنى المدن والقرى الجزائرية من ذلك فهي لا تكاد تخلو من الأضرحة التي كانت تزار سواء من طرف السكان داخل الإيالة أو الوافدين من مناطق أخرى.

وقد اشتهرت مدينة الجزائر عاصمة الإيالة، بضريح وقبر سيدي عبد الرحمان الثعالبي، والذي كان على ساحل البحر خارج المدينة من وراء سور البلد، ويعد من أهم المزارات التي يقصدها الرحالة المغاربة للتبرك بتربته المباركة ودعاء الله هناك، وقد كان على قبره خشبة معلقة على ضريحه فيها تعريف بشخصية سيدي عبد الرحمان الثعالبي جاء فيها "**بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله والحمد لله ومما وجد الشيخ الإمام الولي الصالح أبي زيد عبد الرحمان الثعالبي رضي الله عنه وما نصه: الثعالبي عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف بن**

طلحة بن عمر بن نوفل بن عمار بن منصور بن محمد بن سباع بن ثعالب بن موسى بن سعيد بن مفضل بن عبد الله بن قيس بن هلال بن عامر بن حسن بن محمد بن جعفر بن أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ذريته عبد العزيز بن محمد بن مخلوف الثعالبي توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة"[35].

أما مدينة تلمسان؛ ففيها ضريح الولي الصالح المستصرخ به في جميع الأوطان والقطب سيدي أبي مدين الغوث، الذي كان يزار للتبرك به، وهي عادة كانت قائمة في تلك الفترة، كما توجد كذلك تربة ومزار الشيخ البركة "محمد السنوسي" التي كان بدوره من المزارات الشهيرة في منطقة الغرب الجزائري[36].

وبخصوص زوايا وأضرحة منطقة بسكرة، التي تعد بلدة الصالحين ومأواهم وفيها سادات قبروا هناك[37]، نجد ضريح "سيدي عقبة" الذي ترجع أهميته إلى شخصية الصحابي عقبة بن نافع فاتح إفريقيا فهو من أهم الأضرحة في بلاد الزاب، حيث لا تمر قافلة الحجيج دون النزول بروضته الشريفة للتبرك به، وجاء وصفه على أنه متقن البناء[38]، وهو وسط البلد في زاوية من مؤخرة مسجده، عليه قبة صغيرة مفروشة بزرابي، وعليه غطاء منوع وقد كتب على قبرة بخط كوفي وهو الخط الذي كان شائعا استعماله في تلك الفترة "**هذا قبر عقبة بن نافع نفع الله به**"[39].وهو من المزارات العظيمة وعليه بناء عظيم والعديد من الأبنية وعند بابه بئر حسنة ماؤها مالح[40]. وغير بعيد عن ضريح سيدي عقبة يوجد ضريح "سيدي عسكر" وهو من التابعين وكان حوله مسجد صغير وينزل لقبره المتواجد بجانب المسجد بأدراج[41]، أما بقرية سيدي ناجي فتوجد زاوية مشهورة تقع قرب جبل أسسها الشيخ "أحمد بن محمد الو انجلي الهجرسي" المتوفي بداية القرن 12هـ، ببلدة سيدي ناجي بقرية الزريبة بالقرب من مدينة بسكرة بالجنوب الجزائري، وأعاد بنائها حفيده الشيخ "عبد الحفيظ بن محمد الخنقي"، مريد الشيخ أبي ناصر الدرعي، والتي أصبحت مع نهاية العهد العثماني مركزا ثقافيا وقلعة من قلاع العلم والمعرفة يقصدها الطلاب من كل جهة لينهلوا من العلوم المختلفة العقلية والنقلية[42].

ومن الأضرحة الشهيرة التي اشترك الرحالة المغاربة في زيارتها في كل رحلاتهم، قبر وخلوة الشيخ العلامة والفقيه "سيدي عبد الرحمان الأخضري"، بنواحي بسكرة الذي كان يزار بنية التبرك بأحد أعلام وصلحاء المنطقة[43].

كما أشار معظم الرحالة المارين بالطريق الصحراوي إلى ضريح "سيدي خالد" الشهير، الذي يعتبر مزارا عظيما يزار ويتبرك به[44]، في تلك البلاد حيث تقصده الأركاب للزيارة من نواحي إفريقيا كلها، واشتهر أمره عند الخاص والعام لما له من كرامات[45]، وحوله صومعة ترى من مسافة بعيدة، بالإضافة إلى ضريح "أبي الفضل" الذي لا تقل أهميته عما سبق ذكره والذي كان من الصلحاء، وقبره من المزارات الشهيرة في منطقة بسكرة[46].

ولم يتطرق الرحالة إلى زوايا منطقة بسكرة فقط، بل أشاروا إلى بعض الزوايا الأخرى التي كان لها دورا كبيرا في نشر القرآن والعلوم الأخرى، ومنها الزاوية الزيانية، الواقعة في صحراء الجنوب الغربي الجزائري، بمنطقة بشار وتحديدا في واحة القنا دسة، والتي تعرف بالزاوية القندوسية، وهي من أشهر الزوايا، وتعد مركزا علميا ومزارا للشيوخ والطلبة، أخذت تسمية الزيانية نسبة إلى مؤسسها، الشيخ محمد بن أبي زيان، مقدم الطريقة الناصرية بمنطقة القنا دسة[47]، وهي تمثل صرحا علميا ومعلما أثريا يميز المنطقة.

3- نماذج من العمارة المدنية:

وإلى جانب المنشئات الدينية انتشرت كذلك العمارة المدنية، وأخذت أشكالا وأنماطا مختلفة في المدن الجزائرية باختلاف المناطق، فالعمارة في الصحراء تختلف من باقي المناطق الأخرى، لما لها من خصائص وخصوصية.

1.3. القصور والبيوت: شكلت القصور والبيوت أهم صورة من صور العمران الجزائري في تلك الفترة، وتجدر الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه العثمانيون في تشييد القصور والمنازل، والتي مزال بعضها شاهدا على روعة البناء؛ إذ يذكر ابن زاكور الفاسي، أن مدينة الجزائر اشتهرت بقصور حسان، جميلة المنظر، حتى أنه قارنها بالبنيان العظيم لجيرون[48]

بدمشق، وأنها أحسن منه. وقد تكون هناك مبالغة في هذا الوصف. ومن أشهرها قصر رياس البحر المعروف حاليا بحصن الثالث والعشرين، وقصر الحمراء الذي شيده الداي حسين حوالي سنة 1800م، وكذلك قصر مصطفى باشا، بالإضافة إلى عدة قصور واقعة خارج أسوار المدينة[49].

كما اشتهرت كذلك مدينة قسنطينة بالقصور، فهي مدينة متحضرة جدا ومليئة بالدور الجميلة والبناءات المحترمة كالجوامع والمدارس والزوايا[50].

كما كان بقرية سيدي عقبة أثار قصور قد خربت وتداني بعضها من بعض؛ وقد كان بها حوالي ألف ما بين قصر ومدينة، وهو دليل على كثرة عمرانها في القديم، وبالقرب منها يوجد قصر عظيم خرب يطلق عليه قصر إفريقيا لم يبقى منه سوى معالم بنيانه[51].

2.3. الأسواق والرحبات: انتشرت الأسواق اليومية والأسبوعية التي تعرض فيها السلع وتتم فيها المبادلات، وكانت قوافل الحجيج تقصد هذه الأسواق لشراء ما تحتاجه من مؤونة لمواصلة الطريق.

فقد كانت مدينة قسنطينة تضم عدة أسواق عامة ومتخصصة، وهي تتوزع في أماكن مختلفة من المدينة وقد كانت هذه الأسواق في عمومها على شكل حوانيت، تستقطب التجار من داخل الإيالة وخارجها أشهرها سوق العصر، سوق الغزل سوق العطارين، وسوق الدباغين... وغيرها[52]، وعلى غرار سائر المدن الإسلامية كانت المدينة تحتوي على مجموعة من الرحاب التي كان يمارس فيها البيع والشراء والصناعة أحيانا، وكان يقدر عددها بخمس رحاب منها رحبة الجمال ، رحبة الصوف، رحبة باب القنطرة و رحبة البلد، ورحبة الموقف، وبالإضافة إلى دورها الأساسي في البيع والشراء، فهي مكان يلتقي فيها عامة الناس في المناسبات والأعياد[53].

أما بلاد الزاب فهي كذلك عامرة بالأسواق، وهذا نتيجة نشاط الحركة التجارية، خاصة في فترة مرور قوافل الحجيج، وكانت تقام في مدينة بسكرة سوق عظيمة مملوءة بأنواع السلع والمنتوجات المختلفة، من إبل وبغال والشعير والقمع واللحم والغنم والزرابي، بالإضافة إلى سوق

عظيمة كانت تقام بين الحجيج وأهل زريبة الوادي، كانوا يعرضون فيها كل ما يحتاجه الحجيج من مواد كالسمن والبن والفواكه والغنم والدجاج، وحتى القطران، أما سوق سيدي عقبة العظيمة، فكانت هي الأخرى مملوءة بأنواع التمر والسمن والشعير، ولعل تعبير سوق عظيمة دليل على مدى سعة وكبر هذه الأسواق، كما كان للنساء نصيب من البيع والشراء؛ حيث صادف أن قامت لأعرابية مع الحجيج سوق قامت لها البيوعات في منطقة وادي سيدي خالد، امتلأت بالشعير والتمر واللبن والتفاح، وغير ذلك من المنتوجات التي يحتاجها الركب في رحلته[54].

بالإضافة إلى سوق قرية عين ماضي التي كان يقصدها ركب الحجيج، أين كان يبيع ويشتري ما يحتاجه من مواد وألبسة ضرورية لمواصلة طريق الحج[55].

وفي قرية عمورة القريبة من عين ماضي وهي موجودة على رأس الجبل، أشار الرحالة إلى وجود سوق؛ حيث تسوق الناس من خلاله وتزودوا بأنواع السلع التي يحتجونها في طريقهم[56].

3.3. **المرافق الحضرية (الحمامات والفنادق)**: تحلت مدينة الجزائر في العهد العثماني بحلة معمارية مميزة، فبالإضافة إلى المساجد والزوايا والقصور، نجد حمامات كثيرة ورائعة كانت تشبه حمامات القسطنطينية والقاهرة، وقد امتزج فيها الذوق المحلي بالعثماني الشرقي[57]، كما كانت مدينة قسنطينة تضم عدة فنادق تمارس فيها التجارة والصناعة فضلا عن كونها مكانا لإقامة التجار وتخزين سلعهم وبضائعهم بالإضافة إلى عدة حمامات ومرافق، غير أنها مع نهاية العهد العثماني تغيرت أسماؤها أو زالت وشيدت مكانها فنادق أخرى[58].

أما بخصوص مدينة بسكرة التي لا تخلو أي رحلة من ذكرها ووصف عمرانها، وبالإضافة إلى المساجد والزوايا، فقد اشتهرت هي الأخرى بالحمامات، ودار للضيافة تعرف بدار الحجاج، ينزل بها الحجيج في طريق ذهابهم وايابهم ويطلق عليها كذلك دار العسكرة، وهي مكانا للاستراحة من تعب الطريق وقضاء حاجاتهم من البيع والشراء[59].

4- نماذج من العمارة العسكرية

.1.4 الحصون والقلاع: كان انتشار الحصون خلال الفترة الحديثة أمرا مطلوبا لتحصين المدن ومداخلها من الاعتداءات والتحرشات الخارجية، فقد كانت مدينة الجزائر التي تمثل عاصمة الإيالة في غاية التحصين والمنعة من جهة البر والبحر[60]. كما شيدت السلطة العثمانية بروج وقلاع في المدن الجزائرية لمراقبة تحركات القبائل خاصة في المناطق البعيدة عن مركز السلطة[61].

وكان بمدينة بسكرة باعتبارها نقطة عبور بين التل والصحراء وتمثل سوقا مزدهرا[62]،قلعتين وضعت لأمير البلد، إحداهما صغيرة بالقرب من المسجد الأعظم، وهي مسكن الأتراك القادمين من الجزائر وكان عددهم ثمانون يتعاقبون عليهما، أربعون بها وأربعون بالقلعة الأخرى التي بنوها على رأس مياه البلد، ونظرا لارتفاعها يستطيع رأيتها من صومعة المسجد[63]، وللحامية وظائف متعددة منها حراسة المناطق البعيدة عن مقر الحكم والدفاع عن السكان من الاعتداءات وجمع الضرائب[64].

ومن القرى الواقعة على خط سير ركب الحجيج، والتي اشتهرت بالحصون يذكر الرحالة قرية بادس والتي تمثل أخر بلاد الزاب، حيث كان يوجد بها حصنان؛ لهما جامع وأسواق وبسائط ومزارع جليلة[65].

.2.4 الأبراج والأسوار والأبواب: كان بناء الأبراج والأسوار التي تحيط بالمدن من التقليد المعتمد في تحصين المدن من الأخطار الخارجية، وقد كانت المدن والقرى الجزائرية محصنة بأسوار وأبراج مراقبة محكمة الإغلاق بالأبواب، وهو ما كانت تتطلبه الهندسة المعمارية في تلك الفترة[66].

وقد سجلت كتب الرحلة أن مدينة الجزائر اشتهرت عبر العصور بأسوار وأبراح تحيط بها، والتي تحتوي بدورها على مدافع متجهة لجهة البحر للدفاع على المدينة وحمايتها من الاعتداءات الأجنبية[67].

كما اشتهرت مدينة قسنطينة التي كانت من أهم المدن في تلك الفترة، بأبوابها المنيعة المحصنة والتي كانت موجودة منذ العهد الحفصي أهمها باب القنطرة في الجهة الشمالية الشرقية، وباب الجابية وباب الوادي في الناحية الجنوبية، أضيف لها خلال العهد العثماني باب رابع يقع بالقرب من باب الوادي، يسمى "باب الجديد" وقد كان بابا صغيرا ثم تم توسيعه إضافة إلى عدة شوارع وأزقة[68].

ولم يتطرق الرحالة فقط لذكر أسوار وأبواب المدن الكبرى، فقد ذكروا كذلك أن مدينة بسكرة كانت مسورة؛ أي يحيط بها سور وعليها خندق لأغراض عسكرية ودفاعية، واشتهرت أيضا بوجود الأبواب، منها باب المقبرة، وباب الحمام، وباب ثالث للمولدين، وفي بلدة تهودة المشهورة الواقعة جنوب شرق بسكرة المبنية من الحجر الجليل يوجد سور عظيم، ويحيط بها خندق، وهي مشابهة لمدينة بسكرة[69]. وغير بعيد عن زريبة الوادي توجد قرية غسران، وهي مدينة كبيرة محاطة بسور من حجارة منحوتة، ولا زال بها أبراج وأبواب، أشهرها باب إفريقيا ويرجح أنها من بقايا مدن الروم القديمة[70].

وفي قرية عين ماضي وهي من مدن صحراء الجنوب الغربي الجزائري، فقد كانت فيها أجنة محاطة أو محفوفة بالحوائط والزروب وللقرية سور ممنوع لحمايتها[71].

وكان بواحة القنا دسة معالم تاريخية وحضارية وأثار، يزورها الرحالة في طريقهم، تدل على الحضارة العريقة لهذه البلد[72].

كما تطرق الرحالة كذلك إلى وصف أبواب مدينة ورغلة أو ورقلة، حيث كانت مدينة أزلية، لها سبعة أبواب وبها سور حصين ويحيط به خندق ممتلئ بالماء خلف سورها[73].

ومن الملاحظ أن كل المدن الجزائرية كانت تشترك في نوعية البناء، وأن لها أبواب وأسوار على شاكلة مدينة الجزائر وهذا لحمايتها من الأخطار الخارجية التي تهددها في تلك الفترة.

خاتمة: من خلال ما سبق عرضه توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

شكلت الرحلات المغربية بمختلف أنواعها سواء العلمية أو الحجية، مادة تاريخية مهمة للتعرف على مختلف جوانب الحياة الحضارية في المدن الجزائرية الواقعة في خط سير الرحلات، سواء البرية والبحرية وحتى الصحراوية، خاصة الجانب العمراني والحضاري الذي عرف تطورا كبيرا خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

تعددت أشكال العمارة في الجزائر في القرن الثامن عشر الميلادي، وهذا راجع إلى اهتمام الحكام الدايات والبايات بالجانب العمراني، منها العمارة الدينية خاصة المساجد التي لعبت دورا دينيا وتعليميا، والعمارة العسكرية التي ساهمت في حماية المدن من التحرشات والاعتداءات الخارجية.

كان للرحالة المغاربة الفضل الكبير في التعريف بالعمران الجزائري، من خلال وصف المنشئات المختلفة في أغلب المناطق التي مروا بها.

شهد العمران الجزائري تطورا كبيرا خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال إدماج العمارة الإسلامية القديمة مع العمارة العثمانية والأندلسية والذي نتج عنه طرازا مميزا صبغ لكل المدن الجزائرية.

قدمت الرحلات المغربية صورة واضحة عن العمران الجزائري من خلال إبراز الجوانب الحضارية للمدن الجزائرية في الفترة الحديثة.

الهوامش:

---

[1]–أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية 1709–1710م، تح وتق: عبد الحفيظ ملوكي، ج1، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، أبو ظبي، 2011، ص 19–38.

[2] –عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين–دراسة تحليلية نقدية مقارنة، دط، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 2008، ص 80.

[3] –أبو عبد السلام الناصري: الرحلة الناصرية الكبرى، تح: المهدي الغالي، ج1، ط1، منشورات وزارة الشؤون الاجتماعية، المغرب، ص–ص 5–7.

[4]- محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تح: محمد حجي واحمد الأمين، ج4، ط1، مكتبة الطالب للنشر والتوزيع، الرباط، 1986، ص 208..

[5]- أبي محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي (ت بعد 1150ه): رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية، تح: محمد الأندلسي، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المملكة المغربية، ص 6-45 86.

[6] - أبي الطيب بن محمد بن موسى الفاسي المعروف بالشرقي: رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة، تح: عارف أحمد عبد الغني، دط، دار العراب للدراسات والنشر، سوريا، 2014، ص 7.

[7]- ابي عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي: الرحلة الحجازية 1189ه، تع: عبد العالي لمدبر، ط1، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2011، ص 10-14.

[8]- أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا 1147ه-1249ه/1734-1833م، تح وتع: عبد الكريم الفيلالي، دط، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991، ص 12.

[9]-حميدة زعيتر: رحلة المجاجي عبد الرحمان بن محمد بن الخروب القرن الحادي عشر هجري (دراسة وتحقيق)، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة يوسف بن خدة، الجزائر، 2008-2009، ص 65.

[10]-أبو القاسم الزياني: مصدر سابق، ص 149.

[11]-عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث الجزائر المدية مليانة، ط1، دار الأمة للنشر والتوزيع، 2007، ص28.

[12] -أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 26.

3- أبو القاسم الزياني: نفسه، ص 153.

[14]-فهيمة أعراب: التراث والسياحة من خلال مدينة قسنطينة، ماجستير في التراث والدراسات الأثرية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010/2011، ص 169.

[15] -عبد القادر دحدوح، قسنطينة محطات تاريخية ومعالم أثرية-دراسة تاريخية أثرية-، ط1، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، 2015، ص352-354.

[16]-كمال غربي: المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الاثرية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، الجزائر، 2011، ص 93.

[17] -محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر "تاريخ مدينة قسنطينة"، تح وتق: سفيان عبد اللطيف، ج2، ط1، دار الروح للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2015، ص 15.

[18]-أبي الطيب بن محمد بن موسى الفاسي المعروف بالشرقي: رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة، تح: عارف أحمد عبد الغني، دط، دار العراب للدراسات والنشر، سوريا، 2014، ص 99.

[19]- الإسحاقي: مصدر سابق، ص 290.

[20]-عبد السلام الناصري: مصدر سابق، ص23

[21]-أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي: مصدر سابق، ص 158.

[22]-كريمة بن الحسين: بلدة خنقة سيدي ناجي إبان الحكم العثماني، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة التاريخ، جامعة قسنطينة، ص 106.

[23]- أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي، نفسه، ص209.

[24]- أبو القاسم الزياني: مصدر سابق، ص 149.

[25]- عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661م-1663م، تح وتق: سعيد الفاضل وسليمان القريشي، ج2، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، 2006، ص 539.

[26]-أبو العباس ناصر الدرعي، نفسه ص 131.

[27]- السجلماسي الهلالي: مصدر سابق، ص 174.

[28]-أبو القاسم الزياني: مصدر سابق، ص 142-145.

[29]-يحي بوعزيز: المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، منشوراتAnep ، 2011، ص 123.

[30]-أحمد مريوش وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، د-ت-ن، ص 18.

[31]- كريمة بن الحسين: مرجع سابق، ص 107

[32]-أبي العباس الهلالي السجلماسي المتوفي 1175هـ: التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، تح: محمد بوزيان بنعلي، دط، 2011، ص 221.

[33]- أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي: مصدر سابق، ص 138.

[34]-أبو القاسم الزياني: مصدر سابق، ص 150.

[35]- محمد بن عبد الوهاب المكناسي: رحلة المكناسي 1785م، تح وتق: محمد بوكبوط، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، أبو ظبي، 2003، ص 330.

[36]- نفسه، ص 331.

[37]- الحضيكي: مصدر سابق، ص 86

[38]-ابن الطيب الشرقي: مصدر سابق، ص 320

[39]-عبد العزيز شهبي: مساجد أثرية في منطقتي الزاب ووادي ريغ، دكتوراه، معهد الأثار، جامعة، الجزائر،1984-1985، ص 20-25.

[40]- ابن الطيب الشرقي: مصدر سابق، ص320.

[41]- عبد السلام الناصري: مصدر سابق، ص 238.

[42]-الإسحاقي: مصدر سابق، ص 295.

[43]- أبي الطيب الشرقي: مصدر سابق، ص 320.

[44]-الحضيكي: مصدر سابق، ص 85.

[45]- أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي: مصدر سابق، ص 135.

[46]-الإسحاقي: نفسه، ص 281.

[47]-سليمان قوراري: في رحاب منجد الولهان في معرفة ومآثر الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان، مجلة مقاليد، العدد 10، جامعة أدرار، جوان 2016، ص 116.

[48]-هو جيرون بن سعدي بن عاد الذي حل بدمشق وجمع الرخام والمرمر وشيد بنيانا عظيما سماه إرم ذات العماد، انظر: ابن زاكور الفاسي: نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الاعيان، دط، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 40.

[49] -عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى 1962م، الجزائر خاصة، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 196-199.

[50] -حسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الرياض،1399ه/1981م، ص 56.

[51] -ابن زاكور الفاسي، نفسه، ص 40.

[52] -عبد القادر دحدوح: مخطوط دفتر أوقاف مدينة قسنطينة القرن 10-11ه/16-17م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015، ص 44.

[53] -عبد القادر دحدوح، قسنطينة محطات تاريخية ومعالم أثرية، مرجع سابق، ص 192.

[54]-ابن الطيب الشرقي: مصدر سابق، ص 319-321.

[55]-الإسحاقي: مصدر سابق، ص 290.

[56]- أبو العباس احمد بن ناصر الدرعي، مصدر سابق، 134.

[57] -عمار عمورة: مرجع سابق، ص 192..

[58] عبد القادر دحدوح، قسنطينة محطات تاريخية ومعالم أثرية، مرجع سابق، ص193-195.

[59]-الإسحاقي: مصدر سابق، ص 114.

[60]-محمد بن عبد الوهاب المكناسي: مصدر سابق، ص 330

[61]-محمد خير الدين: مذكرات محمد خير الدين، ج1، دط، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985، ص 42.

[62]-جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة، 2008/2007، ص 73.

[63]-أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري: مصدر سابق، ص 223

[64]- جميلة معاشي، نفسه، ص 74.

[65]- عبد السلام الناصري: نفسه، ص 239.

[66] -عبد الله حمادي الادريسي: الاختصار من تاريخ قصر بشار وما جاوره من القصور والديار، ط1، دار الكتاب الملكي، الجزائر، 2013، ص 22.

[67] -المكناسي: مصدر سابق، ص 330.

[68] -عبد القادر دحدوح، قسنطينة محطات تاريخية ومعالم أثرية. مرجع سابق، ص 152..

[69] -أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2015، ص211.

[70] -عبد السلام الناصري: مصدر سابق، ص 226-241.

[71] - الحضيكي: مصدر سابق، ص 84.

[72] - سليمان قوراري: مرجع سابق، ص 227.

[73] - أبو القاسم الزياني: مصدر سابق، ص 149.

قائمة المصادر والمراجع:

1-الإسحاقي أبو محمد سيدي الشرفي بن محمد (ت بعد 1150هـ)، رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية، تح محمد الأندلسي، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2017.

2-أعراب فهيمة: التراث والسياحة من خلال مدينة قسنطينة، ماجستير في التراث والدراسات الأثرية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011/2010.

3-بن الحسين كريمة: بلدة خنقة سيدي ناجي إبان الحكم العثماني، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة التاريخ، جامعة قسنطينة، دط، د س ن.

4-بوعزيز يحي: المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، منشورات Anep، 2011، الجزائر، 2011.

5-الجيلالي عبد الرحمان: تاريخ المدن الثلاث الجزائر المدية مليانة، ط1، دار الأمة للنشر والتوزيع، 2007.

6-الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي (ت 1189هـ): الرحلة الحجازية، تع عبد العالي لمدبر، ط1، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 2011.

7-حمادي عبد الله الإدريسي: الاختصار من تاريخ قصر بشار وما جاوره من القصور والديار، ط1، دار الكتاب الملكي، الجزائر،2013.

8-خير الدين محمد: مذكرات محمد خير الدين، ج1، دط، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985.

9-دحدوح عبد القادر: مخطوط دفتر أوقاف مدينة قسنطينة القرن10-11هـ/16-17م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر،2015.

10-دحدوح عبد القادر، قسنطينة محطات تاريخية ومعالم أثرية-دراسة تاريخية أثرية، ط1، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، 2015.

11-الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر، الرحلة الناصرية 1709-1710م، تح وتق، عبد الحفيظ ملوكي، ج1، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، 2011.

12-زعيتر حميدة: رحلة المجاجي ق 11هـ، عبد الرحمان بن محمد بن الخروب القرن الحادي عشر هجري، (دراسة وتحقيق)، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2008-2009.

13-الزياني أبو القاسم: الرحلة الزيانية، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا(1147هـ-1249هـ/1734م-1833م)، تح وتع، عبد الكريم الفيلالي، دط، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991.

14-سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.

15-سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي (1830م-1954م)، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

16-عمورة عمار: الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى 1962م، الجزائر خاصة، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2006.

17-العياشي عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية 1661-1663م، تح وتق: سعيد الفاضل وسليمان القريشي، ج2، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، 2006.

18-غربي كمال: المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، الجزائر،2011.

19-الفاسي ابن زاكور: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، دط، المعرفة الدولية

20-القادري محمد الطيب: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تح محمد حجي وأحمد التوفيق، ج4، ط1، مكتبة الطلب للنشر والتوزيع، الرباط، 1986.

21-قورا ري سليمان: في رحاب منجد الولهان في معرفة ومآثر الشيخ سيدي محمد بن ابي زيان قدس الله سره، مجلة مقاليد، العدد10، جامعة أدرار، جوان2016.

للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

22-مريوش أحمد وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954م، الجزائر، د-ت-ن.

23-معاشي جميلة، الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2007-2008.

24-المكناسي محمد بن عبد الوهاب: رحلة المكناسي 1785، تح وتق، محمد بوكبوط، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، أبو ظبي، 2003.

25-الناصري أبو عبد الله محمد بن عبد السلام (ت1239هـ-1823م)، الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق، المهدي الغالي، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2013.

26-الهلالي السجلماسي أبو العباس المتوفي 1175هـ: التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، دط، 2011.

27-الوزان الحسن: وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الرياض،1399هـ/ 1981م.

28-نواب عواطف بنت محمد يوسف، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين-دراسة تحليلية نقدية مقارنة، دط، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1429هـ/2008م.

ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة الونشريس للدراسات التاريخية
ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820
مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

المجلد: 02، العدد: 01 | رجب 1444هـ/فيفري 2023م | الصفحات: 147-166

القضاء الإسلامي في الجزائر خلال القرن 19

في سجلات المحاكم الشرعية وتشريعات السلطة الاستعمارية

Muslim Justice in Algeria during the 19th century In "Mahakim Sharia" documents and legislation of the colonial state

د.عبد الباسط قلفاط *

جامعة الجيلالي بونعامة– خميس مليانة (الجزائر)

a.kalafat@univ-dbkm.dz

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال 2023/01/23 تاريخ القبول 2023/01/31 الكلمات المفتاحية: القضاء الإسلامي؛ وثائق المحاكم الشرعية؛ تشريعات السلطة الاستعمارية؛ مدينة الجزائر؛ القرن 19.	يمثل القضاء الإسلامي محطة أساسية في العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الفترة المعاصرة، وذلك لارتباطه بمجموعة من قيم ومقومات ومؤسسات المجتمع، ومنها الإسلام والأوقاف والهوية والأرض؛ كما شكلت مؤسسة القضاء هدفا رئيسا للسياسة الاستعمارية بهدف الاستيلاء عليه ودمجه في القضاء الفرنسي، وقد أخذت هذه العملية من السلطة الاستعمارية فترة الاحتلال، ولم ينته الصراع حول حقوق القضاء الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر. تسعى هذه الدراسة لتتبع وضعية القضاء الإسلامي في الجزائر من خلال نوعين من الوثائق إحداهما محلية وهي سجلات المحاكم الشرعية وأخرى صادرة عن السلطة الاستعمارية وهي التشريعات القضائية، كما تطرح هذه الورقة مجموعة من الأسئلة أبرزها: ما هي قيمة المادة العلمية التي تقدمها هذه الوثائق؟ وإلى أي حد كشفت عقود القضاة على حجم التغيير الذي مس المحاكم الإسلامية وحقوق القضاة. تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بهذه الوثائق والصعوبات التي تواجه الباحث في التعامل معها وكذلك تحديد خصائصها وأهميتها في الكتابة التاريخية حول موضوع القضاء وعلاقاته بمقومات المجتمع الجزائري خلال فترة الاحتلال.

Abstract:

The Muslim Law courts represents a fundamental station in Algerian-French relations during the 19th century, as it represents a set of values, components and institutions of society, including Islam, Wakf, Identity and property. The Muslim courts also constituted a major Significance of the political colonial state and reordering it in the French authority, and this process took place from the colonial authority during the occupation period, and the struggle over the rights of the Islamic judiciary did not stop at the end of the 19th century.

This study attempts to track the status of the Muslim Law courts in Algeria through two types of documents, one of which is local, which is the “Mahakim Sharia” documents, and the other issued by the colonial authority, which is judicial legislation what is the value of the scientific article provided by these documents? And to what extent did the contracts of judges reveal the extent of the change that affected Islamic courts and the rights of judges?

This study aims to introduce these documents and the difficulties that the researcher faces in dealing with them, as well as identifying their characteristics and importance in historical writing on the subject of the judiciary and its relationship to the components of the Algerian society during the occupation period.

Article info

Received: 2023/01/23

Accepted: 2023/01/31

Key words: Muslim Law courts; “Mahakim Sharia” documents; judicial legislation; Algiers; 19th century.

مقدمة:

تسعى هذه الدراسة للتعريف ببعض الوثائق المهمة لدراسة القضاء الإسلامي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، وإلى الكشف عن أهمية ونوعية المعرفة التاريخية التي يمكن أن تقدمها لنا تلك الوثائق؛ فسجلات المحاكم الشرعية المعروضة هنا تتمثل في عقود قضاة المحكمتين المالكية والحنفية لمدينة الجزائر بين سنتي 1892/1845؛ أما وثائق الإدارة الاستعمارية فنقتصر على التعرف على بعض المراسيم والقوانين التشريعية والتقارير المرفقة لها والتي صدرت بغرض "تنظيم القضاء الإسلامي".

تطرح هذه الورقة البحثية مجموعة من الأسئلة أهمها: ما هي طبيعة وخصائص الوثائق المحلية والاستعمارية، وكيف يمكن التعامل معها؟ ما هي الظروف التي كتبت فيها؟ وما هي أبرز الموضوعات التي تناولتها؟

تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة على هذه الأسئلة من خلال التطرق لأهمية هذه الوثائق وخصائصها وموضوعاتها، لتنتهي إلى القيمة العلمية التي تكتسبها ونوعية المادة العلمية التي يمكن أن توفرها للبحث العلمي.

1- الأهمية العلمية لوثائق المحاكم الشرعية

إن الاهتمام بحقلي التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ العقليات والأفكار، يتطلب البحث في التراث المخطوط الذي يشمل الجوانب الحضارية للمجتمع، ويأتي على قائمة ذلك التراث في الفترة المعاصرة وثائق المحاكم الشرعية، التي توفر للباحثين في مختلف التخصصات العلمية والمعرفية مادة معتبرة، تمكنهم من التحرر من النظرة التي حملتها معظم المصادر الغربية والاستشراقية منها على وجه الخصوص.

تكتسب وثائق سجلات المحاكم الشرعية في الفترة الحديثة والمعاصرة مكانة كبيرة وأهمية بالغة، لما تحمله من مادة خام عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسكانية، ولما ترصده من أحداث تكشف عن التغيرات التي طرأت على المجتمعات؛ لذلك فهي تشكل مصدراً صافياً عن الوقائع والحقائق، وتمد الباحثين والدارسين بمادة أساسية في المجالات المختلفة، وتفسر بعض الحوادث والتشريعات الإدارية والتنظيمية؛ ورغم تراجع اختصاصات المحاكم الشرعية في بعض الأقطار العربية سواء نتيجة لتبعيتها للإدارة الاستعمارية[1] أو لصالح القضاء المدني المعاصر، فإن وثائقها تشتمل إجمالا على معلومات وحقائق في عدة مجالات، مثل طرق حياة السكان ومعاملاتهم ونظم الزواج والطلاق وشؤون الأسرة، مع الكشف عن دور مختلف الفئات الاقتصادية والاجتماعية في الريف والمدينة، وتغطي النواحي الاقتصادية كالإنتاج الزراعي وأنواع الحرف وتنظيماتها المختلفة، وأشكال وطرق الاستغلال والاستثمار في مختلف القطاعات الاقتصادية، كما تعرفنا بالقطاع الخدمي والأسعار والموازين والمكاييل.

فضلا عن ذلك فهي توفر لنا معلومات عن الحالة التعليمية والشخصيات الثقافية والمصنفات العلمية والثقافية، والأماكن الأثرية وتاريخها وأحوالها، والمساجد والقرى والحواضر التي ترد في الوثائق[2]؛ وفي الجزائر – على سبيل المثال– تكشف هذه الوثائق على تأثير اللغة الفرنسية في اللغة العربية، من قبيل دخول الألفاظ والمصطلحات وأسماء المدن والشوارع وتأثر لغة وتركيب الجملة العربية بها[3]؛ ومن خلال ذلك يتبين لنا المستوى العلمي للقضاة والفقهاء في هذه المرحلة ومدى تأثرهم بشروط وظروف التكوين الجديدة، إضافة إلى أن هذه الوثائق تبرز دور الحواضر الكبرى

وعلاقتها الاقتصادية والحضارية بالريف والمدن الأخرى، وارتباطاتها بالعالم الخارجي ومدى تأثر المجتمعات بذلك.

إن اعتماد الدراسات العلمية والأكاديمية ذات الاختصاصات المختلفة على هذه الوثائق أمر مهم وضروري، والعودة إليها تمثل استجابة ضرورية لشروط البحث الأكاديمي وجدته، وهذا لما تتميز به من موضوعية وصدق، وما تضيفه دائماً من حقائق جديدة تمكننا من إعادة بناء الوقائع التاريخية، وتفسير الظواهر والأحداث الغامضة، ولاسيما عندما تشح وثائق الأرشيف الوطني وتقل المصادر المحلية، في حقبة زمنية قريبة منا، وفي بلد – الجزائر– كان مركزا استراتيجيا وحضاريا في الفترة الحديثة، وبعد تعرضه لنكبة الاحتلال أصبحت مدينة الجزائر أول عاصمة عربية تتعرض للوجود الاستعماري بكل ثقله، حيث ألغيت فيها مؤسسات الدولة والمجتمع، وتأثرت بدخول العنصر الأوروبي الجديد، فتراجع عدد سكانها وتغيرت تركيبتها الاجتماعية[4]، مما أثر في العقود التالية على الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسكانها، وهي المرتبطة بعمق البلاد بروابط اقتصادية واجتماعية وحضارية؛ لقد وفرت لنا هذه السجلات معطيات مهمة عن هذه المرحلة تسمح بتغطية الكثير من الثغرات، وتفند الحجة القائلة بغياب الوثائق المحلية، مع زخم وتنوع وثائق الإدارة الاستعمارية، وتعدد كتابات الفرنسيين ومؤرخي المدرسة الاستعمارية.

بالرغم من أهمية فترة القرن 19 الذي شهد تحولات هامة في المجتمع الجزائري، ورغم توفر هذه المادة الوثائقية لدى الباحثين الفرنسيين قبل وبعد الاستقلال إلا أننا لم نعثر لهم على دراسات علمية للفترة الحديثة والمعاصرة تعتمد على هذه الوثائق كمادة أولية[5]، فمنذ أواخر القرن الماضي ظهرت مجموعة من الدراسات في هذا المجال لباحثين جزائريين وأجانب[6]، تعتمد على عقود المحاكم الشرعية أساسا[7]، ولكن ما يميز تلك الدراسات أنها تتناول الجوانب العمرانية والسكانية والاجتماعية فقط، وخاصة ما تعلق منها بدراسة وضعية الأسرة ومسائل

الزواج، واختصت كذلك بمدينتي الجزائر وقسنطينة في الفترة الحديثة وبداية الفترة المعاصرة[8]؛ أما الدراسات الأكاديمية في الجزائر التي اعتمدت على سجلات الفترة المعاصرة فهي جد محدودة،

وكلها ظهرت في العقدين الأخيرين، نوقشت بين جامعات الجزائر 2 وقسنطينة للعلوم الاسلامية وجامعة أدرار[9].

2-الظروف التاريخية وخصائص السجلات

تتجلى أهمية دراسة تغيرات المجتمع الجزائري في الفترة المعاصرة، إذا وضعنا في عين الاعتبار المرحلة التاريخية الجديدة التي دخلها المجتمع بعد 1830، حيث شهد تحولات عميقة، ويتضح هذا في تغييب وتراجع دور مؤسسات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مثل الأوقاف والقضاء والجماعات الحرفية والمساجد والزوايا وغيرها، بسبب دخول عناصر جديدة على المجتمع ذات طابع استيطاني، محمية بسلطة استعملت كل الوسائل العسكرية والتشريعية والسياسية، في إطار نظام استعماري رأسمالي استغلالي يسعى إلى إلغاء الآخر؛ وقد أسفرت هذه الإستراتيجية عن هجرة كبيرة من المدينة كان من أبرز نتائجها تغيرات في الخريطة الاقتصادية والاجتماعية خاصة.

إن أهمية هذه السجلات لا تعود إلى قيمة المادة العلمية التي تحتويها فقط ولكن لتوفرها وتغطيتها لكل البلاد خلال الفترة المعاصرة، ولارتباطها بنظيرتها في البلاد العربية والإسلامية على محورين، أحدهما أفقي فهي تشبه ما تتضمنه مثيلاتها في العالم الإسلامي مشرقا ومغربا وإفريقيا، والمحور الثاني عموديا إذ تعتبر امتدادا لفتاوى الفقهاء ونوازل العلماء وآراء المفكرين السابقين، ولذلك يمكن الاعتماد عليها من طرف الباحثين في تحليل وتفسير الظواهر التاريخية المتشابهة في عدد من الأقطار العربية والإسلامية، نتيجة تشابه الظروف ووحدة المرجعية الحضارية، ولا أدل على ذلك من رجوع قضاة الجزائر في أحكامهم إلى علماء وفقهاء المذاهب الإسلامية في المشرق والمغرب؛ نقول هذا رغم ما طال صلاحيات القضاء الإسلامي من اعتداءات وما لحق القضاة من تضييق وتحديد لحريتهم وعملهم عن طريق شروط الوظيفة وضغوطات الأجور والمراقبة الشديدة لعملهم[10].

لقد كشفت الدراسات العلمية التي اعتمدت على هذه الوثائق على أهميتها لدراسة تحولات المجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية، فبعد نصف قرن من مشاريع الاحتلال المتعاقبة، وخاصة

ما تعلق منها بالهوية والقضاء والملكية، أصبح من الضروري البحث في مدى ما تحقق من تلك المشاريع، وما هي مظاهر التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي برزت في مجتمع المدينة خاصة؛ لا سيما وأن القضاة قد عاصروا مجموعة من الأحداث والظواهر الهامة في هذه المرحلة التاريخية، والمرتبطة بالظروف السياسية والاقتصادية، ومظالم السياسة الفرنسية تجاه مقومات المجتمع، مثل سياسة الإدماج وحركة الهجرة في نهاية القرن 19، والحرب العالمية الأولى[11]، وكذلك سيطرة المستوطنين على مقومات النشاط الاقتصادي ومؤسساته، ودور النخب السياسية والعلمية في إقناع الرأي العام المحلي بضرورة البحث عن آليات جديدة للمقاومة ضد الاحتلال وسياساته.

أما بالنسبة للمجال الجغرافي الذي غطته سجلات المحاكم الشرعية فهي منتشرة في كامل البلاد، حيث كان سكان المدن والقرى يرفعون منازعاتهم ويوثقون معاملاتهم الاقتصادية والاجتماعية لدى القضاة الشرعيين، وبقيت هذه السجلات في المجالس القضائية التابعة للمقاطعات القضائية التي تركتها الإدارة الاستعمارية، والتي لم تتغير منذ الحرب العالمية الأولى[12].

إن تنوع وثراء المادة العلمية لهذه الوثائق تحفز الباحثين على طرق عدد من المواضيع التي تتسم بالتجديد والابتكار والأهمية، خاصة ما يتعلق بإيضاح الحقائق التاريخية عن ظروف ومظاهر تدهور الوضع الاقتصادي في مجتمع المدينة[13]، وكذلك تغير الذهنية واختفاء بعض عادات الجزائريين وظهور أخرى، وتتم هذه العملية اعتمادا على تمحيص المادة التي أوردتها عقود القضاة لفترة غطت أكثر من قرن؛ ما زالت تلك السجلات في أغلبها في حالة جيدة، ولكنها تحتاج إلى رعاية من المختصين في عمليتي الحفظ والتخزين، وكذلك تحتاج إلى جهود أخرى من الأرشيفيين لفهرستها وتهيئتها للباحثين في شتى التخصصات المعرفية والعلمية.

كما نشير إلى أن هذه السجلات أصبحت في هذه الفترة منظمة ودقيقة، وتوفر مادة مفصلة ومهمة خاصة ما يتعلق بالأشخاص، الذين يرد ذكرهم في العقود والمنازعات، ولقد قسمت إدارة الاحتلال تلك السجلات بصفة عامة إلى خمسة أنواع حسب مواضيع المسائل المطروحة التي تضمنتها الرسوم والعقود، وهي: سجلات الأحكام المتنوعة – سجلات الترايك والمفاصلات–

سجلات البيوع والحبوس- سجلات الزواج والطلاق والأصدقة سجل الأمانات والوكالات؛ إضافة إلى قسم آخر ولكن عدده قليل جدا وهو خاص بمراسلات القاضي مع قضاة المحاكم الأخرى ومع موظفي الإدارة الاستعمارية؛ وقد وفرت كلها مادة علمية أولية مهمة تسمح لنا بفهم تطور الحياة اليومية للمجتمع.

كما يمكن تصنيف سجلات مدينة الجزائر إلى ثلاثة أنواع من حيث تبعيتها للمحاكم وهي: السجلات المالكية، الحنفية والاباظية، وهي نفس المحاكم التي كانت موجودة بالحواضر الكبرى مثل مدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان وغرداية، وتقتصر مدن أخرى على المحكمتين المالكية والحنفية فقط؛ أما اليوم فسجلات كل المحاكم موزعة على المجالس القضائية، ولكن أودعتها وزارة العدل في الغالب عند الموثقين منذ السبعينات بعدما توقف عمل القضاة الشرعيين، وهذا لحاجة الناس إليها لاستخراج وثائقهم المدنية خاصة.

ولكن ذلك الرصيد الهائل من الوثائق لم يمنع من وجود ثغرات متأتية من طبيعة النصوص القضائية الإدارية، التي تخفي أحيانا الظروف والانعكاسات المرتبطة بمختلف التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، وهو ما جعل مهمة الباحث صعبة دون الرجوع إلى مصادر تاريخية ودراسات أكاديمية، بهدف مقارنة خصائص الوضع الاقتصادي –مثلا – لمجتمع مدينة الجزائر بالفترة السابقة وبنظيرتها في مدن مغاربية أخرى لنفس المرحلة، في محاولة للوقوف على حجم ونوعية وظروف التغير الذي لحق بالمجتمع.

ويتبع تلك الثغرات مجموعة من الصعوبات خاصة عند دراسة النشاط الاقتصادي من خلال الوثائق المحلية، فتواجه الدارس صعوبات جمة أهمها غياب قواميس للمصطلحات الاقتصادية والحرفية خاصة[14]، وهي مصطلحات نجد بعضها في المصنفات الفقهية المالكية، وترتبط أخرى بتراث وقيم المجتمع وممارساته في مختلف الأنشطة الاقتصادية والعلاقات المهنية، ورغم ورود بعضها في المصادر الفرنسية، التي يبدو انها نقلت مفهوم بعض المصطلحات من أفواه مختلف الفئات الاقتصادية، مثل القاموس الذي أعده مارسلان بوسيي "Marcelin Beaussier" ومحمد بن شنب إلا أنها

تبقى ناقصة ومحدودة[15]، خاصة وأنها لم تكشف عن ظروف استعمالات هذه المصطلحات، وعلاقتها بالحياة الاقتصادية والممارسات الاجتماعية واللغات المحلية، وهو ما جعل الغموض يلف قيمة ثرائها وتنوعها؛ ويرتبط بموضوع المصطلحات والصعوبات ورود الكثير من الكلمات في عقود القضاة بغير اللغة العربية مما ضاعف من صعوبة العمل، فنجد بعضها بالدارجة والبعض الآخر بالعثمانية والقبائلية وحتى كلمات بالفرنسية.

3- أرشيف سجلات المحاكم الشرعية لمدينة الجزائر

عندما نرجع إلى سجلات المحاكم الشرعية كواحدة من المصادر الأولية والبكر في تاريخ مدينة الجزائر المعاصر، تعتبر سجلات محكمتي مدينة الجزائر المالكية والحنفية، أهم السجلات المعاصرة وأساس الوثائق المحلية المحفوظة بدور الأرشيف، والتي وصلت إلينا أغلبها بحالة جيدة، نتمكن من خلالها من إعادة بناء واقع المجتمع بصورة حية ودقيقة.

إن سجلات المحاكم الشرعية عموما تشتمل على أحكام القضاة واجتهاداتهم في المسائل المعروضة عليهم في مختلف التخصصات، وهي تتناول وقائع حياة المجتمع في مدينة الجزائر، وكل ما يعرض على القضاة والمفتين من مسائل ونوازل وقضايا، في حدود ما سمحت به التشريعات الفرنسية من اختصاصات وصلاحيات للقضاة عبر مسيرة الاعتداءات طيلة القرن 19، حيث لم تبق له إلا قضايا الأحوال الشخصية وبعض المعاملات الاقتصادية ذات القيمة المالية الخفيفة؛ ومعروف عند دراسة السياسة الفرنسية في الجزائر أن السلطة الاستعمارية تدخلت في عمل القضاة، وغيّرت في إجراءات المحاكم، ومن ثم خصائص السجل وشروط تسجيل الأحكام.

إن السجلات كثيرة ومتنوعة، وتغطي الفترة الممتدة بين 1845 إلى 1973، ويزيد عددها عن الألف سجل لكل المحاكم(المالكية والحنفية والاباظية)، مكتوبة كلها باللغة العربية مع ترجمة ملخصة باللغة الفرنسية. تنقسم تلك السجلات في مدينة الجزائر كباقي القطر إلى خمسة أقسام، حددها أولا قرار الحاكم العام الصادر في 29 جويلية 1848[16]؛ ومن صعوبات البحث فيها غياب فهرس مفصل يوضح أقسامها، ويبين مضمونها، ويجمع مادتها التاريخية في جداول تمكن

الباحث من استغلال محتواها، والانتفاع بما تتضمنه من معلومات عن الحياة اليومية في مجتمع المدينة؛ أما أنواعها من حيث تبعيتها للمذهب الفقهي فهي على ثلاثة:

أولا: سجلات قضاة المحكمة المالكية، وهي أكثرها عددا، تابعة لمحكمة القسم الأول التي كان مقرها بالجامع الكبير[17]، وأحيانا تسمى بالمحكمة القبلية والمقصود بها الاختصاص الجغرافي الإداري في مدينة الجزائر وضواحيها الجنوبية، وتتوزع هذه السجلات بين مركز الأرشيف الوطني وأرشيف وزارة العدل، فمن سنة 1845 حتى سنة 1920 موجودة بمركز الأرشيف الوطني، وما بعد 1920 توجد بأرشيف وزارة العدل؛ كما نجد به سجلات المجلس الشرعي الذي كان يجمع المحكمتين المالكية والحنفية، وتبدأ من سنة 1845 إلى سنة 1873 .

ثانيا: سجلات قضاة المحكمة الحنفية، وتسمى في التشريعات الفرنسية بمحكمة القسم الثاني، أو المحكمة الظهراوية المقابلة للبحر ومقرها بالجامع الجديد، وتخص - رسميا- سكان المدينة فقط، ولكن في الفترة المدروسة أصبحت مقصودة من الضواحي والمدن الداخلية، وكثيرا ما تنتقل القضايا والمنازعات بين المحكمتين؛ تتواجد كل هذه السجلات عند الموثق بن عبيد بساحة الشهداء التابع لوزارة العدل[18].

ثالثا: سجلات قضاة المحكمة الاباظية وهي قليلة جدا، أغلبها تخص القضايا التي تقع بين أفراد الجماعة المزابية، أتباع المذهب الاباظي القاطنين بمدينة الجزائر ومدن أخرى، وبعضها يتضمن مراسلات بين القاضي الاباظي لمدينة الجزائر وقضاة المحاكم الشرعية وموظفي الإدارة الفرنسية القضائية والمدنية[19]، تتواجد السجلات الاباظية بمركز الأرشيف الوطني وبأرشيف وزارة العدل، ولا يتجاوز عددها بمركز الأرشيف الوطني خمسة عشر سجلا[20].

تتبع هذه السجلات في مضمونها وتصنيفها وثائق المحاكم الشرعية للفترة الحديثة، ولكن الوثائق الأخيرة والتي تغطي الفترة إلى منتصف القرن 19 مصنفة ومهيأة للباحثين، وتتألف من أوراق منفصلة وكتابات متفرقة وتسجيلات فردية وعائلية صدرت في مجملها عن المحاكم القضائية، وهي

موجودة بمركز الأرشيف الوطني ونسخة أخرى بأرشيف ما وراء البحار بآكس بروفانس بفرنسا، ضمن رصيد المحاكم الشرعية، كما توجد بعض الملفات والوثائق الإدارية المتعلقة بالقضاء الإسلامي برصيد "F80"[21].

وبالنسبة لسجلات مدينة الجزائر للفترة المعاصرة، فقد شملت مجتمع المدينة المرتبط بعمق البلاد بروابط اقتصادية واجتماعية وحضارية، ويرجع إلى قضاتها بعض أهالي المدن الداخلية؛ لقد كشفت لنا سجلات المدينة على وجود ثلاثة فضاءات لمجتمع المدينة، متمازجة خاصة في مجال النشاط الاقتصادي، وهي:

- سكان مدينة الجزائر.
- سكان الضواحي والمدن المجاورة، الذين يقصدون المدينة يوميا أو أسبوعيا، ويرفعون قضاياهم لقضاة المدينة.
- سكان المدن الداخلية، خاصة القادمين من السلسلة التلية وبلاد القبائل ومنطقة الزيبان وحتى من الجنوب مثل الاغواط وغرداية.

رغم تميز هذه الوثائق بالصدق والحياد والدقة والشمولية إلا أنه يرافق البحث فيها مجموعة من الصعوبات المنهجية والعلمية، لذلك لا مناص للباحثين في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة والدراسات التاريخية خاصة من الاستعانة بوثائق الإدارة الاستعمارية لتلمس ظروف تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحضارية للمجتمع الجزائري، ويأتي على رأس تلك الوثائق التشريعات التي تخص القضاء الإسلامي والتقارير المرفقة بها.

4- التشريعات القضائية للسلطة الاستعمارية

ونقصد بها مجموعة القوانين الاستثنائية والمراسيم التشريعية التي مست بالقضاء الإسلامي والتي تم من خلالها حل وتهميش مؤسسات الدولة والمجتمع خلال القرن 19؛ ويمكن اليوم تصنيف تلك التشريعات ضمن "الوثائق المنشورة" مثل وثائق المجالس العمومية والبرلمان ومجلس الوفود المالية وغيرها.

تكشف التشريعات القضائية التي صدرت في الجريدة الرسمية عن تطور سياسة الاحتلال تجاه مؤسسة القضاء الإسلامي، وما يرتبط بها من قضايا الهوية والأرض والتعليم وغيرها، وإذا كانت قبل مجيء اللجنة الإفريقية سنة 1833 تظهر في شكل قرارات وبيانات عسكرية وإدارية، فقد أصبحت تصدر ابتداء من سنة 1834 في شكل مراسيم منظمة على شاكلة المراسيم المنظمة للعدالة والتعليم والقطاعات الأخرى في فرنسا، حيث تتضمن عددا كبيرا من الفصول والمواد التي تلغي أو تكمل قرارات وقوانين سابقة لها.

لقد وصل عدد هذه التشريعات خلال القرن 19 إلى أزيد من مائة قرار وقانون ومرسوم، منها العشرات التي صدرت في العشر سنوات الأولى فقط، وكان بعضها يلغي الآخر، حتى وصف أحد مسؤولي الإدارة الاستعمارية في بداية الاحتلال وهو بيليسي دو رينو(Pellissier de Reynaud) سياسة المتصرف المدني جانتي دوبيسي(Genty de Bussy) في سن القوانين:" أصدر هذا الموظف عددا ضخما من القوانين...ووهب ملكة في كتابة القوانين وبعث الحركة في مكتبه ...، وبعض هذه القوانين ولدت ميتة، ولم ينتظر تجربتها على الواقع"[22].

3-1 ظروف صدورها وخصائصها

كان إصدار التشريعات والقرارات الإدارية لتنظيم مختلف المصالح في الجزائر قبل سنة 1834 من اختصاص قائد جيش الاحتلال، بالتعاون والتشاور مع المتصرف المدني ومجموعة من موظفي الإدارة، من مستشرقين وقانونيين وعسكريين [23]، ومن سنة 1834 إلى سنة 1848 أصبح حق التشريع بيد الملك، الذي أصدر قرارا في 22 جويلية 1848 ينص في مادته الرابعة على" أن للحاكم العام الحق في إصدار بعض المشاريع التشريعية المكملة"، واستمرت هذه الوضعية إلى بداية الخمسينات من القرن 19[24].

وكان هدف المشرع الفرنسي في هذه المرحلة هو إخضاع المحاكم الإسلامية للمحاكم الفرنسية والهيئات الإدارية العسكرية والمدنية، حتى تترك الشريعة الإسلامية مكانها تدريجيا للقوانين الفرنسية، بدءا بقانون العقوبات إلى القانون المدني ثم المعاملات التجارية خاصة في قضايا العقارات؛ وهذه

العملية أكدها المشرع والقانوني الفرنسي في بداية القرن العشرين نورس Nores في قوله عن هذه المرحلة" تميزت السياسة الفرنسية إما بالميل نحو إدماج القضاءين، أو إخضاع القضاء الإسلامي للقضاء الفرنسي، ولكل مؤسسات الإدارة"[25].

لقد كانت تشريعات ما قبل سنة 1834 موافقة لرغبة إدارة الاحتلال في عزل القضاة تدريجيا، وتهميش أحكام الشريعة، لتحقيق طموحات المستوطنين وموظفي الإدارة في الاستيلاء على الملكيات والعقارات، والتبريرات المقدمة هي حماية الجيش وضرورات الحرب ، لذلك كانت غير مدهشة عنده، رغم كل ما أصاب القضاء الإسلامي من جرائها؛ ومهمة الحكومة في هذه "الظروف" كانت تستجيب لسياسة الحرص على أمن ومصالح الجيش والمعمرين، مما جعل إجراءات القضاء لم تحدد مع استمرار الحيرة والتردد، وبقاء الاختصاصات القضائية في شد وجذب بين المصالح الإدارية والعسكرية.

كانت بداية التدخل في القضاء الإسلامي من طرف مجالس الحرب، ثم القرارات العسكرية الأولى التي صدرت سنوات 1830-1831-1832، في محاولة لفهم تنظيمات المجتمع ومؤسساته، أغلب المصادر الفرنسية تنهي هذه المرحلة بمجيء اللجنة الإفريقية وإصدار مرسوم ملكي جديد "لتنظيم القضاء"، بإدارة وإجراءات شبيهة بما هو عليه الحال في فرنسا، لأن منطق المشرع الفرنسي يومئذ أن الجزائر أصبحت أرضا فرنسية، تدار من طرف موظفين فرنسيين، وتحكم بواسطة القانون الفرنسي .

واستمرت هذه الاعتداءات مع الخطوات الأولى لجيش الاحتلال بمصادرة الأوقاف بهدف قطع المورد الأساسي لنشاط القضاة حتى يسهل تدجينهم، ثم جاءت التدخلات في التعيين والعزل والنفي، كوسيلة لإبعاد الخطرين وتقريب الموالين الضعفاء.

بعض تلك التشريعات ترتقي إلى درجة المراسيم وأخرى هي قوانين وقرارات صدرت عن قادة الاحتلال تدخلت مباشرة في عمل القضاة وصلاحيات المحاكم الشرعية، أما المراسيم التشريعية والتي كان أولها مرسوم 1834 الذي جاء تتويجا لعمل اللجنة الإفريقية وتلته مراسيم أخرى طيلة القرن

19 فقد كانت ترافقها تقارير صادرة من الحاكم العام أو وزراء العدل وتتضمن الشروحات والتبريرات التي دفعت الإدارة لإصدار هذا التشريع أو ذاك، وإذا كانت التشريعات تحدد النصوص "القانونية" لاعتداءات الاحتلال على مؤسسة القضاء الإسلامي فان التقارير تقدم إستراتيجية السلطة وظروف المرحلة وأهدافها.

كل تلك القرارات والقوانين والمراسيم والتقارير المرافقة لها كانت تنشر بالجريدة الرسمية[26]، وبعد سنة 1848 على عهد الجمهورية الثانية أصبحت تنشر نسخة باللغة العربية بجريدة المبشر وأحيانا حتى بالجريدة الرسمية التي تصدر باللغة الفرنسية[27]؛ ولكن أعيد جمع ونشر هذه القوانين والمراسيم مع التشريعات الأخرى لمختلف القطاعات الادارية والتنظيمية والعقارية والاقتصادية والتعليم وغيرها التي تخص المستوطنين والجزائريين، من طرف مشرعين واداريين فرنسيين خاصة، مرتبة إما تاريخيا كما صدرت تباعا في الجريدة الرسمية مع بعض التعليقات حول ظروف صدورها خاصة كما قدمها دو منرفيل De Ménerville [28]، وأحيانا ترتب أبجديا حسب القطاعات كما فعل المشرع والقانوني روبير أستوبلون Robert Estoublon ونشر كل المراسيم التي صدرت في حق القضاء تحت عنوان القضاء الإسلامي[29].

2-3 موضوعاتها

بالنسبة لموضوعات هذه التشريعات فقد ركزت في السنوات الأولى – قبل مجيء اللجنة الإفريقية- على التدخل في عمل القضاة والمحاكم الشرعية، خاصة في مجال الصلاحيات والتنظيمات، وقد سارت سلطة الاحتلال في هذين المجالين بالتدريج، فرغم حالة الصراع والتخبط بين بعض المراسيم والقوانين فقد تميزت الإستراتيجية الاستعمارية بالتكامل بين تلك المراسيم، وكانت التقارير السابقة للمراسيم عادة ما ترجع إلى التشريعات السابقة بعشرات السنين لتبرر التعديلات والتجديدات الحاضرة، وهو ما نجده في تقارير مراسيم سنة 1854 – 1866 – 1886.

بالنسبة للصلاحيات فقد تدرج الاحتلال في هضم حقوق وصلاحيات القضاء الإسلامي منذ اليوم الأول لدخوله الجزائر، وتنوعت الآليات والوسائل التي استعملها، بداية من تدخلات العسكريين ورؤساء المصالح المدنية قبل سنة 1834 إلى التشريعات المتوالية من قرارات وقوانين ومراسيم صادرة من الجزائر أو باريس، وانتهت هذه السياسة في نهاية القرن 19 إلى إلغاء جل صلاحيات القضاة المسلمين، وإنهاء مرحلة الصراع حول حقوق القضاء الإسلامي.

تدخل الاحتلال الفرنسي في عمل المحاكم الشرعية منذ الأيام الأولى لدخوله إلى الجزائر، عن طريق تدخلات الموظفين وقادة الجيش والمحاكم الفرنسية والهيئات والمؤسسات الإدارية المدنية والعسكرية، وكذلك من خلال ما سميت بالتشريعات التي صدرت "لتنظيم شؤون القضاء بإفريقيا"، لقد أصدرت السلطة الجديدة مجموعة من القرارات الارتجالية سنة 1830، قيّدت بها عمل القضاء؛ ومع مجيء اللجنة الإفريقية سنة 1833 بدأ المشرع الفرنسي في تحديد معالم الطريق نحو الاستيلاء على صلاحيات القضاة تدريجيا، وفق خطة طويلة المدى بدأت بمرسوم 1834 الملكي الذي أكد على حق السيادة في القضاء للمحتل واستمرت إلى في عهود الجمهورية الثانية والإمبراطورية والجمهورية الثالثة إلى نهاية القرن التاسع عشر

تم لسلطة الاحتلال الاستيلاء على صلاحيات القضاة على مراحل، ففي سنة 1830 استولت المحاكم الفرنسية مدنية وعسكرية ثم على القضاء المختلط، وفي السنة التالية أخضعت أحكام القاضي الجنائية لاستئناف المحاكم الفرنسية، ولم يعد حكمه فيها نهائيا[30]، ومع توصية اللجنة الإفريقية بالاحتفاظ بالجزائر سنة 1834، تم تشديد المراقبة على المحاكم والاستيلاء على حق تعيين القضاة، فأصبحوا موظفين لدى الإدارة الاستعمارية، في وقت اتهموا بالوقوف مع المقاومة المسلحة؛ ومن خلال سياسة الأرض المحروقة التي أتى بها الحاكم العام بيجو (Bugeaud) تم الاستيلاء على القضاء الجنائي نهائيا في مرسوم 1841/02/28، مع استئناف أحكام القضاة المدنية والتجارية لدى القضاة الفرنسيين[31]، هنا أحس القضاة بالضربة الموجعة، وهم الفقهاء الذين يدركون أن لا فرق في شؤون حياتهم بين مسائل الأحوال الشخصية

والمالية والجنائية، لأنها كل لا يتجزأ من أمور دينهم وحياتهم، كيف لا وهم يرون شريعتهم تترك مكانها تدريجيا للقوانين الفرنسية المدنية منها والعسكرية.

في العقود التالية برز دور المستوطنين والقضاة الفرنسيين في نهب وسلب أراضي الجزائريين عن طريق التدخل في عمل المحاكم، وإصدار تشريعات جديدة تخص الأراضي والملكيات، كمرسوم مجلس الشيوخ المتعلق بأراضي العرش وقانون وارنيي "Warnier" الخاص بتسجيل الملكيات لدى مصالح الإدارة الاستعمارية، وأبرز المراسيم القضائية لهذه المرحلة صدرت في سنوات: 1854-1859 -1866[32]؛ يتبين للباحث من خلال دراسة ظروف صدورها ومضامينها ونتائجها، وموقف والمشرعين والمؤرخين منها، أهداف السياسة الفرنسية ومدى تكاملها مع مشاريع المرحلتين السابقة واللاحقة، وعلاقة هذه السياسة بقضايا المقاومة والأرض والجنسية والتعليم.

وبعد سنة 1870 حرصت الجمهورية الثالثة على فرض قضاء الصلح على الجزائريين، واتخذت لذلك عدة وسائل تشريعية وعقابية وقضائية، حيث عوّل عليه المشرع الفرنسي لإقناع المجتمع الجزائري بالمؤسسات القضائية الفرنسية وواقع الاحتلال؛ ولقد ركّزت مداولات مجالس الولايات في هذه المرحلة على ضرورة توفير النصوص التشريعية والإمكانيات المالية والهيكلية لقضاء الصلح، لتعويض المحاكم الشرعية "الآيلة إلى الزوال"[33]، التي لم يبق لها من الاختصاصات إلا مسائل الأحوال الشخصية، مع طرح مبدأ الاختيار بين القضاءين بقوة حتى في قضايا ومنازعات المواريث والزواج والحضانة وغيرها، مما يعني الحق القانوني لأحد الخصوم في جر الآخر إلى المحاكم الفرنسية.

انتهت اعتداءات السلطة الاستعمارية على حقوق القضاء الإسلامي نهاية القرن التاسع عشر إلى ما تضمنه مرسوم 1886/09/10 الذي أجهز على ما تبقى من صلاحيات القضاة في المعاملات المالية والتدخل في قضايا الأحوال الشخصية، وكان مكملا ومتعاونا مع قوانين الأرض والجنسية والأهالي لتحقيق أهداف السياسة الاستعمارية الرامية إلى إلغاء الآخر، تحقيقا لشعار الجمهورية الثالثة "يجب تأكيد احتلالنا بتطبيق قوانيننا"[34]؛ ورغم الاحتجاجات الكبيرة التي قام بها

المجتمع الجزائري بقيادة نخبه العلمية والسياسية فقد أكدت مراسيم نهاية القرن (خاصة مرسومي 1889 و1892) ما تحقق من قبل[35].

خاتمة

تشترك التشريعات الاستعمارية مع عقود قضاة المحاكم الإسلامية في إبراز مظالم سلطة الاحتلال تجاه القضاء الإسلامي، وتكشف كلها عن التراجع الذي لحق بصلاحياته ومكانة قضاته وموظفيه؛ في حين تنفرد المراسيم والتقارير الفرنسية بالكشف عن الإستراتيجية الاستعمارية في هضم حقوق القضاء الإسلامي، وظروفها التاريخية والسياسية؛ وبالمقابل تقدم لنا عقود القضاة تدهور الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لأفراد وفئات المجتمع الجزائري في القرى والحواضر خلال القرن التاسع عشر.

وفي الأخير يمكن القول أن الدراسات العلمية الجادة لا غنى لها عن المصدرين، مع التأكيد على أهمية الوثائق المحلية التي امتزجت فيها وجهة نظر القضاة مع الصفة القانونية للنصوص وأثر مراقبة الإدارة لها؛ ولذلك يمكن التوصية بلفت انتباه الباحثين إلى أهمية هذه الوثائق في فهم تطور المجتمع الجزائري خلال الفترة المعاصرة وانعكاسات التشريعات الاستعمارية عليه.

الهوامش:

[1] – رغم التحديد الذي طال صلاحيات القضاة وكذلك إلغاء المجلس العلمي لمدينة الجزائر، فقد بقيت سجلات القضاة تحتوي على مادة تاريخية مهمة يستفيد منها الباحثون في عدد من التخصصات العلمية.: عبدالباسط قلفاط، النشاط الاقتصادي في مدينة الجزائر من خلال سجلات المحاكم الشرعية بين 1850-1930، ضمن دراسات مهداة إلى المجاهد المؤرخ جمال قنان، وتنسيق جمال قندل، دار بن حمدة للطباعة والنشر، الشلف (الجزائر)، 2019، صص 298-219.

[2] – تتعرض الوثائق إلى بعض الشخصيات العلمية ودورها في المجتمع، وعند وفاتها يتم حصر متروكها ومن جملتها المكتبات، وفي رسوم "الفريضة" يعرف الورثة مدى استمرارية المناصب الدينية في العائلة. أنظر متروك المفتي المالكي علي بن عبدالرحمان بن الحفاف في: حكم 77 وحكم 78 في 1890/6/29، سجل محكمة مالكية، D175.الأرشيف الوطني الجزائري.

[3] – من هذه العبارات: "قبضهم ديركتور القاز" في حكم 21 في 1902/8/25، سجل محكمة مالكية، D260. و"الكوميسير بوليس" في حكم 57 في 1910/1/17 سجل محكمة مالكية، D312. و"بالة سميد وبالة نخالة" في حكم 897 في 1913/10/18، سجل محكمة مالكيةD351. الأرشيف الوطني الجزائري.

4 – انخفض عدد سكان مدينة الجزائر بأكثر من الثلثين خلال ربع قرن فقط، فبعدما كان عددهم مائة ألف نسمة سنة 1830 انتقل إلى ثمانية عشر ألف نسمة في الخمسينات، أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ج1(1860-1900)،دار الغرب الإسلامي، ط1،بيروت،1992، ص 80.

5 – كتب بول شارناي المفكر وعالم الاجتماع الفرنسي (1928- 2013) دراسة عنوانها:

JEAN-PAUL Charnay, La vie musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de la première moitié du 20e siècle, presses universitaires de France, Paris, 1965.

6 – نشر سعد الدين بن شنب مقالتين حول هذه الوثائق منذ سنة 1945 ونبه الى أهميتها في الكتابة التاريخية

Saadeddine Benchnèb, Un acte de vente drèssé à Alger en 1648, in RA, 1945, pp. 287-290.
Saadeddine Benchnèb, Un contrat de mariage algérois au début de 18 siècle, in : Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, T 13,1955

7 – نبه ابوالقاسم سعدالله في دراسته حول سجل محكمة المدية عن أهمية هذه الوثائق في الدراسات التاريخية، الدراسة بعنوان:" دراسة اجتماعية في دفتر محكمة المدية أواخر العهد العثماني(1821-1839) " أنظر:أبو القاسم سعدالله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986، صص 269-298. ونشر ناصر الدين سعيدوني دراستين في الموضوع الاولى بعنوان:" موظفو مؤسسات الاوقاف بالجزائر في اواخر العهد العثماني من خلال الارشيف الجزائري"، المجلة التاريخية المغربية، ع 57 و58 جويلية 1999، والثانية عن: وثائق الاوقاف بالارشيف الجزائري وامكانية استغلالها في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، المجلة التاريخية المغربية، ع 93 و94 ماي 1999.

8 – منها دراسة فاطمة الزهراء قشي،"قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الاول من القرن 13هـ"، أطروحة دكتوراه نوقشت في تونس سنة 1998، ودراسة ازابيل قرانغو" Isabelle Grangaud حول مدينة قسنطينة: La vill Imprénable:une histoire sociale de Constantine au 18e siècle . ودراسة عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقاربة اجتماعية – اقتصادية، المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والاشهار، رويبة، 2012.

9 ومنها أطروحتي للدكتوراه التي نوقشت سنة 2016 بجامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعدالله، تحت اشراف الدكتور المرحوم جمال قنان عنوانها "القضايا الاقتصادية لمجتمع مدينة الجزائر بين 1886-1930"، واعتمدت فيها على سجلات المحكمتين المالكية والحنفية لمدينة الجزائر. وناقشت كذلك الباحثة يامنة بحيري رسالة ماجستير وأطروحة دكتوراه بنفس الجامعة، وصدرت الأولى في كتاب تحت عنوان "المعنى الظريف في تاريخ شرشال الحديث: مجتمع شرشال في النصف الثاني من القرن 19 من خلال وثائق المحاكم الشرعية"، وأطروحتها للدكتوراه عنوانها "الأسرة والمجتمع في منطقة شرشال من 1873-الى 1914 من خلال وثائق المحاكم الشرعية"، وقد اعتمدت على سجلات محكمة شرشال؛ إضافة إلى أطروحة الدكتوراه للباحث عبدالله بابا من جامعة أدرار تحت عنوان "الحياة الاجتماعية والاقتصادية بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1900-1962 من خلال سجلات المحكمة الشرعية"، نوقشت سنة 2019. وفي جامعة الأمير عبدالقادر بقسنطينة قدم الباحث عثماني الجباري رسالة الماجستير بعنوان " مدينة الوادي..الحياة الاجتماعية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن 19م من خلال سجلات المحاكم الشرعية سنة 2009م؛ ثم قدم أطروحة الدكتوراه بنفس الجامعة سنة 2017 تحت

عنوان" الحياة الاجتماعية والاقتصادية في وادي سوف بين 1918-1954 من خلال سجلات المحاكم الشرعية". ولعله توجد دراسات أخرى لم تصلنا وبعضها في الطريق.

10 – عبدالباسط قلفاط- سياسة الاحتلال الفرنسي تجاه القضاء الإسلامي في الجزائر بين 1830-1892- ط1- إصدارات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف- الجزائر- 2015- صص 123 – 124 - 125.

11 – عن أثر الحرب العالمية الأولى على المجتمع الجزائري من خلال وثائق المحاكم الشرعية أنظر: عبدالباسط قلفاط، الجزائريون في الحرب العالمية الأولى من خلال سجلات المحاكم الشرعية، صص 252-272. ضمن أعمال الملتقى الوطني: الجزائريون والحرب العالمية الأولى، جمع وإشراف د.امحمد دراوي و أ. سليم أوفة، دار التل للطباعة البليدة (الجزائر)، 2018.

12 – للمزيد عن الكانتونات القضائية أنظر قرار 30-11- 1855 الذي تعذر تطبيقه مع بدء الحملة على القضاة ، فألغيت عدة مجالس قضائية قبل 1860، وحسب منرفيل فان أغلب المجالس لم تعد موجودة منذ بداية الستينيات:

Pinson de Ménerville, dictionnaire de la législation Algérienne (1830-1872) ,T2 ,P,125

13 – عن أبرز القضايا الاقتصادية التي تناولتها عقود القضاة أنظر: قلفاط، النشاط الاقتصادي في مدينة الجزائر من خلال سجلات المحاكم الشرعية ...صص 300-315.

14 – يطرح هذا المشكل حتى في الدراسات التاريخية للعصر الوسيط، أشار الباحث المغربي ابراهيم بوتشيش الى هذه الثغرة التي تواجه الباحث في تاريخ الاقتصادي للغرب الاسلامي ، أنظر دراسته بوتشيش ابراهيم، الحاجة الى معجم لمصطلحات التاريخ الاقتصادي للغرب الاسلامي، في اضاءات حول تراث الغرب الاسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2002، صص، 60-76.

15 - Marcelin Beaussier, Dictionnaire pratique Arabe-Français, Librairie Adolphe Jourdan, Alger,1887.

16 - Recueil des actes du Gouvernement de L'Algérie (1830-1854) - . ولكن تختلف بعض عناوين السجلات في العقود التالية، فتظهر سجلات الترايك والمفاصلات، وسجلات خاصة بالرجعة، وتتضمن سجلات الاحكام المختلفة مسائل من كل السجلات السابقة.

17 – المحكمة المالكية كان مقرها بالجامع الكبير طيلة الفترة الحديثة والمعاصرة ثم انتقلت الى مقرها الجديد بجوار مسجد كتشاوة بشارع Rué Brice سابقا سنة 1942 على عهد القاضي المالكي شاندرليه الضابط السابق بالجيش الفرنسي. أما المحكمة الحنفية التي كانت بالمسجد الجديد – مسجد المسمكة – ويقع بجوار المسجد الكبير- فقد تحولت الى مقرها الجديد بمكتب الموثق بن عبيد حاليا بساحة الشهداء بجوار مركز الصكوك البريدية ومقابل الخزينة العمومية سنة 1859، معلومات أفادنا بها أحد الموظفين عند الموثق بن عبيد.

18– الموثق محمد الطاهر بن عبيد عميد الموثقين الجزائريين احتفظ بسجلات المحكمة الشرعية الحنفية كلها منذ 1973 نيابة عن وزارة العدل، وهي عنده أغلبها في حالة جيدة، وقد فتح لي أبواب مكتبه لتصفح تلك السجلات، توفي المرحوم بن عبيد مؤخرا بتاريخ 2022/11/25، رحمه الله وتغمده برحمته.

[19] – منها: سجل مراسلات رقم D209 وسجل الاحكام المختلفة رقم D276 وسجل الترايك والتحجير رقم D199.مركز الأرشيف الوطني.

[20] – نفس هذا التقسيم نجده في المدن التالية: قسنطينة–وهران– المدية– تلمسان، وفي غيرها توجد سجلات المحاكم الشرعية للفترة المعاصرة وهي محاكم مالكية، وأغلبها مهملة في حالة يرثى لها، وغير متوفرة للباحثين، احتوت عليها أرشيف المحاكم والمجالس القضائية، وحتى مكاتب الموثقين لحاجة الناس إليها في مرحلة سابقة لشؤون الحالة المدنية.

[21] – جمعت وثائق المحاكم الشرعية في الفترة الاستعمارية من طرف اعوان الادارة وموظفي الاملاك العقارية، بقصد التعرف على وضعية الملكية والاستحواذ عليها، وقد بقيت هذه الوثائق مهملة بارشيف الولاية العامة بعد "تسوية الملكية العقارية وقضايا الاوقاف، واستيلاء الاروبيين على الكثير من الاراضي الخاصة بالمدن والريف"، وأعطاها محافظ الارشيف غابريال اسكير(Gabriel Esouer) اسم مجموعة Série :Z". للمزيد عن وثائق المحاكم الشرعية في الفترة الحديثة وبداية القرن التاسع عشر أنظر: سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، صص، 178–179–180.

- [22] -Péllissier de (R), Annales Algériennes, T1, libraire bastide, Alger, 1839, T1, P, 236.

واعترف جانتي دو بوسي أن عدد القرارات التي صدرت حتى عهد اورليون بلغت 451 قرارا أنظر:

- Genty de (B), De l'établissement des françaises dans la régence d'Alger, paris, 2em edition,T1,1839,P 239.

[23] - منهم رئيس المحكمة العليا وقبلها محكمة القضاء، رئيس المحكمة الجنائية ، وكيل الملك، محافظ خاص بالقضاء ، محامين مترجمين ، ذكرهم Genty(B),T2,P,466 و La Commission d'Afrique,,T2,P,134

[24] - القرار22–07–1848 في: Recueil des actes du Gouvernement de L'Algérie,111-112

[25] - Norés (E), l'Oeuvre de la France en Algérie: la justice Collection de centenaire, Libraire Félixe Alcan, Paris,1931,P, 470

[26] – كل تقارير المراسيم موجودة بالجريدة الرسمية إلا تقرير المرسوم الأول فلم نعثر عليه إلا في محاضر اللجنة الإفريقية، وحجم أغلب التقارير يتجاوز السبع صفحات، وكلها تقدم مادة علمية قيمة عن تطور الاستراتيجية الاستعمارية في ضرب مؤسسة القضاء الإسلامي.

[27] – اختلفت تسميات هذه الجريدة تبعا لتغيرات أنظمة الحكم في باريس.

[28] – Pinson de Ménerville,Dictionnaire de la législation Algérienne (1830-1872).

[29] – Robert Estoublon and Adolphe Lefébure, Code de l'Algérie annoté 1830-1895,Libraire-Editeur, Alger, 1896.

[30] – عن مضمون القرارات التي صدرت في السنوات الثلاث الأولى أنظر: عبد الباسط قلفاط– سياسة الاحتلال الفرنسي تجاه القضاء الإسلامي في الجزائر بين 1830–1892– ط1– إصدارات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف– الجزائر– 2015– صص 123 و128– 129.

[31] – عن تقارير اللجنة الإفريقية الخاصة بالقضاء أنظر: La Commission d'Afrique, Op.Cit,PP268-276

[32] – عن هذه المراسيم: عبد الباسط قلفاط– الاستعمار الفرنسي والقضاء الإسلامي بالجزائر – مجلة حوليات مخبر التاريخ والجغرافيا – ع 4 – 2011 – ص278-279.

[33] – – عن دور قضاء الصلح في مطاردة المحاكم الشرعية أنظر، قلفاط– سياسة الاحتلال – المرجع السابق – صص347-351.

[34] – – Conseil Général de Constantine - Projet adopté par les délégations financières – 1879 - PP 179-245-et 249.

[35] – للمزيد عن مضمون تشريعات الثمانينات والتسعينات أنظر: قلفاط، الاستعمار الفرنسي والقضاء الإسلامي...، صص 278-280.

ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية
ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

المجلد: 02، العدد: 01	رجب 1444هـ/فيفري 2023م	الصفحات: 167-177

الشيخ سعد بن هدنة التبّاني السطايفي سيرة عالم ومجاهد

Sheikh Saad bin Hudna al-Tabbani al-Sataifi, biography of a scholar and The mujahid

حدة قادري *
جامعة الجزائر 2–مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر)
dda.kadri@univ-alger2.dz

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال 2022/10/01 تاريخ القبول 2023/01/12 الكلمات المفتاحية: أولاد تبان؛ الطريقة السعدية؛ الزوايا؛ المقاومة الشعبية؛ الاحتلال الفرنسي.	يكاد تاريخ الجزائر كله مؤرخا بالمصادر الفرنسية وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى محاولة إعادة كتابة تاريخ الجزائر اعتمادا على الوثائق المحلية الجزائرية من خلال استكشافها واستعمالها في الدراسات التاريخية، وهذه المسالة ليست جديدة على الباحثين؛ حيث يشتكون دائما من قلتها حينما يشرعون للكتابة عن تاريخ الجزائر، وبتالي من الواجب علينا نحن اليوم كباحثين جدد أن نجتهد لاكتشاف تلك الوثائق المحلية واستعمالها بدل التوقف عند المصادر الفرنسية الجاهزة والسهلة الاستعمال نسبيا حتى لا نقع في عملية تكرار ما كتبه الباحثين السابقين، وإذا كان هذا هو السبب الذي دفعني هنا لاتخاذ هذا الاتجاه في دراستي هذه فإن ما تحتوه من معلومات قد تكون قليلة في نظر القراء ولكنها ستلفت انتباه الباحثين إلى أهمية الوثائق الأرشيفية المحلية التي في اعتقادي أن فيها كل الفائدة لخدمة تاريخنا، وليس هدفي من هذه الدراسة إلا الرغبة في أنقاض بعض الوثائق المحلية من الضياع والتلف وخارجها من رفوفها المظلمة إلى عالم النور بنشرها في الأبحاث العلمية.
Article info	**Abstract:**
Received: 2022/10/01 Accepted: 2023/01/12	Every region of our country Algeria has figures who immortalized their names through their scientific, religious, cultural and even revolutionary activities, and the region of Setif in general has many figures who have had a prominent impact in the dissemination of science.Among those figures Cheikh Alwarthilani ,Cheikh Alarbi Tabani ,Cheikh Mohamed SAdik HAmadouche and Cheikh Saad Tabani,

the latter we will talk about in these pages; He is one of the figures of South Setif, the scholar Saad bin Hudna al-Tabbani, the son of the Awlad Tiban region and one of its most prominent great figures. He worked on establishing many angles beginning in his area, Awlad Tiban, and others in the rest of the country and even outside it (Tunisia, Libya..), and his angles were the destination of students from inside and outside the region, attributed to him the Saadia way, Also, with the advent of the French occupation, he led a popular resistance that stood against the advance of the French army in the interior regions, and one of the results of this resistance was his exile and his departure from Algeria towards Tunisia, where he settled. This study attempts to track the status of the Muslim Law courts in Algeria through two types of documents, one of which is local, which is the “Mahakim Sharia” documents, and the other issued by the colonial authority, which is judicial legislation what is the value of the scientific article provided by these documents? And to what extent did the contracts of judges reveal the extent of the change that affected Islamic courts and the rights of judges?

This study aims to introduce these documents and the difficulties that the researcher faces in dealing with them, as well as identifying their characteristics and importance in historical writing on the subject of the judiciary and its relationship to the components of the Algerian society during the occupation period.

Key words:
Ouled Tabban; the Saadian way; angles; popular resistance; the French occupation.

مقدمة:

عرفت الجزائر بصفة عامة ومنطقة سطيف بصفة خاصة رجال فكر وعلم وكذا حرب، عبر مختلف العصور من القديم إلى الحديث، كان لهم الأثر البارز في جميع المجالات الأدبية والثقافية والاجتماعية والدينية، في مداخلتنا هذه سنركز على الفترة الحديثة وصولا للمعاصرة هذا زمنيا، أما مكانيا ارتأينا العمل على علَم من أعلام سطيف وبالتحديد منطقتي أولاد تبان، حيث سنحاول التعرف على العلامة المجاهد سعد التباني الذي تنسب له الطريقة الصوفية السعدية، وكانت له مكانة مهمة كرجل علم وعمل، وحتى رجل ثوري قاد مقاومة شعبية بالمنطقة الجنوبية من الإقليم السطايفي ضد الاحتلال الفرنسي، أين انطلقت أفواج المقاومين من منطقته أولاد تبان باتجاه سطيف.

وللرجل مكانة علمية أين أسس عددا من الزوايا في مختلف مناطق الوطن شرقا وغربا وحتى خارجه، فمن خلال عدد من الجرائد استقينا مجموعة من المعلومات عن هذه الشخصية. وعليه تمحورت إشكاليتنا ؟ فمن هذا الرجل؟ وما هي أعماله التي قام بها ؟ وكيف ساهم في التأريخ للمنطقة أولاد تبان؟

1- جغرافية منطقة أولاد تبان

تقع أولاد تبان في الركن الجنوبي الغربي لولاية سطيف، ومعظم تضاريسها هي جبال وهي جزء من جبال الحضنة، تشرف من الجهة الجنوبية على المناطق السهبية لولاية المسيلة، وتشترك من الجهة الغربية مع ولاية برج بوعريريج عن طريق جبال البيبان التي، أما من الجهة الشرقية فتتصل ببلدية الرصفة، وتشترك معها طبيعيا بكتلة جبلية تبدأ بجبل قديل وجبل بوطالب وتمتد شرقا حتى تلتحم بكتلة الأوراس الجبلية أكبر الكتل الجبلية بالشرق الجزائري(1).

تتكون منطقة أولاد تبان من ثلاثة عشر (13) مشتة هي: تالات، أولاد شعاعة، أولاد عيدة، هوارة، بونصرون،أولاد ثابت، أولاد بوزيد، لبعاطيش، السهالة، لفحاحمة، لخرايف، أولاد رحاب، وهذه المنطقة قريبة من الحزام الغابي الذي يشكل موردا هاما للسكان(2)، وبهذا احتلت منطقة أولاد تبان موقعا استراتيجيا كونها وجدت في زاوية ربطت بين ثلاث ولايات سطيف البرج والمسيلة، هذا الموقع كان بيئة جيدة لتكون مركز لمؤسسات دينية واجتماعية وعلمية؛ تمثلت في الزوايا(3)، كما أنّ هذا الموقع في فترات لاحقة شجع سكانها على تقديم دور بارز أثناء الثورة التحريرية، وحتى قبل ذلك أثناء المقاومات الشعبية أين احتضن عديد الثوار والثورات التي واجهت زحف الجيوش الفرنسية نحو المناطق الداخلية.

2- المولد والنشأة

إن حياة الشعوب والأمم مدينة بالفضل لرجالات برزوا وقدموا لها ثمارًا تظل تتغذى عليها أجيال فأجيال، رجال تمتد أعمارهم قرونًا ويطوى ذكرهم وعلمهم المسافات والأزمان، رجال هانت الدنيا في أعينهم، وصغرت المشاق عندهم حين قاسوها بالغايات المرجوة، من هؤلاء نذكر الإمام المجاهد سيدي سعد (ساعد) التباني ابن هدنة بن علي بن المهدي آل هدنة التباني، أمه الضاوية مرادي، ولد بأولاد تبان حوالي عام سنة 1785م حسب بعض

الاجتهادات، كانت بركة علمه وجهوده واضحة في هاته المنطقة أين عاش مجاهدًا وعالما زاهدًا، تلقّى تعليمه الأول في مسقط رأسه، درس بأحد مساجد قسنطينة[4]، ثم التحق بزاوية موسى بن حسن الشاذلي بالغرب الجزائري(5)، حيث قضى مدة زمنية في حفظ القرآن الكريم وتلقي مبادئ الفقه الإسلامي، ومن هناك سافر إلى المغرب الأقصى لتوسيع معارفه بجامع القرويين بمدينة فاس منارة العلوم(6). بقي بها فترة زمنية تقارب ست عشرة سنة (16) متعمقا في علوم الشريعة والفقه وفنون التصوف، خاصة وأنّ مدينة فاس كانت تُعتبر قلعة الصوفية في المغرب الأقصى آنذاك، ونال بذلك درجة الفقيه القاضي. درس ودرّس القرآن الكريم لخاصته وفسّره برواياته العشر. يُعرف بين الأهالي بالمغربي بوجلابة، لطول مكوثه بالمغرب الأقصى.

رجع سعد التباني إلي وطنه أولاد تبان سنة 1815م وأسس رباطه المعروف بالزاوية بجبل قديل "تاغرامت"، الموجودة لحد اليوم، ثم حولت بعد ذلك إلى الشرقية لقرية خروف من أجل نشر العلم والمعرفة. أخذ على عاتقه تدريس القرآن الكريم والفقه لأبناء قريته (أولاد تبان)، والقرى المجاورة: (أولاد حجاز، الحضنة، بوطالب) فكانت هذه الزاوية مقصدا لطلاب العلم من مختلف الربوع، فكثُر الأتباع والمريدون بالزاوية وانتشر خبره وكراماته بين الأهالي.

وممّن تعلم ودرس بهذه الزاوية نذكر الشيخ سي أحمد بن الحاج صالح الإمام السابق لمسجد رأس الوادي وغيره الكثيرون، ومصادرها كانت من صدقات المحسنين(7).

3- آثاره

ازدادت مكانة سعد التباني كرجل علم ودين نظرا لما كان يقدمه من علم وعمل لمختلف طبقات المجتمع، ومن أهم أعماله نجد:

- تأسيس كُتّاب لتعليم القرآن في قرية لخرايف عند أخواله.

- تأسيسه العديد من الزوايا والأولى كانت زاوية تاغرامت بأعالي جبل قديل والتي كانت مقصد لطلاب العلم من داخل المنطقة وخارجها؛ في بدايتها كان عدد الطلبة يفوق الستين(60) طالب من مختلف المناطق(أولاد تبان، الحامة، بوطالب، رأس سيلي، رأس الواد، مقرة، بونصرون، والعيون الباتنية)، تلقوا فيها علوم الدين والفقه، التفسير، اللغة بالإضافة إلى القرآن الكريم والإجازة فيه. اعتمدت زاوية سعد التباني على برنامج تعليمي يبدأ بعد صلاة الصبح ويستمر إلى صلاة العشاء، ويتخلل الصلوات حلقات ذكر جماعية.
- كان مقررها تدريس المواد التالية بمتون علمية تمثلت في: الفقه المالكي بمتن المرشد المعين لابن عاشر، وفي العقيدة متن جوهرة التوحيد، وفي التصوف كانت تتبع الطريقة الرحمانية[8]، وفي اللغة والنحو درّست متن الأجرومية[9].تخرج من الزاوية عدد لا بأس به من حفظة القرآن الكريم، وطلبة العلم والدين الذين ذاع صيتهم كمعلمين ومدرسين وأئمة كتاتيب، ومن بين طلبته: الشيخ محمد السعيد الدراجي، الشيخ محمد الشاوس السعيد، عمر بن الشيخ بن السعيد، والحاج العياشي، ومحمد القندوز[10].
- كما أسّس زاوية في سوق أهراس وأخرى في الخروب(قسنطينة)، وله زاوية في زغوان بتونس[11]، بعدما تم نفيه إلى تونس بسبب مناهضته للاحتلال الفرنسي.
- ولسعد التباني زاوية في بنغازي بليبيا، وهناك روايات عن تأسيسه لزاوية في المدينة المنورة[12] . وهنا نتساءل هل تأسيس الزوايا الموجودة في تونس وليبيا والحجاز تم قبل خروجه من الجزائر أم بعد ذلك؟ الراجح أنّه خرج من الجزائر ودخل مصراته الليبية 1843م وأسس بها زاويته هناك دخل زغوان تونس 1871م وأسس بها زاوية[13].ثم رجع إلى بنغازي الليبية وأسس بها زاوية سنة 1878م.
- تولى القضاء في شرق البلاد نواحي قسنطينة.

- حجّ سعد التباني سبع(7) مرات حسب جلّ الروايات.
- كان سعد التباني فقيها ومدرسا وشاعرا(الشعر الملحون)[14]، فقد كان مفتي المذهب المالكي في منطقته وبقسنطينة وحتى في المدينة المنورة. ومن بين الوثائق التي تثبت ذلك مجموعة من المخطوطات منها رسالة فتوى رد بها على صديقه النايلي من المدينة المنورة 18شعبان/22جويلية 1822م. يسأل فيها عن حال أعراش المنطقة.
- له العديد من الرسائل المخطوطة منها مؤلف بعنوان أحكام الطريقة الرحمانية مكون من 15 صفحة[15]. كما لديه ورد خاص بالطريقة الرحمانية مكون من لوحتين. لديه بعض رسائل الفتوى (فتوى في الطلاق، فتوى وقف أرض بني عليها المسجد العتيق ببوسعادة، فتوى على أرض في رأس إسلي ...).
- كما قاوم المستدمر الفرنسي مع الحاج مصطفى بن التهامي صهر الأمير عبد القادر

إذا فسعد التباني رجل علم ومنارة علمية كان يهتدي بها، وقد كانت زاويته بأولاد تبان تضاهي زاوية الهامل ببوسعادة في العلم، إضافة إلى كل هذا فقد كان رجل حرب.

4- سيدي ساعد التباني قائد ثوار أولاد تبان:

مع وصول الاستعمار الفرنسي لإقليم التل المحصور بين جبال الحضنة جنوبا وسطيف شمالاعام 1838 ، انطلقت المقاومة الشعبية تحت قيادة سيدي سعد التباني ورفقة بعض المجاهدين لقبائل وأعراش هذه المنطقة كأولاد تبان وأولاد حجاز مرورا بالمواسة وبوطالب[16]؛ والحامة إلى أولاد سلام وأولاد سلطان بنقاوس، إضافة إلى الحضنة[17]، وبعد مبايعة أعيان هذه المناطق سعد التباني خليفة عليهم، وكان من هؤلاء الأعيان: مولاي الطيب بعموشة، وموسى الأغواطي القائم على زاوية تاغمة في بني يعلى، ومولاي عبد السلام (بودربالة) نواحي الأغواط، اتخذ من رأس إيسلي مركزا له، انطلقت المواجهة ضد الجيش الفرنسي.

استطاع سعد التباني أن ينظم صفوف أهالي أولاد تبان وباقي العروش منها أولاد سي أحمد(من قبيلة ريغة)، كما أنه تحالف مع الحاج مصطفى بن التهامي صهر الأمير عبد القادر، وقاموا بهجوم على القوات الفرنسية(كتيبة سطيف والمكونة آنذاك من فرقة الخط 22)، في العشرين من شهر جويلية 1840م(معركة البرج)[18]انطلاقا من أولاد تبان التي كانت تعرف ببوطالب[(19)].

ونتيجة لتزايد نماء قوة الشيخ التباني بالمنطقة حيث بلغت حوالي مائة 100 فارس ونحو خمس مائة 500 من المشاة[(20)]، حشدت القوات الفرنسية لمواجهته والقضاء عليه قوات يقودها الجنرال لوفاسور (Levasseur)جاءت من قسنطينة وسطيف لحصار جبال أولاد تبان وجبل بوطالب، التي كانت تحتضن المجاهد سعد التباني وأتباعه، وقد جرت معركة أواخر شهر ديسمبر 1845م دامت هذه المعركة شهر كامل صاحبها تساقط كثيف للثلوج، تكبّد فيها العدو الفرنسي خسائر كبيرة بجيشه منها مئات القتلى والجرحى[(21)].

عانت فرقة الجنرال لوفاسور كثيرًا في بوطالب نتيجة الظروف القاسية للمنطقة شهر يناير، ما أجبره على الانسحاب من معسكره واتجه إلى عين أزال[(22)]. لكن بتاريخ 28 جانفي غادر الجنرال لوفاسور عين أزال متجها إلى رأس إيسلي على المنحدر الشمالي لبوطالب في اليوم الموالي، أين سيواجه سعد التباني للمرة الثانية في معركة والتي انهزم فيها، وتمت مطاردته (سعد التباني) والمقاومين في جميع المناطق، وبتاريخ 30 جانفي يغادر الجنرال معسكره في رأس إيسلي ويتجه إلى أولاد تبان التي عَمد على تخريبها عن طريق حرق أرزاق المواطنين، وإشعال النيران في القرى وحتى المطامير، ولم يسلم منها إلا ماكان في الجبال الوعرة كجبل قديل[23]، وكان لهذه المعركة صداها خارج حدود الجزائر والتي دونتها الكتابات الفرنسية (شارل فيرو،حوليات الحرب الإفريقية)[24]، والصحف[(25)].

أصبح سعد التباني ملاحقا من قبل القوات الفرنسية فانتقل إلى الجنوب أين التقى بالعلاّمة موسى بن الحسن المصري، ممّن تخرج من زاوية سيدي محمد ظافر المدني شيخ الطريقة المدنية الشاذلية، وعن طريقه تعرف سيدي سعد التباني عليه وقرر الخروج قاصدا هذا العلامة في ليبيا وتحديدا مصراتة، حيث مقر الزاوية الشاذلية المدنية، فالتقى بشيخه محمد ظافر المدني ولازمه ثلاث سنوات يدرس العلوم الشرعية في زاويته، وبعد وفاة شيخه خلفه في مشيخة الزاوية والطريقة المدنية مدّة زمنية، انتقل بعدها إلى مدينة زغوان التونسية مؤسسا زاويته هناك سنة 1871م حيث مكث بها حوالي ثمانية(8) سنوات.

ثم رجع إلى بنغازي مرة ثانية وأسس زاويته بمنطقة سيدي خريبش العام 1878 والتي تقع وسط مدينة بنغازي، وفي هذه الزاوية ظهرت طريقته الصوفية الخاصة الطريقة الساعدية[26] أو السعدية. ثم منها خرج إلى تونس مجددا وتحديدا إلى زغوان حيث قاد عدة معارك ضد الإستعمار الفرنسي. توفي ودفن في زاويته بهذه المدينة التونسية سنة 1905 عن عمر ناهز 120عام (قبره معروف في زغوان ويزار للأن). قضاها كلها بالعلم والجهاد تاركا أثره في ثلاث دول مغاربية الجزائر، ليبيا، تونس.

ويبقى سبب مغادرة سعد التباني للجزائر بعد فشل ثورته غامض.....هل كان بسبب الملاحقات الفرنسية له ؟أم كان في إطار رحلة حجازية؟

أحفاد سيدي سعد التباني: له عدة خلفاء منهم سيدي محمد الطاهر التباني الذي خلف والده على زاوية زغوان،درس بالأزهر الشريف ومات بالمدينة المنورة.

سيدي المسعود التباني الذي انتقل من زغوان إلى سوق أهراس وأسس زاويته هناك.

وللشيخ التباني حفيدات هنّ الشافية وفردوس ونفيسة.

خاتمة :

وفي الختام يمكننا القول أنّ:

سعد التباني شخصية علم ودين وجهاد، وقد كانت زاويته الأولى التي أنشأها بأولاد تبان "تاغرامت" تضاهي زاوية الهامل ببوسعادة في العلم، فقد قصدها طلاب العلم من كل حدب وصوب، فزاوية مثل زاوية سعد التباني التي تخرج منها العديد من الأعلام كأحمد بن سحنون التباني وعلى بن عبد الله بن السعيد، وعيسى بن عطية الحجازي ومحمد العربي التباني المدرس بالمسجد الحرام ودفين مكة المكرمة وآخرون كثيرون... جديرة بالاهتمام من طرف الدّارسين الباحثين، خاصة وأنّها كانت تحوي مكتبة مخطوطات نادرة لم يتم العثور عليها بعد أن قامت السلطات الفرنسية في خمسينات القرن الماضي (حوالي 1958) بتدمير وحرق المكتبة. وقد تكون صادرت العديد من المخطوطات .

فعلا سعد التباني شخصية تاريخية علمية وثورية تستحق إلتفاتة من الباحثين،فهي مغيبة تماما في الدراسات التاريخية وخصوصا الآكاديمية منها. وإنه لأمر مؤسف أن تزخر بلادنا بكهذا أعلام وشخصيات ولا نجد من يكتب ويبحث في تاريخها، نتمنى أن تحظى بدراسات معمقة من أهل الاختصاص، وأن يولى الاهتمام بالزاوية التي سميت باسم سعد التباني التي هي في طور الإنشاء .

---

(1)– محمد شمبازي، التهجير القصري إبان الثورة الجزائرية(1954–1962) عرش أولاد تبان نموذجا، الملتقى الوطني مآثر الثورة التحريرية في منطقة سطيف، منشورات جمعية النبراس الثقافي، سطيف، 2022، ص51.

(2)– بلقاسم صحراوي، من ذاكرة الثورة التحريرية منطقة أولاد تبان والمساهمة الثورية، مجلة أول نوفمبر، العدد 129،2020، ص34.

(3)– الزاوية: لغة مأخوذة من الانزواء بقصد العكوف على العبادة أو على تلقي العلم بعيدا عن دنيا الناس ومشاغلهم اليومية، وهي أيضا رباط المجاهد في سبيل الله وحافظ الثغور،يطلق على بناء أو مجموعة أبنية ذات طابع ديني ،وهي تشبه المدرسة في تخطيطها وأجزائها ووظيفتها التعليمية ،وقد ذكر دوماس Daumas عام 1847 في كتابه تعريفا

للزاوية فقال: الزاوية على الجملة مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة.للمزيد ينظر:ليفي بروفنسال،الزوايا،تر:أحمد الشنتاوي وآخرون،المجلد10،دائرة المعارف الاسلامية،القاهرة،ص332.

(4)-شارل فيرو، تاريخ سطيف، تر: لخضر بوطبة، ط1، دار الباحث للنشر والإشهار، برج بوعريريج، 2022، ص99.

(5)- زاوية موسى بن حسن الشاذلي: أو زاوية سيدي أبي الحسن الشاذلي

(6)- يوم دراسي حول التعليم القرآني ودوره في إبقاء جذوة الوعي إبان الاستدمار الفرنسي –جنوبي سطيف أنموذجا- ،ط1، دار المثقف للنشر، الجزائر،2022، ص13.

(7)- بلقاسم شتوان ، الزوايا العلمية في سطيف، مجلة المعيار، المجلد5، العدد10، 2005، ص391-410.

(8)- الطريقة الرحمانية: وهي طريقة صوفية تربوية تعليمية جهادية معروفة خاصة في زوايا الشرق الجزائري، تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي الجرجري المتوفى العام 1793، وهو من قبيلة آيت إسماعيل، إستقر في المشرق ثم عاد إلى قريته ينشر طريقته ، فأسس بها زاوية. للمزيد ينظر:أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، ج1،ص123.

(9) – مؤلف مجهول،زاوية سعد التباني بأولاد تبان التاريخ والنشأة، 2011، ص4.

(10)-رسالة مخطوطة من طلبته إلى سعد التباني مؤرخ ب1850/04/10م.

(11) – ذكرت معلومات عن زاوية سعد التباني بزغوان تونس في جريدة الرائد الرسمي التونسي ، العدد 18، بتاريخ 3مارس 1936م، ص12.

(12) – حسب بعض الروايات وأثناء زيارات الحج لأحد سكان أولاد تبان العام 1974م، أنّه التقى بحاجة جزائرية في مكة قالت بأنّه هناك زاوية قريبة من جبل أحد أسسها سعد التباني. (هذه الحاجة تسكن وتعيش في المملكة السعودية وأصلها من مدينة جيجل).

(13) – تطرقت الأستاذة شافية السخيري في كتابها حومة جامع الحنفية وسط المدينة العتيقة بزغوان إلى أنّ المجموعات الجزائرية قد حلّت بزغوان على مرحلتين انطلاقا من سقوط الجزائر في يد الجيش الفرنسي1830م، أين حل بالمدينة فرع تلمسان تمثل في عائلة حمدان بن محمد بن حمدان الغوطي، ثم وفدت عائلات المدني والحاج عيسى وهيأت لقدوم سعد التباني 1873/1874م، الذي كان مستقرا بطرابلس مع عائلته وابنه، فبنوا زاويته. كما وصلت للمنطقة أيضا عائلة المقراني والحاج سعيد. وقد ظلت هذه الزاوية أهم مجمع ديني وثقافي بحومة جامع الحنيفية. للمزيد ينظر:شافية السخيري، حومة جامع الحنفية بزغوان، الجمعية التونسية لحماية الطبيعة والبيئة، زغوان، 2008م.

(14) – رسالة مخطوط: من الحاج السعيد النايلي مدرس الفقه والقرآن في زاوية سعد التباني، مؤرخة 1821/1822م والتي كتب ..إلى شاعرنا سعد التباني.

(15)- مخطوط : موجود بمكتبة خاصة.

(16)- بوعزة بوضرساية، الحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم(1828-1848)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إ:جمال قنان،جامعة الجزائر،1990 -1991م، ص280.

(17)- يوم دراسي حول التعليم القرآني ...، المرجع السابق، ص28.

(18)-شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص91-92.

(19)- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1،دار الهدى، عين مليلة.

(20)- شارل فيرو، المرجع السابق ، ص100.

(21)-نفسه، ص102.

(22)-نفسه، ص100.

(23)-نفسه، ص101.

(24)نفسه، ص ص99-102.

(25)- تحدثت جرائد فرنسية عن هذه المقاومة: jean Rondeaux,le journal l'Algériepublie la letter suivante,date de Sétif,et qui donne de nouvauxdetails,remplis d'un triste intérét,sur les journées du 2 au 4janvier,paris,25janvier.

(26)- الطريقة السعدية: انتشرت الطريقة بشكل كثيف في الأوساط الليبية على يد سعد التباني، وهي فرع من الطريقة المدنية الشاذلية، اشتهرت بالطريقة السعدية المدنية. للطريقة زوايا منها زاوية الشراكسة الساعدية في مصراتة وزاوية في بنغازي، وهو ما يعرف اليوم بجامع المدنية سيدي سعد.

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية
ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820
Algerian Scientific Journal Platform

المجلد: 02، العدد: 01	رجب 1444هـ/فيفري 2023م	الصفحات: 178-202

إضراب الثمانية أيام 28 جانفي- 4 فيفري1957 الوقائع والمجريات من خلال مذكرات الفدائية زهرة ظريف.

The eight-day strikea 28 january- february 4,1957: facts and events, Thhrough the guerrilla fighter zahra dharif memoiries.

نحاص هاجر*
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)
rawnehajer@gmail.com

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال 2022/09/19 تاريخ القبول 2023/01/18 الكلمات المفتاحية: إضراب الثمانية أيام، زهرة ظريف، المنطقة المستقلة، فرنسا، الجزائر.	زهرة ظريف مثال جميل لواحدة من بين المناضلات المخلصات اللواتي أظهرن التعلق بالوطن والاستعداد الكامل للتضحية في سبيل استرداد حريته المسلوبة، ظهر اسمها أثناء احتدام الثورة المسلحة ضمن مجموعة الفدائيات أو les poseuses de bombes بالمنطقة المستقلة، أدت دورا بارزا في التأهب الثوري، فقد كانت من بين الجزائريات اللواتي اخترن الجزائر قضية وعنوان كفاح في وجه الهمجية الاستعمارية. الفدائية زهرة ظريف سجلت اسمها في ذاكرة التاريخ وكانت ممن حكم لهم التاريخ وليس عليهم، فقد قامت بدور يضاهي دور الرجال وبرهنت على أن الرجل والمرأة لا اختلاف بينهما في مقاومتهما للاستعمار وتحديهما للأساليب الاستعمارية التي دأب المستعمر على ممارستها على أبناء الجزائر.
Article info	Abstract:

* المؤلف المرسل

Zahra Dharif is a nice example of loyal female fighters who showed attachment to the homeland and full readiness to sacrifice to recover its stolen freedom.

Her name appeared during the outbreak of the armed revoulution within armed revolution within guérillas group in the independent region.

She played a prominent role in the revolutionary readinessas, she was among the Algeria as a cause and title colonial barbarism.

The guerrilla zahra Dharif has registered her name in the memory of history, and she was among those whom history judged, not against she played a role that match mens role and she demonstrated that there is no difference between men and womenin their defiance of the colonial methods that was been practice against Algerians.

Received: 2022/09/19
Accepted: 2023/01/18

Key words: The eight-day strike, zahra dharif, Independent area, France, Algeria.

مقدمة:

كان موضوع المرأة الجزائرية ولا يزال من بين أكثر المواضيع تناولاً من طرف الأدبيات الاستعمارية سواء العسكرية منها أو المدنيّة، ويرجع اِهتمام الفرنسيين بموضوع المرأة كون هذه الأخيرة تعد محورًا مفصليًا في الصراع الدائم بين المستعمَر والمستعمِر.

فقد عاشت المرأة الجزائرية طوال فترة الِاستعمار في حالة من الجهل والحرمان والبطش الِاستعماري وحاول المستعمِر طمس هويتها وشخصيتها وذلك عن طريق سياسة التجهيل، فأصبحت هذه المرأة لفترة من الزمن لا تفقه شيئًا في القراءة والكتابة، لكن رغم كل الصعوبات إلا أنها أثبتت وجودها حتى قبل اندلاع الثورة بفعالية، فالمرأة الجزائرية كانت دائمًا على موعد مع التاريخ، فقد نقشت أسماء الكثيرات منهن في سجل التاريخ بأحرف من ذهب، فقد كان لهن الدور الكبير في مقاومة الاستعمار الفرنسي.

والفدائية زهرة ظريف تعتبر واحدة من الذين مثلوا جيلاً متميزًا في تاريخ الجزائر، بِاعتبارها قد اجتازت مراحل عدة تطورت فيها تدريجيًا إلى أن برزت شخصيتها وأصبحت تدرك حقيقة ما يدور في وطنها، فقد أصبحت مشحونة بطاقات من العزة والإحساس بالواقع الذي يعيشه المجتمع الجزائري، فقد تطور وعيها الوطني ولم تعد تقبل أن تظل معزولة عن تيار الأحداث وهذه كنتيجة حتمية نظرًا لتطور الأحداث السياسية على الساحة الوطنية الجزائرية

قبيل الثورة، هذا ما خلق لديها استعداد للمشاركة في أهم حقبة من تاريخ الجزائر ألا وهي مرحلة الثورة التحريرية.

من خلال هذا الموضوع أردنا تسليط الضوء على بعض الجوانب الخفية من إضراب الثمانية أيام من خلال مذكرات الفدائية زهرة ظريف، ومدى مساهمة هذه المذكّرات في كتابة التاريخ الوطنيّ الجزائري وفي كتابة ما يشكل مرجعا للبحث في تاريخ الثورة التحريرية، وتحت هذه الإشكالية تنضوي مجموعة من التّساؤلات أهمها:

من هي زهرة ظريف بيطاط؟

كيف كان مسارها التعليمي والتكويني؟

فيما تمثلت التحضيرات المحكمة التي قامت بها الثورة لإنجاح إضراب الثمانية أيام من خلال مذكرات الفدائية زهرة ظريف؟

ما مدى مساهمة الفدائية زهرة ظريف بيطاط من خلال مذكراتها في أحداث ومجريات إضراب الثمانية أيام؟

ماهي أهم النتائج التي تمخضت عن الإضراب على الطرفين الجزائري والفرنسي وكيف واجهته السلطات الفرنسية من خلال مذكرات الفدائية زهرة ظريف؟

وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التاريخي، من خلال القيام بعملية المسح لأحداث ووقائع إضراب الثمانية أيام التي تضمنتها مذكّرات زهرة ظريف.

أولا: زهرة ظريف ميلاد ونشأة.

ولدت زهرة ظريف في سهل سَرسُو بتيارت[1] في 28 ديسمبر 1934، تأتي في المرتبة الثانية من الترتيب العائلي من أسرة تتكون من خمسة ذكور وثلاثة إناث، بعد فترة تحولوا للعيش بتيسمسيلت (فيالار) نشأت في وسط عائلة متعلمة من أشراف الناحية أي بنت زاوية، وقد اشتهرت عائلتها بتعليم القرآن وإمامة الناس، والدها كان قاضيا يحتكم إليه الناس[2].

دخلت المدرسة الإبتدائية الفرنسية وعمرها لا يتجاوز الست سنوات، أما بالنسبة للتعليم العربي فقد كانت الكشافة الإسلامية (S/M/A)[3] المهد الأول الذي انخرطت فيه زهرة ظريف، غادرت زهرة ظريف المدرسة الابتدائية وعمرها لا يتجاوز 11 سنة متحصلة على دبلوم شهادة الدراسة الابتدائية (D.C.E.P) بدرجة امتياز التي ستمكنها من مواصلة دراستها في أحسن ثانوية بالعاصمة "فرومنتان" [4] كتلميذة داخلية، وما ميز حياتها في الثانوية هو لقاءها بصديقة الحياة والجهاد سامية لخضاري[5] و ميمي بن سماعين[6]، فعلى الرغم من المعاملة العنصرية تجاههنّ والعداء من بعض المعلمين والزملاء الفرنسيين، إلا أنّ كل هذا لم يمنعهن من الحصول على شهادة الباكالوريا بتقدير جيّد عام 1954، وفي هذا الصدد تقول زهرة ظريف "**إن الإحساس العميق بالظلم الذي تركه في نفسي معاملات بعض الأساتذة تجاهي، فقط لأننيّ من الأهالي وعنصريتهم، كل هذا جعل منّي متمرّدة قبل الأوان**"[7]، وهذا إن ذل على شيء فيذل على أن هذه الحظوة الدراسية لم تؤثر على ميول هذه المناضلة فإن سبع سنوات التي قضتها في الثانوية شكلت بالنسبة لها فترة طويلة من المخاض واكتساب الوعي.

ومما لا شك فيه أن سنة 1954 مثلت لزهرة ظريف منعرجا حاسما في مسيرة حياتها، فقد كانت سنة حافلة بالأحداث المهمة، أهمها اندلا ع ثورة الفاتح نوفمبر 1954، وحصول زهرة ظريف على شهادة الباكالوريا والتحاقها بكلية الحقوق بجامعة الجزائر لإكمال دراستها، وقد ذكرت في مذكراتها أن الهدف من وراء تسجيلها في كلية الحقوق هو أن تصبح محامية تدافع عن المناضلين الجزائريين لأنها كانت على ثقة تامة بأن الانفجار سيحدث حتما[8].

كما كانت على اطلاع واسع بالأحدث المحلية والدولية، خاصة أنها كانت كثيرة المطالعة للصحافة التي كانت تزودها بالأخبار ومقالات الرأي والتحاليل المختلفة، وبالتالي تعلّمت الشجاعة وأسلوب الرفض، لذلك نجد كتاباتها فيها نوع من النقد والجرأة والتحرّر، لأن نفسيتها كانت تأبى عليها القبول بأنصاف الحلول، بمعنى أنّها بعيدة عن الكتابات التي تقع تحت ضغط السلطة.

ثانيا: إضراب الثمانية أيام الوقائع والمجريات من خلال مذكرات الفدائية زهرة ظريف.

تعتبر فترة الثورة الجزائرية أهم المراحل التاريخية للجزائر باعتبارها المرحلة التي أوصلت الجزائر للاستقلال و تأسيس الدولة الجزائرية المستقلة[9]، وقد تميزت هذه الثورة بعدة أحداث منذ بدايتها وكانت السلطات الفرنسية تغطي على هذه الأحداث لكي لا تقع ضجة من ورائها خوفا من أن تصبح القضية قضية رأي عام، وقد نجحت السلطات الفرنسية في إخفاء حقيقة ما كان يجري في الجزائر لفترة زمنية معتبرة، نظرا لعدة اعتبارات حيث أن الترسانة الإعلامية التي كانت تملكها السلطات الفرنسية غطت على الأحداث التي كانت في الجزائر وحورت الأخبار المهمة لتصب في صالحها[10].

حيث أن الاتجاهات السياسية الجزائرية المختلفة قبل اندلاع فتيل الثورة حاولت القيام بمبادرات سياسية لتسليط الضوء على واقع الجزائريين في ظل الاستعمار الفرنسي، لكن لم تلقى الصدى الواسع مثلما حصل في عهد جبهة التحرير الوطني اذ عرفت الجزائر في هذه الفترة إضرابا تاريخيا شكل منعطفا حاسما في عمر الثورة الجزائرية وفي صراعها مع فرنسا الاستعمارية[11].

فإضراب[12] 28 جانفي–4 فيفري1957 كان بمثابة نقطة تحول ووقفة مهمة في تاريخ الجزائر عامة وتاريخ الثورة الجزائرية بصفة أخص، وذلك لما كان له من تداعيات وآثار إيجابية على الثورة عموما وجبهة التحرير الوطني بوجه الخصوص.

1. تحضيرات إضراب الثمانية أيام.

ترى المجاهدة زهرة ظريف أن إضراب الثمانية أيام كان حاسما في مسار الثورة الجزائرية، فقد سمح بتدويل ((المسألة الجزائرية)) وكذا الاعتراف بجبهة التحرير الوطني على المستوى العالمي باعتباره الممثل الشرعي الوحيد لشعبنا وناطقه الرسمي، وفي هذا الصدد تقول "**لقد سمح**

الإضراب بتعرية ونزع القناع عالميا عن الطبيعة الحقيقية للحضور الفرنسي في الجزائر، وإظهار الارتباط العميق لشعبنا بالحرية والكرامة والإستقلال"[13].

وقبل أن نستعرض قرار الإضراب التاريخي الذي اعتبر ذروة المواجهة خلال ما عرف في الأدبيات التاريخية ب"معركة الجزائر" تشير زهرة ظريف في مذكراتها أن من أطلق على الأحداث التي ميزت منطقة الجزائر المستقلة من جانفي1957 إلى أكتوبر من نفس السنة هو الجنرال ماسي وفرقته، وفي نظرها أنه لا يجب ولا يجوز تسمية "معركة" لتلك العملية العملاقة من الرعب والذعر الموجه ضد السكان الجزائريين بالعاصمة من طرف 10000مظلي بحجة تفكيك التنظيم الثوري للجبهة بالمدينة، وتضيف قائلة "**مهما يكن أي معركة عسكرية تفرض بصفة عامة وجود جيشين وجها لوجه وبنفس الوسائل القتالية**"[14]، هذا يؤكده ياسف سعدي[15] في قوله أن قائد الفرقة المظلية العاشرة هو أول من استعمل هذه الكلمة خلال سنة 1957 في رسالة مؤرخة بتاريخ 13 جوان 1957[16].

ولكن دون الاستطراد في هذا الجانب ترى المجاهدة زهرة ظريف أن قرار القيام بالإضراب لم يكن عملية اعتباطية بل كان عبارة عن مجموعة من الإجراءات والتدابير التي أخذت لجنة التنسيق والتنفيذ على عاتقها مهمة تأديتها على أكمل وجه ومن بين أهم هذه الإجراءات تذكر:

1/ تشكيل لجان فرعية للإضراب في كل ناحية ومنطقة[17]، وهذا ما أكدته زهرة ظريف حيث أن ياسف سعدي المدعو "الخو" قام بتقسيم القصبة إلى أحياء صغيرة وتشكيل لجان وفرق لتغطية جميع الأزقة[18]، كما أنه قام بتشكيل لجان داخل المؤسسات الاستراتيجية مثل الموانئ والنقل بمختلف أنواعه والإذاعة والبريد والأسواق العامة والمصالح البلدية[19].

2/ قيام لجان الإضراب باقتطاع الأموال من صناديق جبهة التحرير الوطني لمساعدة العائلات المحتاجة الغير قادرة على تسديد فاتورة المواد الغذائية مدة أيام الإضراب[20]، وفي هذا الصدد يذكر ياسف سعدي أنه قبل شن الإضراب بأيام التقى محمد العربي بن مهيدي ووضع تحت

تصرفه 10 ملايين فرنك فرنسي[21]، لتسديد فاتورة المواد الغذائية للعائلات المعوزة في حي القصبة والتي لا تستطيع توفير الحاجيات الضرورية طول مدة الإضراب[22].

3/ توزيع المناشير والبيانات، من أجل توعية السكان بأهداف الإضراب ولتحقيق هذا الغرض تذكر زهرة ظريف أن ياسف سعدي بادر بفكرة جيدة وهي الاستعانة بالنساء الفنانات نظرًا لشعبيتهم وشهرتهم وكونهم كانوا يحظون بالاحترام والتبجيل من طرف سكان العاصمة[23]، وقد استطاع ياسف سعدي بمساعدة الفنان حبيب رضا من تنظيم اجتماع بحضور كل من زهرة طريف، جميلة بوحيرد[24]، وحوالي 15 فنانة منهم كلثوم، فريدة، فضيلة الدزيرية[25]، أختها قوسم، عويشات وهيبة، حيث كلفهم بشرح أهداف الإضراب للنساء اللائي سيذهبن لزيارتهم في الأحياء الشعبية لمدينة الجزائر وضواحيها واعداد تقارير خاصة بإحصائيات العائلات المعوزة والتي ليس لها امكانيات تخزين المواد الغذائية لمدة أسبوع كامل[26].

2. مجريات إضراب الثمانية أيام.

في فجر يوم 28جانفي 1957 اتخذت مجموعة من الشاحنات أماكنها في أعالي القصبة توزع آلاف المظليين عبر المدينة العتيقة، احتلوا جميع الأزقة كانت أحياء المسلمين خالية على عروشها لا شيء يتحرك، حيث أطلق عليها البعض ((المدينة الشبح)) والبعض الآخر((المدينة الميتة))، هكذا وصفت زهرة ظريف صبيحة الإضراب التاريخي في يومه الأول[27].

فبدخول الإضراب حيز التنفيذ خيم صمت رهيب على المدن ولم يعكر صفو هذا الصمت سوى مكبرات الصوت Des hautes parleurs التي جابت الأحياء وعليها خبراء في الحرب النفسية[28] والذين كانوا ينادون الشعب[29] بعدم الانسياق وراء الإضراب، وضرورة الذهاب إلى عملهم وتهديدهم بالردع كما عمل المظليون على توزيع الحلويات على الأطفال وأظهروا اهتمامهم بدراستهم وحالتهم الصحية[30].

وفي نفس السياق تذكر زهرة ظريف في مذكراتها أن الجنرال "ماسي" قام بإلقاء المناشير بالاستخدام الطائرات المروحية على القصبة[31] يحث فيها الجزائريين ضرورة الالتحاق بعملهم من

أجل تخفيض عدد البطالين والمتنزهين خوفا من حدوث عمليات إرهابية[32]، كما قامت فرقة المظليين العاشرة المخادعة إلى ترويج منشور يحمل توقيع جبهة التحرير الوطني أهم ما جاء فيه: "ليست جبهة التحرير من أطلق الإضراب...بل الجنرال ماسي"[33].

أما عن مدى استجابة الشعب للإضراب ترى المجاهدة زهرة ظريف أنه يمكن أن نستشفها من خلال المنابر الإعلامية الفرنسية الاستعمارية خاصة الجرائد كجريدة Le monde وجريدة France observateur وجريدة Le journal d'Alger حيث جاء في صفحتها الأولى "**إن نسبة المنقطعين عن العمل كبيرة، وهي مرشحة للتصاعد خاصة وأن كثيرا من الموظفين قد انضموا للإضراب بعد منتصف النهار من اليوم الأول خصوصا في الجزائر العاصمة**"[34].

أما عن وسائل الإعلام الأجنبية تأتي على رأسها وكالة "رويتر" Reuterالبريطانية فقد أوردت في تقريرها الصادر في 30جانفي 1957 أن "**هناك إضراب حددت مدته بأسبوع بدأه الجزائريون ودعت اليه جبهة التحرير الوطني**" ويضيف التقرير " **أن ما يقارب 90 % من الحوانيت في المدن الرئيسية في الجزائر كانت مغلقة وأن 70 % من الموظفين الذين ليسوا فرنسيين لم يذهبوا الى أعمالهم**" ويضيف بأن "**الإضراب كان يشمل جميع أنحاء البلاد من مغنية على الحدود الغربية حتى تبسة على الحدود الشرقية**"[35].

ففي اليوم الأول من الإضراب قامت الفرقة المظلية العاشرة بمحاصرة الأحياء والدخول بالقوة الى المنازل بلا أدنى اعتبار لأهلها واعتقال من صادفهم في طريقهم وأخذهم إلى أماكن مختلفة من أجل العمل، وبمجرد أن تختفي الشاحنات وينسحب المظليون يتخذ الرجال طريق العودة عبر مسالك ملتوية، كما قاموا أيضا بمداهمة المحلات التجارية للجزائريين وفتحها بقوة وبمختلف الوسائل العسكرية وتركها للنهب عمدا[36].

وفي هذا الصدد تقول زهرة ظريف "**تابعنا من فوق السطوح مشهد مخجل لدولة ((الحقوق والحريات)) فقد كان المظليون يقومون بتكسير الستائر الحديدية للمحلات**

التجارية بأدوات ميكانيكية ما أحدث دويا رهيبا، وذلك تحت الأنظار الراعية للأوروبيين وتصفيقات المدنيين"[37].

وفي اليوم الثاني والثالث استطاعت قوات الجنرال ماسو الحصول على عناوين عمال السكة الحديدية وعمال الغاز والكهرباء والبريد والمواصلات فبدأ البحث عنهم وجلبهم بالقوة الى مواقع عملهم[38].

وبعد أن أضحى الأمر مقلقا للسلطات الفرنسية تذكر زهرة ظريف أن ياسف سعدي المدعو الخو تلقى بعض التقارير أهم ما جاء فيها أن ماسو ذهب إلى حد ارسال المظليين إلى المناطق الريفية المجاورة لقطف الخضر وتموين السوق للأوروبيين[39].

وهذا إن ذل على شيء فيذل على أن القوات العسكرية فقدت أعصابها ما دفعها الى إقامة جهاز مرعب للقمع والتعذيب لتفكيك خلايا الجبهة والاتحادات الجماهرية وطرد العمال من وظائفهم وتقديمهم للمحاسبة وقد كانت زهرة ظريف شاهدة على احدى أبشع وأذل جريمة من جرائم السلطات الفرنسية[40].

3. زهرة ظريف شاهدة على احدى أبشع وأذل جريمة من جرائم السلطات الفرنسية.

ففي اليوم السابع من الإضراب وفي حدود الساعة الثانية صباحا شهدت زهرة ظريف في منزل بوحيرد "منزل رقم 5 درب غرناطة" الذي كانت تقيم فيه رفقة زملائها في الكفاح ليلة رهيبة حيث قام المظليين بمحاصرة المنزل الذي كان متواجد به العديد من المناضلين الذين كانوا محل بحث لدى الشرطة الفرنسية وهم حسيبة بن بوعلي ياسف سعدي، علي عمار المدعو علي لابوانت[41]، وغاني وسي مراد ، وبينما كانت فرقة المظليين تتأهب لاقتحام المنزل قام الاخوة بتحرير المخبأ المتواري خلف صينية نحاسية دائرية كبيرة انزلقوا بداخلها حيث سيمكثون لساعات طويلة إلى غاية مغادرة المظليين المنزل.

وبعد قيام المظليين باقتحام المنزل قاموا بتقييد الرجال وأجبروهم على التمدد بكامل أجسادهم على الأرض الباردة في رواق الطابق الأول من المنزل، وبدأت عملية الاستنطاق

والتعذيب التي جرت في الغرفة التي كان يختبأ فيها الاخوة، وأكثر من هذا فحتى الأطفال لم يسلموا من التعذيب مثل إلياس صاحب 14 سنة الذي خضع للتعذيب بالكهرباء حيث ارتفع صوته ليبلغ ذروته من شدة الألم، ودام التعذيب الى غاية السابعة صباحا.

وبعد مغادرتهم البيت أعطى ياسف سعدي مباشرة تعليمات لجميع المناضلين بمغادرة منزل عائلة بوحيرد لأنه حسب قوله اصبح "محروق"، وعلى اثر هذا قام الإخوة بجمع وتغليف أجهزة المخبر وبعد أن كانت كل من جميلة بوحيرد وزهرة ظريف أثناء أدائهم لمهام (وضع قنابل، توزيع الطرود) يخرجن في هيئة أوروبيات أصدرت تعليمة أخرى أن لا يخرجن الا ملحفات بالحايك لكي لا يستطيع أن يتعرف عليهم أحد[42].

فمن خلال ما أوردته زهرة ظريف في مذكراتها نستنتج مدى اضطراب الاستعمار الفرنسي أمام تعند وشجاعة الشعب الجزائري، حيث تارة يستعمل القوة وتارة يعطف على الأطفال وتارة أخرى يقف مندهشا ومكتوف الأيدي، وكل هذا يعكس مدى استجابة الشعب الجزائري لنداء جبهة التحرير الوطني وثقتهم المطلقة فيها فالبرغم من سياسة الاضطهاد التي مارسها المظلين في حقهم إلا أنهم بقوا مكافحين.

ثالثا: نتائج إضراب الثمانية أيام.

أجمع مهندسي إضراب الثمانية أيام سواء من جانب لجنة التنسيق والتنفيذ أو من جانب الاتحادات المهنية والجماهيرية على بلوغ الإضراب السياسي السلمي مراميه المحددة[43]، أما من وجهة نظر المجاهدة زهرة ظريف فإن إضراب الثمانية أيام شكل منعطفا تاريخيا حاسما وأوصل الثورة إلى نقطة اللارجوع، كما سمح بتعرية ونزع القناع عالميا عن الطبيعة الحقيقية للحضور الفرنسي في الجزائر، وأسقط مقولة الجزائر فرنسية[44].

وعلاوة عن هذا فإن الإضراب استطاع أن يرفع الغطاء عن السياسة اللاإنسانية لفرنسا، ولفت انتباه العالم وكشف الأساليب القمعية التي تواجه بها فرنسا مطالب الجزائريين، كما أنه

قطع خط الرجعة على المترددين من الجزائريين والمشككين، ضف إلى ذلك أنه حقق القطيعة النهائية بين مختلف فئات الشعب الجزائري والنظام الاستعماري ونسف خرافة الجزائر فرنسية[45].

وحسب زهرة ظريف فإن الإضراب قد كشف للعالم أن الجبهة FLN ليس مثلما صرحت به السلطات الفرنسية مجموعة من الخارجين عن القانون، بل بالعكس هي الممثل الحقيقي الشرعي والوحيد للشعب الجزائري في كفاحه من أجل استقلاله، وهذا يعني أن إضراب الثمانية أيام استطاع أن يعزز مكانة الجبهة داخليا وخارجيا وهذا ما أكدته زهرة ظريف في قولها "**لا يمكن لأية دولة أو منظمة نقابية أو وسائل الإعلام أن تتحدث أو تتصرف حول المسألة الجزائرية دون المرور عبر جبهة التحرير الوطني**"[46].

وبالموازاة مع هذه النتائج فإن إضراب الثمانية أيام استطاع ان يربك الدبلوماسية الفرنسية ويسبب المتاعب لرئيسها ووزير الداخلية الفرنسية فرانسوا ميترانFrançois Mitterrand [47]كما أنه أعطى القوة لمندوبي جبهة التحرير الوطني في هيئة الأمم المتحدة الفرصة لإقناع دبلوماسي الدول الأجنبية لإزالة الغموض حول الثورة، ووضع الدول الصديقة والحليفة والمحبة للسلام أمام الأمر الواقع[48] حول مساعيهم الخطابية في دعم حقيقي للثورة وفضح سياسة فرنسا الإعلامية المظللة للعالم[49].

وفي هذا الصدد تؤكد المجاهدة زهرة ظريف أن إضراب الثمانية أيام كان أحد الأسباب التي جعلت الجمعية العامة للأمم المتحدة تصادق بالإجماع يوم 15 فيفري على قرار تعرب فيه عن اعترافها بالألم والخسائر الجسيمة في الأرواح البشرية وتدعوا إلى إيجاد حل سلمي ديمقراطي عادل للمشكلة الجزائرية بوسائل ملائمة طبقا لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة[50].

وإضافة إلى هذا فقد تمكن الإضراب من تعرية سلوك فرنسا القمعي في الجزائر[51] وكشف فضائحها وفظائعها في حقوق الانسان من طرف مراسلي جرائد فرنسية وأجنبية الذين تابعوا تطورات الإضراب في مدينة الجزائر.

وعلاوة عن هذا ترى زهرة ظريف أن نجاح الإضراب لا يشك فيه أحد وهذا باعتراف الفرنسيين ذاتهم وفي هذا الصدد يلخص بن يوسف بن خدة النتائج التي حصلها هذا الإضراب قائلا نجاح الإضراب أمر لا شك فيه بشهادة مجلة "فرانس أبسرفاتور" الأسبوعية حيث علقت على الإضراب بالقول:" **لقد نجح الإضراب فعلا بنسبة 99% في الإدارة والمصالح العامة الكبرى كالنقل والبريد والنشاطات التجارية وأسواق الحيوانات، أن الأحياء القريبة من المدينة العربية لم يتجرأ على الاقتراب منها، فقد اكتفت وحدات الجيش بتدمير واجهات المحالات ونهب محتوياتها**"[52].

ومن بين أهم النتائج الإيجابية للإضراب التي أغفلت عنها زهرة ظريف في مذكراتها هي أن الإضراب لم ينجح فقط في إثبات النضج السياسي الذي كان يتمتع به الجزائريين أو شل النشاط التجاري والاقتصادي فقط، بل أكثر من هذا استطاع أن يكشف على قوة الروح الثورية لدى الشعب الجزائري والطابع التنظيمي من خلال اتباعهم للتعليمات المعطاة من طرف جبهة التحرير الوطني[53] فقد عمق الروح الأخوية بينهم خاصة في الأحياء الشعبية مثل القصبة[54].

ان المتتبع لأحداث إضراب الثمانية أيام والنتائج التي تمخضت عنه يلاحظ أن هناك نتائج انعكست سلبا على العمل السياسي والعسكري للثورة، فقد سدد الشعب الجزائري كلفة مرتفعة من القمع الشامل لخصتها المجاهدة زهرة ظريف فيما يلي:

- توسيع ماسي وآلاف رجاله لأعمال القمع والتفتيش والمداهمات وقد كانت زهرة ظريف شاهدة من أعلي السطوح على اقتحام العساكر للعديد من بيوت القصبة فبمجرد اقتحام الأبواب يقتحمون المنازل، وحينما تعارضهم امرأة باكية يسقطونها أرضا ويرفسونها بأقدامهم، حيث كانوا يقودون الرجال كقطعان غنم إلى الشاحنات ويتوجهون بهم إلى جهات مجهولة (مراكز التعذيب) فالشعب الجزائري قد عاش تجاوزات رهيبة على إثر

الاعتقالات العشوائية الواسعة والتعذيب الفظيع الذي كاد أن يتخذ طابعا مؤسساتي لا ينقصه سوى الاعتماد الرسمي في النصوص التشريعية الفرنسية[55].

- بداية تفكيك التنظيم الثوري بالمنطقة المستقلة بسبب الاعتقالات المتكررة من طرف الفرقة المظلية العاشرة، وفي هذا الصدد يذكر ياسف سعدي أن فرقة المظليين قد وجهت لها تعليمات وتوجيهات صارمة لمراقبة القصبة بهدف تدمير التنظيم الثوري للمنطقة المستقلة واتلاف شبكاته الفدائية[56].
- تدمير جانب كبير من هياكل الجبهة في العاصمة خاصة بعد إلقاء القبض وتعذيب وإعدام نخبة من العناصر القيادية منهم محمد العربي بن مهيدي، المحامي علي بومنجل[57] صالح وقادوم، محمد لانجريط، هذين الأخرين الذين زج بهما إلى زنزانات إلى زنزانات مع الكلاب البوليسية وقد أصيبا بانهيار عصبي[58].
- لعل أهم ضربة تلقتها الثورة التحريرية بعد الإضراب هي خروج لجنة التنسيق والتنفيذ وانتقالها الى تونس والتحاق هيئتها التنفيذية بالخارج، بعد أن ألقي القبض على الوفد الخارجي سابقا في 22 أكتوبر1956، كل هذا ترك فراغا رهيبا في الجزائر[59]، والسؤال المطروح هو من يمكنه تسيير الكفاح وكيف تتم الاتصالات والتنسيق بين قادة الولايات وبين الجهاز التنفيذي بعد مغادرة الجهاز التنفيذي التراب الوطني.

وهو ما جعل مكاسب الإضراب مثيرة للجدل وأحيانا يسلط انتقاد لاذع للقرار[60] المتسرع للإضراب وكيف السبيل لبعث التنظيم الثوري من جديد وهذا ما سيخلق مصاعب إضافية للثورة على المستوى الهيكلي والإجرائي وأزمة بين الداخل والخارج ستؤثر حتما على الاداء الميداني في جميع المجالات وستلقي بظلالها على الجزائر المستقلة.

خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع "**الفدائية زهرة ظريف بيطاط دراسة في مذكّراتها**" توصلنا إلى عدة نتائج نجملها فيما يلي:

تعد مذكّرات الفدائية زهرة ظريف بيطاط ذات قيمة تاريخية، وشهادة لمجاهدة ساهمت في إشعال فتيل معركة الجزائر، فقد قدّمت للباحث في ميدان التاريخ الوطنيّ معلومات ومادة تاريخية هامة يستند إليها في أبحاثه الأكاديمية، بحكم معايشتها لأهم الأحداث في منطقة الجزائر المستقلة خلال 1955-1957 وإسهامها فيها كعضو بارز في شبكة تفجير القنابل.

إنّ اليسر المادي والمكانة الاجتماعية لعائلة زهرة ظريف لم تجعلها تتوانى في حمل الكراهية للاستعمار والعمل على توحيد الصفوف لطرده، هذه الفكرة ترسخت لديها خلال دراستها في الثانوية وصقلت أثناء انخراطها في صفوف الكشافة الإسلامية، لتظهر جليًا بعد التحاقها بكلية الحقوق بجامعة الجزائر لإكمال دراستها، كل هذا شكل لها قناعة راسخة وإيمان قويّ بأنها تدافع من أجل قضية عادلة وهي الاستقلال.

يمثل إضراب الثمانية أيام بالنسبة لزهرة ظريف منعطفًا تاريخيًا حاسمًا، أوصل الثورة إلى نقطة اللارجوع، ولفت انتباه العالم وكشف الأساليب القمعية التي تواجه بها فرنسا مطالب الجزائريين، كما أنه قطع خط الرجعة على المترددين من الجزائريين، ضف إلى هذا أنه حقق القطيعة النهائية مع النظام الاستعماري، ونسف خرافة الجزائر فرنسية، وأهم شيء أنه استطاع أن يعزز مكانة الجبهة داخليًا وخارجيًا، خاصة بعد خروج الدورة الحادية عشر للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتوصيات هامة بعد مناقشتها للقضية الجزائرية.

وفي الأخير يجدر بنا الإشارة إلى أن الثورة الجزائرية المباركة ماتزال تكتنز الكثير من الحقائق، والكثير من الإجابات التي ماتزال مطروحة، هذا ما يتطلب على الهيئات العلمية ومراكز البحث إعطاء قيمة تاريخية ومعرفية للمذكّرات الشخصية باعتبارها يوميات المجاهدين فيها تفاصيل نشاطاتهم، ولتحقيق الاستفادة الكبيرة من هذه الكتابات يمكن اعتماد مكتبة وطنيّة خاصة بالمذكّرات الشخصية للمجاهدين في الثورة الجزائرية في أي مستوى، دون إعطاء الاعتبار للجنسية أو البلد، تنطلق العملية من الإحصاء ثم الجمع والتصنيف وتدرس بطريقة علمية،

وتوضع لها فهارس وبيبليوغرافيا ترشد الباحثين والقراء، وبهذا تصبح مقصدًا للباحثين في التاريخ الوطني الجزائري.

ملاحق:

الملحق رقم: 01. **واجهة مذكرة زهرة ظريف.**



المصدر: زهرة ظريف، المصدر السّابق.

بطاقة تقنية لمذكرات زهرة ظريف التي تحمل عنوان "مذكّرات مجاهدة من جيش التّحرير الوطنيّ منطقة لجزائر المستقلّة"

المؤلف: زهرة ظريف.

العنوان: مذكّرات مجاهدة من جيش التّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة.

ترجمة: محمد ساري.

دار النشر: الشهاب.

مكان النشر: الجزائر.

سنة النشر: 2014.

رقم النشر: 978-9947-39-085-6.

الإيداع القانوني: 2014-3867.

حجم الكتاب: متوسط.

لون الكتاب: أسود، وبه صورة لزهرة ظريف أثناء اعتقالها من طرف الجيش الفرنسي.

يحتوي الكتاب على تسعة فصول كتالي:

الفصل الأول: في حضن العائلة.

الفصل الثاني: اكتساب الوعي.

الفصل الثالث: الاتصالات الأولى مع جبهة التّحرير الوطنيّ.

الفصل الرابع: في قلب العمل المسلّح.

الملحق رقم:02.

بطاقة تقنية لمذكّرات زهرة ظريف.

الفصل الخامس: داخل القصبة، في قلب المقاومة.

الفصل السادس: تدويل المسألة الجزائرية.

الفصل السابع: إضراب الثمانية أيام.

الفصل الثامن: اعتقالات واغتيالات مكافحين من منطقة الجزائر المستقلّة.

الفصل التاسع: اعتقال زهرة ظريف.

عدد الصفحات: 671 صفحة.

المرجع: من إعداد الباحثة.

الملحق رقم: 03.

الأساليب التي استعملتها فرنسا للقضاء على الإضراب.



المظليون يقتحمون البيوت





فتح المحلات بالقوة.



إستخدام مكبرات الصوت للقضاء على الإضراب.



المرجع: بكير بن عودة: **الثورة الجزائرية معارك غليزان**، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص ص126-128

الهوامش:

[1] **تيارت**: أو تيهرت ومعناها اللبؤة، هي مدينة تاريخية كان لها حضور متميز وتأثير جعلها تملك ماضيا تاريخيا هاما، إلى جانب موقعها الجغرافي الهام فهي تقع في الجهة الغربية من التل الجزائري، تعتبر إحدى عواصم الهضاب العليا تبعد عن مدينة الجزائر بحوالي 340 كلم، كانت أول عاصمة للمغرب الأوسط، حيث ازدهر خلالها الفكر وأخصبت الحضارة وتطور العمران، وشدت العديد من رجالات الفكر والسياسة والثقافة، وقد وصفها المقديسي قائلاً "تاهرت اسم قصبة وهي بلح المغرب، قد أحدق بها الأنهار والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها الأعين وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق وأخطئوا، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا، هو بلد كثير الخير رحب، رفق، طيب، رشيق الأسواق، غزير المياه جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الوصف، عجيب الوصف "وقد عرفت بعدة أسماء نذكر منها: المعصومة، عراق المغرب، تاهرت العليا وتاهرت السفلى، وأخيرا تاهرت وتاقدمت. ينظر: فوزية سعاد بوجلابة: "**تاريخ مدينة تيهرت الأثرية**"، في –مجلة الحكمة للدّراسات التّاريخية–، ع8، مؤسسة كنوز الحكمة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2016، ص ص73-75.

[2] زهرة ظريف: **مذكّرات مجاهدة من جيش التّحرير الوطنيّ منطقة الجزائر المستقلّة**، تر: محمد ساري، دار الشهاب، الجزائر، 2014، ص ص22-23.

[3] **الكشافة الإسلامية**: هي منظمة وطنية تربوية إنسانية، ظهرت في الثلاثينات من القرن الماضي أي أثناء الوجود الاستعماري الفرنسي للجزائر، تخرج منها العديد من قادة الثورة الجزائرية، هي جمعية كشفية هدفها الأساسي إذكاء روح الحماس الوطني من خلال الأناشيد القومية، وإبراز العلم الوطني، وتعويدهم على احترام رموز الوطن، يعود الفضل في إنشائها إلى محمد بوراس ابن مدينة مليانة سنة 1936، عرفت الكشافة الإسلامية انتشارًا واسعًا وقد حققت العديد من النجاحات هذا ما دفع بالسلطات الاستعمارية إلى عرقلة نشاطها بمختلف الطرق والوسائل المتاحة منها: المراقبة، منع الأناشيد والحفلات والمسرحيات والمخيمات، منع الدعم المادي والمعنوي للحركة، إعدام مؤسسها...إلخ، رغم كل هذا بقيت الكشافة الإسلامية متمسكة بمطالبها وأهدافها حتى بعد استشهاد قائدها محمد بوراس، حيث ظهرت العديد من النشاطات الكشفية كإقامة المخيمات والملتقيات والتجمعات، ووضع البرامج وعرض المسرحيات. ينظر: عامر رخيلة: "**الكشافة الإسلامية الجزائرية تاريخ ومواقف**"، في –مجلة أول نوفمبر–، ع179، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر، 2015، ص17. وأيضاً: محمد جيجلي وأبو عمران الشيخ: **الكشافة الإسلامية الجزائرية 1935–1955**، دار الأمّة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2008.

[4] **ثانوية فرومنتان**: كانت تعرف بديكارت سابقا وبوعمامة حاليا، كانت من أكبر الثانويات في الجزائر مخصصة للبنات فقط، حيث كانت تتوفر على نظام داخلي مخصص أساس لبنات كبار العائلات من المستوطنين الأوروبيين، ففي سنة 1947 كانت تضم 2000 تلميذة كلهم فرنسيات ماعدا أربعة عربيات منهم زهرة ظريف. ينظر: زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص41.

5 **سامية لخضاري**: ولدت في سنة 1934 بالعاصمة وبالضبط في "حي سانت أوجان"، درست في ثانوية " فرومنتان" ثم التحقت بكلية الحقوق بجامعة الجزائر، عاشت أيام الثانوية صحبة زهرة ظريف، التحقت بجبهة التحرير الوطني وعمرها لا يتجاوز العشرين، في 23 سبتمبر 1956 قامت بوضع قنبلة في الكافيتريا التي كانت تعد مركز التقاء الطلبة الأوروبيين المتطرفين، توفيت في سنة 2012. ينظر: زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص ص15-198.

6 **ميمي بن سماعين**: كانت تحمل اسمين في السجل المدني (دونيز، ميمي)، تنتمي إلى عائلة جزائرية برجوازية، درست في ثانوية "فرومنتان" مع زهرة ظريف، ثم التحقت بالجامعة في كلية الآداب، كانت ذات شخصية قوية حيث أنها اختارت الاندماج مع كل ما يترتّب من إهمال طوعي للهوية والثقافة والأحوال الشخصية، كانت تملك الثقة بالنفس كما أنها كانت عضوًا في خلية النساء لجمعية الطلبة المسلمين. ينظر: زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص ص54-82.

7 نفسه، ص54.

8 نفسه، ص 60.

9 عمار هلال: **نشاط الطلبة الجزائريون ابان ثورة نوفمبر1954**،لافوميك،الجزائر، ص38.

10 سهام بن غليمة: **إضراب الثمانية أيام (18 جانفي-4 فيفري1957) وانعكاساته على مسار الثورة الجزائرية**، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2009،ص6.

11 الطاهر جبلي: **"إضراب الثماني أيام في الجزائر28 جانفي-4 فيفري 1957 معركة الجزائر الكبرى"**، في - مجلة كان التاريخية- ع36، مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة،2008، ص39.

12 **الإضراب**: تعني كلمة إضراب التوقف عن العمل بصورة مقصودة وجماعية هدفه الضغط على جهة معينة ،فالإضرابات لا تكون من قبل العمال فقط وانما يوجد أيضا إضراب التجار وإضراب أعضاء المهن الحرة وإضراب الطلاب وإضراب المواطنين عن دفع الضرائب، حيث لا يمكن اعتبار الإضراب خلافا بل هو وسيلة من أجل حل الخلاف وهذه الوسيلة هي نتيجة تكتل المضربين الذي يؤدي إلى التوقف عن العمل فالإضراب يقسم إلى عدة أنواع أهمها الإضراب الخاص هذا النوع من الإضراب كثيرا ما عرفته الجزائر أثناء فترة الثورة الجزائرية. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: **موسوعة السياسية**، ج1، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1990، ص209.

13 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص338.

14 نفسه، ص338.

15 **ياسف سعدي**: ولد بالجزائر العاصمة يوم 20جانفي 1928 بالقصبة، ناضل في حزب الشعب الجزائري وبالمنظمة السرية، بعد اندلاع الثورة قام بتنظيم وتوجيه عدة شبكات ومجموعات مسلحة بمدينة الجزائر، أصبح مسؤولا على المنطقة المستقلة بعد مغادرة لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائر، إثر المرحلة الثانية من معركة الجزائر، ثم اعتقاله بالقصبة في سبتمبر 1957 وحكم عليه بالإعدام، من مؤلفاته

Souvenirs da la bataille d'Alger.

La bataille d'Alger, en trois parties.

كما شارك كمؤلف وممثل في فيلم معركة الجزائر. ينظر: بوعلام بلقاسمي: **موسوعة أعلام الثورة**، منشورات المركز الوطنيّ للدّراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص224.

[16] Yacef Saadi, **La bataille d'Alger L'afforontement**,T2, éditions casbah, Alger, 1997,p38.

[17] Khalfa Mameri, **La guerre d Algérie Abane Ramdane**, édition L Armattan, paris, p102.

[18] زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص357.

[19] زهور لونيسي: **رواية المسرح**، دار هومه، الجزائر،2009، ص100.

[20] زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص356.

[21] المبلغ لم يكن ليكفي حتى لحي واحد لولا التفاف التجار حول الجبهة وتقديم نصف المعونة بالمجان، خاصة وأن القضية قضية وطنية. ينظر: سمية لوافي: "**إضراب الثمانية أيام يرفع صوت الجزائر الى مبنى نيويورك** "، في – مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية–، ع9، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، ص92.

[22] المبلغ لم يكن ليكفي حتى لحي واحد لولا التفاف التجار حول الجبهة وتقديم نصف المعونة بالمجان، خاصة وأن القضية قضية وطنية. ينظر: سمية لوافي: "**إضراب الثمانية أيام يرفع صوت الجزائر الى مبنى نيويورك** "، في – مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية–، ع9، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، ص92.

[23] زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص356.

[24] **جميلة بوحيرد:** من مواليد 1935 بمدينة الجزائري حي القصبة، انخرطت في صفوف الثورة في بداية سنة 1956 وهي تبلغ من العمر 20 سنة، بعد إلقاء القبض على بوشافة مختار يوم 3أوت 1956، أصبحت مكلفة بمصلحة الاتصالات في ناحية الجزائر، ثم عضو في شبكة القنابل بالقصبة، اندمجت في إحدى الأفواج في منطقة المستقلة للجزائر وعملت مع جماعة ياسف سعدي، قامت بنقل الاسلحة، ووضع القنابل في الأماكن التي يرتادها غلاة المستعمرين، كلفت في بداية مسارها الثوري من طرف عمها المجاهد مصطفى بوحيرد بالسهر على إطعام وخدمة رفاق السلاح بالقصبة المجاهد ياسف سعدي وعلي لابوانت وغيرهم، اعتقلت في أفريل1957 بعد إطلاق النار عليها في شوارع القصبة المستقلة، إثر مطاردة رجال الجيش الفرنسي لها، تعرضت لأشد أنواع العذاب، أطلق سراحها مع وقف القتال. ينظر: محمد الشريف ولد الحسين، **من المقاومة إلى الحرب من أجل الاستقلال 1830–1962**، دار القصبة، الجزائر، 2000، ص139.

[25] **فضيلة الدزيرية 1917–1970**: ولدت في جوان 1970 بجنان بيت المال ضواحي السيدة الإفريقية بالجزائر العاصمة، اسمها الحقيق هو فضيلة مداني، وتعتبر إحدى الشخصيات الفنيّة التي أثرت على الأغنية التقليدية الحضرية المعروفة بالحوزي، أختها قوسم مدني على المسار الفني لعميدة الغناء العاصمي، لم يمنع عمل فضيلة الفنيّ من أداء واجبها الوطني خلال ثورة التحرير المجيدة، حيث كانت تجمع الأموال وترسلها عبر الفدائيين إلى المجاهدين لمساعدتهم

على شراء الأسلحة والذخيرة، كان هذا سببًا في زجها في سجن سركاجي من طرف السلطات الاستعمارية، بعد خروجها من السجن واستقلال الجزائر كونت فرقتها الموسيقية الخاصة، توفيت سنة 1970. ينظر: نبيلة لرباس، **حرب المدن مدينة الجزائر نموذجًا**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الجزائر2، 2012-2013، ص144.

26 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص356.

27 نفسه، ص ص362-363.

28 **الحرب النفسية**: هي نوع من القتال النفسي، تمارس بعدة وسائل من خلال استخدام الدعاية والإشاعة والأساليب السيكولوجية الأخرى تهدف الحرب النفسية إلى التأثير على معنويات المستهدفين وإحداث مشاعر معينة بين الجماهير لغرض زعزعة ثقتها بنفسها وبقادتها ومعتقداتها وحتى بهويتها وتاريخها، وبهذا فهي لا تهدف فقط إلى اقناع الطرف الآخر بقضية ما، بل إلى تحطيم ارادته الفردية. ينظر: عبد الحفيظ مقدم: "**الحرب النفسية والاستعمار الفرنسي الجزائر**"، في –مجلة الدراسات التاريخية–، ع10، جامعة الجزائر2، الجزائر، 1997، ص145.

29 ((اسمعوا جبهة التحرير تريد منعكم من العمل وترغمكم على غلق محلاتكم وتريد تجويعكم وتفقيركم، يا سكان القصبة ثوروا ضد أوامر الجبهة وثقوا بفرنسا، أيها الجزائريون عودوا إلى عملكم وبرهنوا على عطفكم تجاه الوطن الأول)). ينظر: فيلم معركة الجزائر للمخرج جيلو بونتيكورفو، على الرابط التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=W8F60LH8740 ,28/06/2020 ,00:23.

30 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص358.

31 نفسه، ص363.

32 Jacques Massu, **La vrai bataille Alger**, éditions du rocher, Monaco, 1971.p38.

33 جيلالي صاري: **ثمانية أيام من معركة الجزائر 28جانفي– 4فيفري 1957**، تر: خليل أوذاينية، موفم للنّشر، الجزائر، 2012، ص52.

34 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص391.

35 سهام بن غليمة، المرجع السّابق، ص80.

36 Ben youcef ben khedda, **Alger capital de la résistance** 1956-1957, édition houma, Alger, 2005, p172.

37 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص361.

38 Jacques Massu, op.cit, p92.

39 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص362.

40 جيلاني تكران: "**دراسة في إضراب الثمانية أيام 1957 وانعكاساته على تطور الثورة الجزائرية**"، في –مجلة القرطاس–، ع2، مخبر الدراسات الحضارية والفكرية، جامعة حسيبة بن بوعلي شلف، 2020، ص184.

41 **علي لابوانت 1830–1957**: اسمه الحقيقي علي عمار ولدفي 14 ماي 1830 في مدينة مليانة، عاش طفولة صعبة وغير سعيدة، حيث لم يتمكن من الالتحاق بالمدرسة كسائر الأطفال الجزائريين، نظرا لظروف عائلته الصعبة فكانت عائلته تتكون من سبعة أفراد وهو أكبرهم اضطر للعمل في مزال المعمرين وعرف وقتها السيطرة والاستغلال الذين كان يمارسه المعمرين على الجزائريين، وفي سن 17 سنة انضم الى صفوف النادي الرياضي فكان مهتم بالألعاب الرياضية وخصوصا الملاكمة، طلب للتجنيد لكنه رفض أداء الخدمة العسكرية فأصبح مطلوبا من قبل الشرطة فألقي القبض عليه لأداء الخدمة العسكرية في معسكرات بليدة، وبعد اداء الخدمة العسكرية عاد للعمل فتعرف على الوطنيين الذين زرعوا بداخله فكرة الثورة، انضم الى صفوف المجاهدين في العاصمة وشارك في هجمات عدة على مراكز وجود الفرنسيين شكل مجموعة مع الفدائيين مع حسيبة بن بوعلي واستشهد معها في تفجير المنزل في 8 أكتوبر 1957. ينظر: ياسف سعدي: **ذكريات معركة الجزائر**، تر: إبراهيم حتفي، الدار القومية للطباعة والنشر، الجزائر، ص ص59-79.

42 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص ص367-368.

43 بن يوسف بن خدة: **شهادات ومواقف**، ط1، دار الأمة، الجزائر،2007، ص ص123-125.

44 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص338.

45 عامر رخيلة: "**خلفيات إضراب الثمانية أيام 28 جانفي–4 فيفري 1957**"،في –مجلة أول نوفمبر–، ع171-172، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر،2013، ص 68.

46 زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص391.

47 **فرانسوا ميتران 1915–1996**: وزير داخلية مكلف بالعمالات الفرنسية بالجزائر عام 1954، صرح في 12 نوفمبر أمام النواب "لا اقبل التفاوض مع أعداء الوطن، التفاوض الوحيد هو الحرب" ، وزير العدالة في حكومة غي مولي بين فيفري 1956 وجوان 1957 خلال معركة الجزائر، ارتبط اسمه بالإعدامات بدون محاكمة، أسس الشروط الشرعية لممارسة التعذيب، كان على علم بما تقوم به المصالح الخاصة وجنود المظليين، اعترض على الاستئناف لطلب العفو ووافق شخصيا على أكثر من 30 إعداما لمناضلي جبهة التحرير الوطني، وحكم البلاد خلال عهدتين من 1981-1996. ينظر: عاشور شرفي: **قاموس الثورة الجزائرية 1954–1962**، دار القصبة للنشر، الجزائر،2007، ص356.

48 الدول العربية الشقيقة لم تتأخر يوما في تضامنها مع الشعب الجزائري وقضيته العادلة، فالإضراب التاريخي أحدث صدى عميقا سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي على حد سواء في اغلب الدول العربية، ففي تونس اعلن الشعب التونسي صبيحة يوم الأربعاء 30جانفي 1957 إضرابا شاملا لمدة نصف يوم تضامنا مع الشعب الجزائري، أما في

القاهرة فقد أذاعت محطة صوت العرب بلاغا وجهته جبهة التحرير الوطني الى الشعب الجزائري تمجد فيه موقفه الرائع في تنفيذه قرارات الإضراب التاريخي، ينظر: **صدى الإضراب العظيم في الأقطار العربية**، جريدة المقاومة الجزائرية،17 فيفري 1957، ص ص 8-9.

[49] جيلاني تكران: **دراسة في إضراب الثمانية أيام 1957 وانعكاساته على تطور الثورة الجزائرية**، مرجع سابق، ص10.

[50] زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص338.

[51] الأساليب التي استعملتها فرنسا للقضاء على الإضراب، ينظر الملحق رقم 03.

[52] محمد عباس، **ثوار...عظماء شهادات 17 شخصية وطنية**، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر،2009، ص393.

[53] جودي الأخضر بو الطمين: **لمحات في ثورة الجزائر**، ط2، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1987، ص83.

[54] **القصبة**: هي المدينة التاريخية العتيقة وتعتبر المدينة الأم للجزائر، شبهت بالقلعة لأنها محصنة أمنيا ببنائها، تقع على ربوة يزيد ارتفاعها على 100م مشرفة على البحر، فقد بنيت بأيدي جزائرية لكن بقرار عثماني، فقد صمم كل ركن من أركانها بآداء وخلفية اجتماعية وثقافية معينة، وقد عرف على سكانها أنهم محافظون على العادات كونهم تربوا ونشؤا على عاداتهم وتقاليدهم وتشربوا بثقافتهم الحضرية، في سنة 1716 تهدمت معظم منازلها إثر زلزال، اتخذت بعد ذلك الشكل الذي تعرفه اليوم الملتصق المتراص فيما بينه ليلائم الانحدارات الطبيعية فهي تظهر للعيان على شكل مثلث تتخلله منازل وطرق ضيقة ملتوية، مع وجود مباني ذات شرفات عثمانية الشكل من الجهة العليا للقصبة ومبان بشرفات غربية الهندسة بناها الاستعمار الفرنسي أسفل القصبة كواجهة يخفى بها مدينة الجزائر العتيقة. ينظر: عبد القادر حليمي: "**أصول نشأة مدينة الجزائر**"، في –مجلة الأصالة–، ع8، زارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1972، ص ص20-21 .

[55] زهرة ظريف، المصدر السّابق، ص361.

[56] Yacef Saadi, op.cit, pp 203-204.

[57] **علي بومنجل 1919–1957**: ولد عام 1919 بغليزان، تمكن من متابعة دراسته الثانوية خلال الثلاثينات، ودخل الجامعة ليحصل على شهادة الليسانس عام 1943، عمل محاميا، تأثر بحوادث الثامن ماي 1945 وانخرط في أحباب البيان والحرية، شارك في تأسيس الحركة الجزائرية للسلم والحركة العالمية للسلم، دعا غداة اندلاع الثورة التحريرية الحكومة الفرنسية الى إجراء مفاوضات، انخرط في صفوف جبهة التحرير الوطني وساهم في الدفاع عن المناضلين الوطنيين وقدم مساعدات لابن مهيدي في العاصمة، عين مستشارا في لجنة التنسيق والتنفيذ حيث قدم خدمات جليلة لعبان رمضان، ألقي عليه القبض في بلكور يوم 8 فيفري 1957 وخضع للتعذيب والاستنطاق من قبل وحدة المظليين التابعة للجيش، نادت كثير من المنظمات والشخصيات بإطلاق سراحه، وبعد ثلاث وأربعين يوما اغتيل علي بومنجل ورمي من الطابق الخامس لإحدى العمارات بالأبيار يوم 23 مارس 1957، وأعلن أنه انتحر باختياره، اعترف بول

أساريس مؤخرا ولأول مرة أنه المسؤول عن اغتيال علي بومنجل فأسدل الستار بذلك على خرافة انتحاره التي كاد يصدقها الكثيرون، ولقد لقي اغتياله صدى واسعا في أوساط الجزائريين والمثقفين الفرنسيين، ومنهم أستاذه" كابيتون" الذي علق دروسه بكلية الحقوقSorbonاحتجاجا على مقتله. ينظر: عبد الله مقلاتي: **موسوعة أعلام وأبطال الثورة الجزائرية**، شمس الزيبان للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2012، ص ص124-125.

[58] محمد عباس، **ثوار...عظماء شهادات 17 شخصية وطنيّة**، المصدر السّابق، ص393.

[59] صلاح الدين زنو: "**السياسة الاستعمارية الفرنسية المتخذة ضد إضراب الثمانية أيام 28جانفي1957**"، في –مجلة مدارات تاريخية –، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2019، ص382.

[60] يورد محمد حربي وثيقة في كتابه " أرشيف الثورة الجزائرية" توحي من خلال بعض الكلمات أنها صادرة عن المكتب السياسي للحركة المصالية التي وجهت انتقادا قويا لجبهة التحرير حين إعلانها إضراب الثمانية أيام" أن جبهة التحرير الوطني لم تفكر في نتائج الإضراب وهي من دفعت الجماهير الشعبية إلى إضرابات متتالية ومستمرة لفئات مختلفة من التلاميذ والطلبة والتجار، والإضراب عن قراءة الصحف الفرنسية وهي حركات أثقلت كاهل الشعب الجزائري ودفعته إلى اليأس والقنوط. ينظر:

Mohamed harbi, **Les archives de la révolution Algérienne**, édition dahleb, Alger, 2010, p143.

ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

ISSN: 2800 - 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

المجلد: 02، العدد: 01	رجب 1444هـ/فيفري 2023م	الصفحات: 203–218

أثر الفكر الإصلاحي لمحمد بن عبد الكريم المغيلي في غرب إفريقيا

The impact of the reformist thought of Mohammed Ibn Abd al-Karim al-Maghili in West Africa

سارة عزيزي *
جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة (الجزائر)
azzizisarah7@gmail.com

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الإرسال 2022/04/29 تاريخ القبول 2022/05/14	مثلت أفكار و آراء محمد بن عبد الكريم المغيلي الإصلاحية في السياسة و الحكم و إصلاح المجتمع عموما ، ركائز إعتمد عليها حكام غرب إفريقيا و محكوميها على حد سواء و ذلك منذ إتصالاته الأولى بهم متصدرا للدعوة و الإصلاح و الجهاد في بلدانهم ، فاتخذ حكامها من تلك الأفكار و الآراء دستورا تسير به أنظمة حكمهم ، كما جعلت مجتمعاتها منه قدوة في سلوكاتها اليومية و في الدعوة والإرشاد والإصلاح و الجهاد فيما بعد ، و هو ما سيتواصل مع أجيال أخرى بعده بقرون ، و بالتالي يكون المغيلي قد صنع لنفسه مكانة خاصة في أذهان الأفارقة في تلك الأقطار حكاما و محكومين، وترك أثرا مازال باقيا إلى اليوم.
الكلمات المفتاحية: المغيلي؛ الإصلاح؛ الجهاد؛ غرب إفريقيا.	

Abstract:	Article info
Thoughts and opinions of Mohammed Ibn Abd al-Karim al-Maghili in politics, governance and reforming society in general, represented the pillars on which West African rulers and ruled alike depended, since his first contacts with them for the reform	Received: 2022/04/29 Accepted: 2022/05/14

* المؤلف المرسل

and « Jihad » in their countries, so, these rulers adopted these thoughts and opinions as a constitution in their governance systems, also, west african societies made him a role model for them in their daily behavior, guidance, reform and Jihad later, and it will continue with others generations after him centuries latter . Thus al-Maghili has made a special place for himself in the minds of africans in those countries; rulers and ruled, and he left a impact that still remains today.

Key words: Al-Maghili; reform; Dihad; West Africa.

مقدمة:

يعد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي من أبرز علماء القرن التاسع الهجري، وأكبر داعية إسلامي عرفه الغرب الإفريقي خلال هذه الفترة ، شكلت حياته نواة حركة إصلاحية حقيقية في حياة كثير من الشعوب والأفراد في تلمسان ، امتد صداها داخل وخارج حدود وطنه تلمسان عربيا و إفريقيا، قام بدور عظيم في السودان لا يدانيه أي دور لأي عالم مغربي، فترك أثرا علميا و ثقافيا و دينيا بارزين في جميع ممالك السودان الغربي (غرب إفريقيا) يشهد به أبناء المنطقة إلى يومنا هذا ، فما الأثر الإصلاحي الذي تركه المغيلي بعده في غرب إفريقيا؟

1- التعريف بالشيخ المغيلي :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني و ينتسب إلى قبيلة مغيلة التي تقطن نواحي تلمسان في الجزائر الحالية، لا يُعلم تاريخ ولادته بالضبط، غير أن وفاته كانت في سنة 909هـ، وقد كان من المثقفين وأولي الفكر في عصره[1]، وصفه أحمد بابا التنبكتي بـ : **"خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة الفهّامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم و التقدم متمكن المحبة في السُّنة و بعض أعداء الدين"**[2]، كما وصفه إبن مريم بقوله : **"القدوة الصالح الحبر أحد أذكياء العالم و أفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم و التقدم و النسبة في الدين"** وغيرهما، أخذ العلم عن الإمام عبد الرحمان الثعالبي والشيخ يحي بن بدير غيرهما ، كما أخذت عنه جماعة من العلماء كالفقيه أيد أحمد والشيخ العاقب الأنصمني و محمد بن عبد الجبار الفجيجي وغيرهم[3].

خلال اشتغاله بالتدريس في تلمسان، لاحظ حالة التعفن السياسي التي سادت عرش بني زيان، والتفسخ والإنحلال اللذان كانا يعمّان مجتمع المدينة الزيانية وتكالب القوى الأوربية ضد البلاد و موانئها و مدنها الساحلية، وضد كل بلدان المغرب الأخرى شرقا وغربا. كما لاحظ المغيلي أيضا خروج الأمراء عن الجادة الإسلامية، و انغماسهم في الملذات، و استسلامهم لأهواء الأجانب من اليهود، و الإسبان، و البرتغاليين، فأَنِف من العيش هناك، و تاقت نفسه للهجرة إلى حيث يكون في مقدوره الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(4)، فانتقل إلى توات و لا تُعرف سنة انتقاله بالضبط غير أن تسعينات القرن الخامس عشر أدركته بها دون شك، و قد كانت واحات منطقة توات خلال القرن الخامس عشر من أكثر المناطق نشاطا في تسيير القوافل التجارية بين السودان الغربي وبلدان الشمال الإفريقي، و كان التواتيون يشكلون منذ القديم جالية كبيرة تعمل في التجارة بمنطقة النيجر الأعلى و تتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال و توزيع بضائعها على مختلف مدن السودان(5).

و لا يُعرف سبب انتقاله إلى الصحراء، غير أن حملته على اليهود القاطنين بها ورسائله العديدة في موضوعهم تحمل على الإعتقاد بأنه وجد ضيقا في العيش بالشمال، حيث يسيطر اليهود في أهم المدن على مصادر التجارة و المال، و أوغلوا في شراء ذمم بعض المسؤولين فأصبحوا صنائع لهم. و لما انتقل إلى الجنوب الجزائري وجد اليهود يشاركون بنشاط في حركة القوافل التجارية مع السودان و تسلطوا على تجارتها هناك فدعا لمحاربتهم واجتمع له أنصار، فطاردوا اليهود و هدموا عددا من بِيعِهم في توات ونواحيها(6).

2- رحلته إلى السودان الغربي (غرب إفريقيا) :

اتجه المغيلي بعد الصحراء إلى بلاد الآهير شمال نيجيريا، و من هناك أخذ طريقه إلى الهوسا، و استقر بمدينة تيقدا (تيغزة) التي كانت مزدهرة بها الحركة الثقافية و التجارية، واشتغل

بالتدريس و الوعظ و الإرشاد في مساجدها، و من تيقدا انتقل المغيلي إلى كانو ثم إلى كاتسينا، و استقر هناك بعض الوقت و تزوج و أنجب[7].

و يبدو أنه حينما سافر إلى السودان كانت شهرته كعالم قد سبقته إلى تلك البلاد[8]، بحيث نقلت القوافل التجارية أخباره فتطلّع السكان لرؤيته والتعلم منه، فقد يسّر للإمام المغيلي الدخول في المجتمع السوداني ما كانت تتناقله قوافل التجارة، و في نفس الوقت الاتصال بملوك و أمراء السودان الغربي من المسلمين[9]. فأثناء وجود المغيلي في كانو اجتمع بسلطانها (أبو عبيد الله محمد) الذي استشاره و استفاد منه وكتب له رسالة في أمور السلطنة (فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام) يحضّه فيها على اتّباع شرع الله و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و قرر له أحكام الشرع و قواعده[10]، أثبت من خلالها إطلاعه الكامل على أحوال بلاد السودان و سلوك أمرائها و عادات سكانها، كما أثبت فيها حرصه الشديد على أن يحكم المسلمون بحزم، و ذلك وفق أحكام الشريعة الحكيمة[11].

ثم ارتحل المغيلي بعد ذلك إلى بلاد التكرور فوصل إلى كاغو (غاو) و اجتمع بسلطانها الأسقيا محمد الكبير و جرى على طريقته بالأمر بالمعروف و ألّف له كتابا أجابه فيه عن مسائل حددها له الأسقيا[12]، فأجابه المغيلي حول تلك المسائل و كان عددها سبعة، و قد جاء جواب المغيلي مفصلا و دقيقا؛ إذ أفرد لكل مسألة في أجوبته بابا خاصا، ظهر من مجموعها معرفة المغيلي بأحوال المسلمين في بلاد سنغاي و في بلاد السودان الغربي عموما معرفة واسعة، كما أن نظريته في الخلافة و فيمن يصح له حكم المسلمين يجب أن يتمثل في الوعي الكامل بواجباته تجاه مجتمع المسلمين ككل و تجاه رعاياه المباشرين بصفة خاصة[13].

و هكذا تمكن المغيلي من تحديد و تنظيم مسار و قواعد مجتمع سليم تسوده العدالة الربانية ، و تنظمه قواعد استنبطها من الكتاب و السُّنة [14] .

3- آثار المغيلي الفكرية :

خلّف المغيلي وراءه تلاميذ كثيرين يُعدّون بالآلاف في غرب إفريقيا، ما يزالون حتى اليوم يدينون له بالولاء الفكري و الأدبي، و يعترفون بفضله على مجتمعاتهم السودانية الإسلامية، و كتب كثيرون عنه و عن سيرته الشخصية و الاجتماعية و الثقافية، مثل أحمد بابا التنبكتي، و إبن مريم المليتي، و الزركلي، و بروكلمان، و غيرهم، و عدُّوه من كبار المصلحين بالسودان الغربي خلال القرنين التاسع الهجري و الخامس عشر الميلادي، ومع ذلك فإن جوانب كثيرة من حياة المغيلي، و نشاطه العلمي و الفكري و الأدبي ما تزال مجهولة و تحتاج إلى بحث دقيق، و تمحيص، و فرز[15].

و قد خلّف المغيلي من ورائه كذلك إنتاجا فكريا غزيرا في ميدان التأليف ما يزال الكثير منه مخطوطا، و محفوظا لدى تلاميذه و المتشيعين له من الأسر الإسلامية في بلاد السودان الغربي ، منها ما ذكره ابن مريم في البستان :

- البدر المنير في علوم التفسير .
- تفسير سورة الفاتحة في ورقة واحدة .
- مصباح الأرواح في أصول الفلاح (يقع في كراسين) .
- إكليل مغني النبيل ، و هو شرح لمختصر خليل .
- إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل .
- شرح بيوع الآجال .
- مختصر تلخيص المفتاح ، و شرح علمه .
- مفتاح النظر في علم الحديث .
- شرح جمل الخونجي في المنطق .

- تأليف في المنبهات .
- منح الوهاب منظومة في علم المنطق وضع لها ثلاثة شروح .
- تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين .
- شرح خطبة المختصر .
- مقدمة في العربية و فهرسة لمروياته .
- كتاب الفتح المبين .
- أجوبة عن أسئلة الأسقيا محمد الأول الكبير .
- جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام .
- عدة قصائد منها الميمية على وزن البردة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام[16] .

4- آثار المغيلي الإصلاحية في غرب إفريقيا:

إنّ المتتبع لحياة المغيلي يجد أنه كان كثير التدريس والوعظ في كل مكان حل به، فقد عمل على نشر المذهب المالكي و غيره من صنوف الفقه و الأدب و التصوف والحديث، و درّس بتوات وأقام بها زاوية للعلم(القادرية)، كما درّس بمسجد الكرامة الذي أسسه بمدينة أكدس و أخذ عنه الكثير من أبناء تلك المنطقة، كما أخذ عنه التلاميذ بمدينة كشنة (كاتسينا) و مدينة كانو حيث تولى قضاء الجماعة بها وكان مستشارا لسلطانها بالإضافة إلى مدينة كانو التي أفتى و درّس و عمل على نشر العلم والفكر بها[17].

إن الفترة التي قضاها الإمام المغيلي بهذه المناطق سمحت له بتحديد و تعريف النُّظُم الملائمة لمثل هذه المجتمعات المركبة و الملتزمة بمبدأ (نظام الأبوة)، و هو نظام يقوم على علاقة

تراتب عامودي هرمي ذا تقاطع أفقي[18] ، يتصرف من خلاله السلطان أو الملك في عشيرته وفقا للقواعد الإجتماعية المتصلة بالواقع المعيشي لهذه المجموعة أو تلك[19] .

لقد وجد المغيلي هذه الهيكلة راسية و قارة في بنى التشكيل القبلي و البشري للأفارقة في تلك الفترة، فلم يسعه إلا أن يستبقي عليها ويُدخل القواعد والنظم الإسلامية التشريعية لتسديدها، وهذا ما جعل الأمراء والسلاطين (الوثنيين) و الوجهاء يدخلون في الدين الإسلامي أفواجا أفواجا، و هكذا تأسلمت الرقعة الإفريقية على ذلك النحو التلقائي في المناطق التي تحرك بها المغيلي بدعوته الإسلامية الإصلاحية، لاسيما الفئات الفقيرة التي وجدت نفسها حظيت بالاعتبار الإنساني في كنف الإسلام[20].

ومن مآثر المغيلي في هذه البلاد أنه نشر بها الإسلام حسب تعاليم القرآن و السُّنة؛ لأنه كان سُنّيا، و من ثم اتخذ أهل البلاد في ميدان الفقه و الشريعة، مذهب الإمام مالك كقانون لحياتهم الدينية و الإجتماعية و الإقتصادية[21]، و كان كتابه "تاج الدين فيما يجب على الملوك و السلاطين" المرجع الأساسي لدستور دولة كانو الإسلامية، كما كانت أجوبته على أسئلة الأسقيا محمد المرجع الرئيس لدستور إمبراطورية الأسقيا الإسلامية(سنغاي)، و مصدرا أساسيا لقوانينها[22].

و الدليل على ذلك أنه عندما استقام لملوك الفلان أمر بلاد الهوسا بقيادة الشيخ عثمان بن فودي في القرن التاسع عشر، وجدوا في البلاد النظم الإدارية صالحة احتفظوا بها و لم يُغيّروا منها شيئا؛ فمثلا نظم الضرائب التي وجدوها تسير وفق النظم الإسلامية المستمدة من تعاليم القرآن الكريم فضريبة الزكاة كانت تدفع لبيت المال و هناك ضريبة العشر و ثمة ضريبة تفرض على الماشية و أخرى على الأراضي الزراعية و هي الخراج وضريبة تسمى الجزية؛ وكانت تُفرض على الوثنيين الذين رفضوا الدخول في الإسلام، وقد حافظ الشيخ عثمان بن فودي على هذا النظام الذي وجده في البلاد و عمل على تعميمه ونشره في الأقطار الإفريقية التي دانت له

بالطاعة، و هو ما يبعث على الإعتقاد أن هذا الأخير قد اطّلع و تبنّى ما ورد في مؤلفات المغيلي، و أخذ عنها الشيء الكثير الذي أهّله لحكم هذه البلاد حكما صالحا(23).

كما يمكن القول أن المغيلي كان مُنشِئا للإمارات في إفريقيا؛ إذ أن دروس الدعوة وتعاليم التبليغ في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر كانت تتحول في الميدان إلى نواة لتأسيسات بشرية و تجمعات أهلية سرعان ما تأخذ طابعا اجتماعيا وسياسيا؛ حيث تجد القبائل والمعاشر المتفرقة نفسها قد اجتمعت على كلمة لا إله إلا الله، ولحمت بينها فروض توحدها في التوقيت و تربط بينها في المناسبات و تزيل الحواجز التي ظل الشرك والديانات الطوطمية تضعها عوائق تحول دون التمازج و التداخل (24).

ولأن الإسلام يدعو إلى العلم و الجد و العمل و الإنتاج و التوسع في ذلك، فقد دعا الشيخ المغيلي من خلال آثاره و أعماله و جهوده في الدعوة و الإصلاح قولا وعملا إلى العمل الجاد الذي يعود على الناس بالخير و على المجتمع بالرفاه و الرخاء، و حذر من التوغل في طلب الدنيا؛ لأن ذلك يصرف الناس عن الآخرة و يلهيهم عن العبادة والطاعة، و دعا إلى أخذها برفق و الإستمتاع بطيبها في اتزان لأن ذلك يحقق للنفس البشرية ميولها و لا يتعارض مع طموحها (25).

و رغم كل الصعاب والعراقيل التي واجهته من مُناوئيه، فقد استطاع المغيلي بما أوتي من علم غزير و غيرة على دين الإسلام و حّس مرهف و حرص على صلاح هذه الامة وإصلاحها، و شعور بالمسؤولية و الأمانة أن يُبلّغ رسالة الإسلام، فكانت تفيض من لسانه وقلبه كلمات مؤثرة هي آية في الإخلاص و الصدق و الحمية الدينية ، تلقّفها أعلام الدعوة وأئمة التربية من تلامذته المخلصين في القرون التي تلته، فكان لهم دور كبير في المحافظة على روح الإسلام و هديه، و نشره في الأصقاع البعيدة التي استعصت على الجيوش المدججة إخضاعها، وما كان له أن يحصل على هذا النفوذ إلا بإخلاصه في عمله الدعوي و زهده في

ما كان يحرص عليه غيره من علماء البلاط و عامة المدعوين، بل و حرصه على هداية الخلق أجمعين إلى الإسلام[26].

و يعد المغيلي من أوائل من دفع العلماء و الحكام في السودان وخاصة في كانو إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأخضع المعارف الإسلامية في السودان لمحك النقاش و الأخذ و الرد و العطاء، و وسّع دائرة النقاش العلمي بحيث أصبح يشمل مناطق لم تكن العلوم الدينية قد وصلتها على الشكل المنهجي و قام بدور عظيم في السودان لا يدانيه دور قام به عالم مغربي، فقد ترك أثرا إسلاميا بارزا في جميع الممالك الإسلامية في بلاد السودان الغربي، و قام بتصحيح مفاهيم كثيرة مغلوطة في أذهان العامة والسلاطين و دعم مفاهيم الدعوة الإسلامية، و وجّه الحكام للعمل بها لطبع المجتمع بطابع إسلامي صحيح[27] .

ترك المغيلي لنفسه مكانة عظيمة و أثرا بالغا في الأمة و أصبح إسمه عندهم مقرونا بالإمام و ظلت آثاره قائمة بعد موته قرونا طويلة. و ألّف كثيرا من الرسائل و الكتب أضاءت الحياة العلمية في قلب السودان و أوضحت له منهج الإسلام الصحيح في الحياة العلمية ، و أصبحت كتبه مدرسة روحية تربت عليها العلماء و الحكام و العامة ، و ظهر أثرها بارزا في الأمة في عهده ، و على الأجيال التي أتت من بعده من المصلحين السودانيين، فقد تأثر هؤلاء بآرائه و منهجه في تصنيف من يجب جهاده و قتاله من الكفار المرتدين على الإسلام ، و من يدعي الإسلام و يخلط بينه و بين عبادة الأوثان أويعتقد فيها النفع و الضرر ، و قد أخذ بمنهجه هذا عثمان بن فودي و أتباعه وخلفاؤه من بعده ، و كتابه المسمى (سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان) عبارة عن نسخة طبق الأصل من أجوبة المغيلي على أسئلة الأمير محمد الأسقيا ، و رسائله إلى أمير كانو ، في الفصل الثاني إلى نهاية الفصل التاسع أي من ص10 إلى ص42...[28]، و في رسالته المسماة "حصن الأفهام من جيوش الأوهام" ، فقد نقل فيه عن المغيلي في مواضع ثم قال : "و سئل شيخنا محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني عن تحليل للمطلقة ثلاثا قبل زوج ، فقال ..." [29] ، و قد علق آدم الألوري على

كلمة شيخنا هذه فقال : "أنظر قول ابن فودي : و سئل شيخنا ...لقد عزا النقل إلى المغيلي و نسب نفسه إليه كالتلميذ الذي سمع أو أخذ عن المغيلي مباشرة ، و مع ما بينها من بعد العهد الذي لا يقل عن ثلاثة قرون ، و إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على غاية التأثر و شدة التعلق بهذا الشيخ"[30] .

فآراء الشيخ عثمان و آراء أخيه عبد الله مبنية في كثير من المسائل على آراء المغيلي؛ ففي كتاب ضياء السياسات للشيخ عبد الله بن فودي تشابه شديد بين آرائه وآراء المغيلي في كتابه الذي وجهه إلى أمير كانو في ما يجب على الملوك[31].

و استنادا إلى قول آدم الألوري في مؤلفه ، فجميع العلماء الذين اجتمعوا به أو أخذوا العلوم عن تلاميذه تأثروا به حتى امتازوا عند علماء غرب إفريقيا بمعاصري المغيلي وعصرهم بعصر المغيلي، كما احتفظوا برسائله و مؤلفاته، و حفظوها في صدورهم، وخزنوها في مكتباتهم حتى توارثها الخلف عن السلف[32] .

و من الأمثلة الأخرى الكثيرة على هذا التأثير هي ما ورد في كتاب "تيسير الفتاح في الذات عن أهل الصلاح" الذي ألفه محمد ألكنا السوقي في (121 صفحة كبيرة)، فقد ألفه صاحبه في الرد على رجل عاب عليه و على قومه أنهم ساكنوا الكفار و لم يهاجروا ، محتجا بنصوص المغيلي في أجوبته للأسقيا و من رسالته المسماة "مصباح الأرواح"، فكان المؤلف يتتبع عبارات المغيلي و يحللها و يشرحها و يرد على خصمه بما فهمه منها[33]. كما نقل عنه الأمير محمد بلو في مواضع كثيرة من مؤلفاته منها "إنفاق الميسور"، وكان ينعته بالحجة؛ و كمثال عن ذلك في المؤلف المذكور: "**قال الحجة المغيلي في أجوبته لأسئلة أسكيا الحاج محمد: فاكتسب لنفسك ما ترجي بركته...**" [34] ، و حين حاول الشيخ آدم الألوري أن يؤرخ لحركة الأدب و اللغة العربيين في نيجيريا في كتابه الذي سماه "مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية" ، لم يجد محيدا عن الإعتراف بتأثير المغيلي في هذه الناحية أيضا و دوره في ترقية العلوم العربية و

الثقافة الإسلامية ، مما جعله يقسّم عصور الأدب العربي في نيجيريا منذ قيام هذا الأدب فيها إلى العصر الحاضر إلى خمسة أدوار : (العصر البرناوي – العصر الونغري – عصر المغيلي من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر – ثم العصر الفلاني و العصر الإنجليزي) ثم يجعل من نص بعض فتاوى المغيلي الواردة في أجوبته لأسئلة الأسقيا نموذجا لأسلوب الكتابة العربية في هذا العصر الأدبي الذي سماه بالعصر المغيلي[35].

و المغيلي من العلماء القلائل الجهابذة الذين بقي لهم آثار قائمة في غرب إفريقيا وحُفظت مؤلفاتهم، فقد أصبح ذاكرة عالقة في أذهان الإفريقيين و أصبحت مؤلفاته ورسائله مصدرا هاما من مصادر العلوم الإسلامية و التاريخ الإسلامي و مراحل تطور التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا في القرنين التاسع و العاشر الهجريين و نظام الحكم في الدول الإسلامية التي كانت قائمة في القرنين المذكورين[36] .

و قد تَبيّن من كتابات و عناوين عثمان بن فودي ، و عبد الله بن فودي و محمد بلو، وآرائهم الفكرية العامة هي روح الأفكار التي حملها محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى السودان، و المتمثلة في تمكين العقيدة و الغيرة عليها ، و وضع سياسة للناس يقادون على ضوئها ، و الجهاد في سبيل إقامة الدولة العادلة ، و نشر الإسلام بلين و روية ، و محاربة البدع و الأوهام ، و غيرها ، فقد جاءت العديد من الكتب لعلماء أفارقة لتوضيح منهج ومذهب المغيلي في الحياة الدنيوية و الأخروية. فكان للمغيلي السبق في تنظيم الحكم ، والإمارة و اقتفى أثره من جاء بعده من العلماء المجاهدين الداعين للعدل و النظام والمساواة[37] .

لقد استفادت البلاد الإفريقية منه(المغيلي)كثيرا؛ حيث كان المغيلي قد أرسى بوصاياه السياسية القواعد الشرعية للحكم و للراعي و للرعية و للتغيير و النظام ، فأعماله و آثاره المكتوبة والروايات الشفوية المنقولة عنه لا زالت محفوظة و لا زال العلماء و أهل الإصلاح والسياسة و رجال الدعوة يتناولونها جيلا بعد جيل ..إلى أن وصلت مرحلة قيام الحركة الثورية و

الدعوية التي قادها عثمان بن فودي ، فاستثمرت فيها أحسن استثمار و اعتمدت عليها أشد الإعتماد حتى أننا لا نكاد نجد مؤلفا من مؤلفات الشيخ عثمان أو غيره ، من منظري حركته و القائمين بدعوته و المؤرخين لها يخلو من الإشارة للمغيلي و النقل عنه و الرجوع إلى وصاياه و فتاواه و رسائله، و الإحتجاج بأقواله وآرائه في تدعيم دعوتهم و إسناد الأفكار التي تضمنتها حركتهم الجهادية والإصلاحية والدعوية[38].

إن تأثير المغيلي في الحركات الإصلاحية في أفريقيا الغربية لا يمكن حصره في النقول التي تتردد في جل كتابات وخطابات زعماء هذه الحركات، بل تجاوز ذلك إلى الإقتداء بسيرته وطريقته في ردع البدع ومنهجه في الدعوة و العمل بآرائه و الإقتداء بأفكاره واستعمالها في تدعيم مواقفه، و كثير من الفصول والرسائل التي كتبها الشيخ عثمان ما هو إلا تكرار أو شرح أو تعليق أو إعادة إنتاج لأفكار المغيلي وكتاباته و ترداد لمقولاته[39].

كما أن للإمام المغيلي الريادة في نشر الطريقة القادرية في السودان الغربي،و قد أخذ عنه تلميذه في التصوف عمر الشيخ ابن أحمد (1460-1553) الذي تلقى مبادئ العلم على يديه ، و عهد إليه بنشر الطريقة القادرية في المنطقة[40] ، و قد أخذ سيدي عمر الشيخ بدعوة المغيلي و بفضائله و لازمه و تبعه في حله و ترحاله لنشر الدين و الإصلاح ، ويظهر أنه كان رسوله لنشر الإسلام و الطريقة القادرية في السودان الغربي، و مما لا ريب فيه أن هذا هو الذي جعل اسم سيدي عمر الشيخ و إسم كنتة أكثر شهرة في المنطقة من إسم المغيلي ، و بوفاة المغيلي حوالى عام 1532م تولى عمر الشيخ مهام معلمه وأصبح الرئيس الأعلى للطريقة القادرية[41]، فكان الكثير من زعماء بعض الحركات الثورية و الإصلاحية بالمنطقة من أتباع الطريقة القادرية اتباعا لنهج هذا المصلح الثائر(المغيلي)، و هو يضيء لنا جانبا آخر من جوانب تأثر هذه الحركات بالشيخ المغيلي؛ فقد تنورت تلك الحركات من خلال آثار المغيلي و فتاويه و رسائله ووصاياه التي ورثها من علماء بلاده، كما تأثرت بسيرة المغيلي في غيرته على الإسلام والدفاع عن بيضته باللسان ثم باليد ثم بشهر السلاح[42] .

و يكفي شهادة على الدور الإصلاحي الكبير للمغيلي في غرب إفريقيا ما قاله الدكتور آدم عبد الله الألوري النيجيري: إن أفكار المغيلي أدت إلى تغير ملموس في حياة الناس ...و أن أهل سكوتو ورثوا الجهاد عن الشيخ المغيلي و كان ذلك أحد العناصر الهامة في تطور الإسلام و الثقافة العربية ببلاد الهوسا[43]، و أن التاريخ لم يخلد أثرا لعالم عربي مغربيا أو مشرقيا مثل ما خلد للإمام المغيلي في غرب إفريقيا عموما و في نيجيريا خصوصا من تأثير[44].

خاتمة:

مما سبق يتضح لنا الدور الكبير و الرئيسي الذي أداه الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في سبيل نشر الإسلام على نطاق أوسع من غرب إفريقيا ، و تصحيح المفاهيم المغلوطة التي كانت عالقة في أذهان الأفارقة حكاما ومحكومين، فأرسى بوصاياه القواعد الشرعية للحكم وللراعي و للرعية و للتغيير و النظام، و خلفه بعده تلامذة و أتباعا اقتفوا منهجه و اقتبلوا فكره، ولا تزال أعماله و آثاره المكتوبة والروايات الشفوية المتناقلة عنه محفوظة، ولا زال العلماء و أهل الإصلاح والسياسة و رجال الدعوة يتناولونها جيلا بعد جيل .

الهوامش:

1- عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء**. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص153.

2- أحمد بابا التنبكتي: **نيل الإبتهاج بتطريز الديباج**. تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكتاب، ليبيا، 1999، ط2، ص578 .

3- إبن مريم: **البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان**. المطبعة الثعالبية ، الجزائر، 1908، ص253.

4- يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين**. دار البصائر، الجزائر، 2009، ص64.

5- عبد القادر زبادية: **التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي بعض آثاره و أعماله في الجنوب الجزائري**. مجلة الأصالة، ع26، ص209.

6- زبادية: الحضارة العربية ...، المرجع السابق، ص ص 153، 154.

7- التنبكتي: المصدر السابق، ص577، إبن مريم: المصدر السابق، ص ص254، 255، بوعزيز: المرجع السابق، ص73.

8- زبادية: التلمساني محمد بن عبد الكريم...، المرجع السابق، ص213.

9- مقدم مبروك مقدم: **الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر والوثائق التاريخية**. مؤسسة الجزائر كتاب، الجزائر، 1422-2002، ط1، ص101.

10- التنبكتي: المصدر السابق، ص577.

11- زبادية: التلمساني محمد بن عبد الكريم ..، المرجع السابق، ص214.

12- التنبكتي: المصدر السابق ، ص577.

13- زبادية : التلمساني محمد بن عبد الكريم ...، المرجع السابق ، ص214.

14- مبروك مقدم : المرجع السابق، ص107.

15- بوعزيز: المرجع السابق، ص76.

16- إبن مريم: المصدر السابق، ص ص 255، 256.

17- خير الدين شترة: **الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح الثائر وفكره الإصلاحي في توات و السودان الغربي**، مج2، الجامعة الإفريقية-الجزائر، د.ت، ص271.

18- مبروك مقدم: **الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية خلال القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد**. دار الغرب، 2004، ص21.

19- المرجع نفسه، ص61.

20- المرجع نفسه، ص21.

21- شترة: المرجع السابق ، ص523.

22- قاسم جاخاتي: **إسهام السنوسي و المغيلي في إحياء تراث علم الكلام الأشعري و الفقه المالكي و نشره في بلاد المغرب العربي و غرب إفريقيا**. مجلة المفكر، ع5، ص54.

23- شترة: المرجع السابق ، ص523.

24- مبروك مقدم: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني و دوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بأفريقيا الغربية ..، المرجع السابق، ص16.

25- شترة: المرجع السابق ، ص524.

26- المرجع نفسه، ص ص 525، 526.

27- المرجع نفسه، ص527 .

28- المرجع نفسه، ص528 .

29- عثمان بن فوديو: **حصن الأفهام من جيوش الأوهام**. تح: فضل الرحمن الصديقي، مطبعة كواليتي، نيجيريا، 1409هـ-1989م، ط1، ص109.

30- خيرالدين شترة: **الإرث الفكري والإصلاحي للشيخ المغيلي في إقليم توات وحواضر السودان الغربي**. مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية، ع21، ص ص36،37.

31- شترة: الشيخ محمد بن عبد الكريم ...، المرجع السابق، ص528.

32- آدم عبد الله الألوري: **الإمام المغيلي و آثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا**. عر: زين العابدين الكتاني، دعوة الحق، ع6و7، وزارة عموم الأوقاف-المملكة المغربية، 1978.

33- شترة: الإرث الفكري...، المرجع السابق، ص ص 37، 38.

34- محمد بلو: **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**. مطبوع ضمن كتاب: **مختارات من مؤلفات أمير المؤمنين محمد** بلو، مج1، دار إقرأ، نيجيريا، ص286.

35- شترة: الإرث الفكري...، المرجع السابق، ص38.

36- شترة: الشيخ محمد بن عبد الكريم...، المرجع السابق ، ص529.

37- مبروك مقدم: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر و الوثائق ...، المرجع السابق، ص112.

38- شترة: الإرث الفكري...، ص ص 38،39.

39- المرجع نفسه، ص 39.

40- أمطير سعد الغيث: **التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي فيما بين القرنين الرابع عشر و السادس عشر**. دار الرواد، ليبيا، 1996، ط1، ص181.

41- بول مارتي: **كنتة الشرقيون**. تع: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، سوريا.

42- شترة: الإرث الفكري...، المرجع السابق، ص39.

43- شترة: الشيخ محمد بن عبد الكريم...، المرجع السابق، ص541 .

44- الألوري: المرجع السابق، ص95.